بمناسبة سنة الإمام علي عليه السلام (١٣٧٩ ش)

مركز تحقيقات امام علي عليه السلام

(٤)

المؤتمر الدولي للامام علي (ع)
و
العدالة والوحدة والامن

(مجموعة مقالات)

المجلّد الثانى

باعتناء

الدكتور مهدي گلشني

معهد العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية

www.haydarya.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤتمر الدوليّ للامام عليّ (ع)
و
العدالة و الوحدة و الامن

(مجموعة مقالات)

المجلّد الثاني

باعتناء

الدكتور مهدي گلشني

المراجعة و التصحيح

قيس آل قيس

معهد العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية

طهران ١٤٢٣ هـ.ق

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٣٢٥٥٦

۳۷/۷
۹ک/
۴۸

کنگرهٔ بین‌المللی امام علی (ع) و عدالت، وحدت و امنیت (۱۳۷۹: تهران).
International Congress on Imam Ali and Justice, Unity and Security (2000: Tehran).
مجموعة مقالات مؤتمر الإمام عليّ (ع) الدوليّ / باعتناء الدكتور مهدي گلشني؛ المراجعة والتصحيح قيس آل‌قيس. ــ طهران: معهدالعلوم‌الإنسانية والدراسات‌الثقافية، ۱۴۲۲ ق. = ۱۳۸۰ ــ.
ج. ــــ معهدالعلوم‌الانسانيه والدراسات‌الثقافيه؛ ۲
ISBN 964-426-163-1 (دوره) ISBN
964-426-162-3 (ج. ۱) ۳۲۰۰۰ ریال
فهرستنويسي براساس اطلاعات فيپا.
Proceedings of the International Congress on Imam Ali and Justice, Unity and Security .
ص.ع. به انگليسي :
جلد دوم این کتاب با عنوان المؤتمر الدولي للامام علي (ع) والعداله والوحدة والامن: (مجموعه مقالات) منتشر شده است.
کتابنامه.
ISBN 964-426-182-8
ج. ۲ (چاپ اول: ۱۳۸۱)
۱. علی‌بن‌ابی‌طالب(ع)، امام‌اول، ۲۳ قبل از هجرت ــ ۴۰ق. ــ کنگره‌ها. ۲.علی‌بن‌ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت ــ ۴۰ ق. ــ مقاله‌ها و خطابه‌ها. الف. دکتر گلشنی، مهدی، ۱۳۱۷ ــ ، گردآورنده. ب. آل قیس، قیس، ۱۳۱۹ ــ ،
ج. پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی.
د. عنوان. ه. عنوان: المؤتمر الدولي للامام علي(ع) والعداله والوحده والامن: (مجموعه‌مقالات).
۹ک / ۷ / BP ۳۷ ۲۹۷ / ۹۵۱
۱۳۷۹
کتابخانهٔ ملّی ایران ۲۸۳۲۶ ــ ۸۰ م

مجموعة مقالات مؤتمر الإمام عليّ (ع) الدوليّ، المجلّد الثّاني

باعتناء الدكتور مهدي گلشني

المراجعة والتصحيح: قيس آل قيس
الناشر: معهدالعلوم‌الإنسانية والدراسات‌الثقافية
مديرالنشر: رحمت‌الله رحمت‌پور
الطبعةالاولى:صيف سنة ١٤٢٣ ق / المطبوع: ٢٠٠٠ نسخة
الشؤون‌التنفيذية: مهدي يزدان‌پناهي
التنضيد:فريال امرائي‌زاده / تنظيم‌الصفحات: اعظم صادقيان
الناظرالطبع: سيد ابراهيم سيد علي
الطبع والتجليد: شركة طباعة بهمن
تسلسل‌النشر:٢٠ ـ ٨١

حقوق‌الطبع محفوظة لمعهدالعلوم‌الإنسانية والدراسات‌الثقافية

شابک ۸ـ۱۸۲ـ۴۲۶ـ۹۶۴ (ج ۲) شابک ۱ـ۱۶۳ـ۴۲۶ـ۹۶۴ (دوره)

النجف الاشرف

الفهرست

١ـ وحدةالأُمّة و حقوق الأقليّات الدينيّة والسياسيّة ٣
الدكتور حسن الزين
٢ـ الوحدة الاسلاميّة في منهجالامام عليّ (ع) ١٩
حجةالاسلام صدرالدين القبانچي
٣ـ الوحدة الإنسانية عندالامام عليّ (ع) ٤٧
الشيخ غالب عسيلي
٤ـ رؤيةالامام عليّ (ع) و موقفه من وحدةالأُمّة و حقوقالأقليّاتالسياسيّة والدينيّة ٥٥
الدكتور محمد طيّ
٥ـ الإمام عليّ (ع) والوحدة الإسلاميّة ٧٩
آيةالله محمد واعظزاده خُراساني
٦ـ افكار فيالوحدة (مقدمة لقراءة في نصوص نهجالبلاغة) ١١٥
هاني فحص
٧ـ في مشروعالدولة عندالإمام أميرالمؤمنين (ع) ١٣٩
الشيخ جعفرالمهاجر
٨ـ عليٌّ سيفالله المسلول ـ التاريخالجهادي للامام عليّ (ع) ١٤٧
الاستاذ صالح الورداني
٩ـ نهجُالإمام عليّ (ع) فيالحكم ـ و دوره في تشكيل مسار الخلافة الراشدة ١٧٧
الدكتور عبدالمجيد حسين زراقط
١٠ـ الإمام علي (ع) في الأدب الشَّعبي بالمغرب ٢٠٥
الدكتور عبدالهادي التازي
١١ـ الحربُ والسِلْمُ في فكرالإمام علي (ع) ٢١٩
الدكتور علي يوسف نور الدين

الوحدة

الوحدة الاسلامية

وحدة الأمّة و حقوق

الأقليّات الدينيّة والسياسيّة

الدكتور حسن الزين

سوريا

ما هي الحقوق والحريات التي تتمتع بها الأقليّات الدينيّة والسياسيّة في ظل النظام الإسلاميّ وإلىٰ أي مدىٰ يمكن أن يساهم تمتع تلك الأقليّات بهذه الحقوق والحريّات في تحقيق و دعم وحدة الأمّة؟

إذا كنا نحاول الإجابة علىٰ هذه الإشكالية من خلال رؤية الإمام علي بن أبي طالب فلأن هذه الرؤية تعبر بكثير من الوضوح عن موقف الفقه الإسلامي أو النظام الإسلامي من كل ما تطرحه تلك الإشكالية من مواضيع.

ليس كالاضطهاد والظلم مدعاة لقيام الفتن والثورات التي تؤدي إلىٰ القضاء علىٰ وحدة الأمة وتماسكها لا سيما عندما تحتضن هذه الأمة من الأقليات الدينية والسياسية مثلما احتمل المجتمع الإسلامي و لا يزال في هذا السياق.

ولكن الاضطهاد والظلم يشيران دائماً إلىٰ أن في مسيرة السياسة للشعوب أو لبعضها علىٰ الأرجح أو خلال فترات حرجة من هذه المسيرة خللاً يتمثل غالباً في عدم الاعتراف بالحقوق المشروعة للأقليات السياسية والدينية وأن هذا الخلل يؤدي باستمرار إلىٰ انتهاك حقوق تلك الأقليات.

جميع الفتن التي تمزق وحدة الشعوب أو الأمم تنجم باستمرار عن مثل تلك الانتهاكات.

إن متون التاريخ تبدو حافلة بالأمثلة الصارخة في هذا المجال لأن وحدة الأمة لا تتكرس إلا عبر حماية حقوق الأقليات الدينية والسياسية واحترامها.

من هذا الواقع المعروف يطلق علىٰ النظام الديموقراطي أنه النظام الذي يحمي حقوق الأقلية السياسية بالقدر نفسه الذي يحمي به حقوق الأكثرية الشعبية.

وهكذا يمكن القول أن وحدة الأمة تتأثر إلىٰ حد كبير بحماية حقوق الأقليات واستقرارها، كما يبدو أن مقياس هذه الوحدة وثيق الاتصال بالحماية التي يقدمها النظام القائم للأقليات السياسية والدينية وغيرها.

وليس كالإمام علي بن أبي طالب﴿عليه السلام﴾

من يجسد في فكره و عمله مثل هذا الربط بين صيانة وحدة الأمة وإقامة النظام الذي يكرس حماية حقوق الأقليات السياسية والدينية. من هنا كان حرصه علىٰ الابتعاد عن كل ما يهيىء للفتنة التي تؤدي باستمرار إلىٰ القضاء علىٰ وحدة الأمة وتماسكها.

وإذا كانت أبرز تصرفاته في الحكم وخارجه تنطلق من الحرص علىٰ إخماد الفتنة في مهدها فإن في حمايته لحقوق الأقليات السياسية والدينية ما ينطلق من حرصه علىٰ تلك الوحدة وهو الحرص الذي يعتبره من أبرز واجبات الحاكم. ونذكر في هذا المجال ما جاء في وصيته لواليه علىٰ مصر الاشتر النخعي:

«واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلاّ ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها جنود اللّٰه ومنها كتاب العامّة والخاصة ومنها قضاة العدل ومنها عمال الإنصاف والرفق ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات ومنها الطبقة السفلىٰ من ذوي الحاجة والمسكنة وكل قد سمى اللّٰه سهمه أي نصيبه من الحق»[1].

ماذا يعني هذا الكلام عن التماسك أو التلاحم بين مختلف طبقات الأمة و عن الضرورات الاجتماعية والاقتصادية التي تفرضه فرضاً وتسند إليه الأمة جمعاء، ماذا

---

١. نهج البلاغة من رسالته (ع) إلىٰ واليه على مصر، ص ـ ٥٢٢ الجزء الرابع طبعة دار الأندلس ١٩٦٣.

يعني غير أن أي اعتداء علىٰ حقوق طبقة من هذه الطبقات ينعكس ضرراً علىٰ وحدة الأمة ككل ومن ثم أن أي اعتداء علىٰ حقوق فريق من الرعية(الأمة) ينعكس ضرراً بالغاً علىٰ تلك الوحدة سواء انتمىٰ هذا الفريق إلىٰ طبقة أو طبقات متعددة من طبقات المجتمع.

ما يلفت النَّظَرَ في كلام الإمام ليس وجود أهل الكتاب من غير المسلمين كطبقة معينة من طبقات المجتمع بقدر دمجهم مع فريق من المسلمين ضمن طبقة اجتماعية واحدة (من أهل الذمة ومسلمة الناس) تجمع بينهم نفس الواجبات ضمن نفس الحقوق! ويشملهم كلام الإمام حين يرىٰ أن من واجب الحاكم القيام بما يؤدي إلىٰ إرضاء جميع طبقات الرعية وفئاتها حيث يقول لواليه :

«وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية»[1].

ومن بين أفراد الرعية أيضاً أفراد الأقلية السياسية أو المعارضون حيث يشير إليهم حين يقول في الرسالة نفسها:

«واختر للحكم بين الناس أقلهم تبرماً بمراجعة الخصم...!!»

وكلمة الخصم تشير أو ترمز إلىٰ المعارض السياسي أو المعارضين للحكم!..

وهكذا فإنه إذا كان من واجب الحاكم أن ينصف جميع الطبقات التي تتألف منها الأمة بما فيها من هم (أهل الذمة) ومن يعارضون الحكم والحاكم فما هي الحقوق التي يتمتع بها كل فريق من هؤلاء أو التي يجب علىٰ الحاكم مراعاتها دون التمييز بين الصديق والخصم أو العدو إن صح التعبير؟ وما هي المعادلة التي تحكم العلاقة بين وحدة الأمة وحقوق الأقليات السياسية والدينية؟

من أجل تقديم الإجابة علىٰ جميع هذه الإشكاليات لا بد من الإشارة إلىٰ ما يحكم رؤية الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ من الاعتداد بمبدأ المساواة بين البشر ومن ثم بين المواطنين من أفراد الأمة لأن هذا المبدأ يقع في أساس النظم أو الأفكار التي صنعت عصر النهضة الحديثة وأبرزها كان النظام الديمقراطي، ولكنه (المبدأ المذكور) قد ميز رؤية الإمام

---

١. نهج البلاغة الجزء الرابع صفحة ٥١٩ طبعة دار الأندلس.

السياسية والفكرية منذ أكثر من ألف عام بحيث تتساوى من خلال هذه الرؤية حقوق أفراد الأمة من موالين للحاكم ومعارضين له وللنظام القائم. وهكذا فإنه عندما عوتب ﴿عليه السلام﴾ في عدم تفضيل الإشراف من العرب علىٰ الموالي والمعاهدين قال عبارته الشهيرة:

«إني نظرت في كتاب الله فلم أجد فضلاً لولد إسماعيل على ولد إسحق..إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة.. إن الناس كلهم أحرار»[1].

وإذا كانت المساواة في حق الحرية بين الجميع هي حق شرعي كما يظهر من كلام الإمام ﴿عليه السلام﴾فإن أي اعتداء علىٰ هذا الحق يؤلف ظلماً يسوغ للمعتدى عليهم أمر التصدي له، ولابد أن ينعكس كل ذلك تصدعاً يصيب كيان الأمة.

من هذه المنطلقات كلها يطرح السؤال حول حقوق الأقليات السياسية والدينية؟

١ـ حقوق الأقليات السياسية:

الأقليات السياسية هي تلك التي تعبر عما يسمىٰ اليوم مجموعات المعارضة السياسية.

إن موقف الإمام ﴿عليه السلام﴾ من المعارضة السياسية واعترافه بحق أفرادها في التعبير عن رأيهم مهما تعارض هذا الرأي مع رأي الجماعة قد ظهر بوضوح منذ وصوله إلىٰ سدة الخلافة.

فهو لم يتعرض لمن رفضوا تقديم البيعة له و هم قلة وكان قادراً علىٰ ذلك، ومن بينهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر[2]، حتىٰ أنه، عندما عاد طلحة والزبير ونقضا البيعة التي قدماها له حاول جاهداً إقناعهما بعدم صحة و عدم شرعية ما قاما به، وأنه كان باستطاعتهما عدم تقديم البيعة أما بعد أن تَمَّت دون إكراه فلا تجوز العودة عنها (ما لم

---

١. الروضة من الكافي، المجلد الثامن صفحة ٦٩، طبعة طهران بازار سلطاني ١٣٨٩هـ.

٢. الإمامة والسياسة لابن قتيبة الجزء الأول صفحة ٨٢. و تاريخ اليعقوبي المجلد ٢ـ صفحة ١٧٨ طبعة دار صادر.

أُحدث حدثاً)[١].

إن رؤية الإمام في هذا المجال تبدو شديدة الوضوح سواء في تعامله مع الخوارج أو في حروبه معهم ومع غيرهم من أخصامه كما في موقعة صفين وحرب الجمل.

إن المتتبع لتفاصيل حروب علي بن أبي طالب ضد أخصامه يلمس أنه لم يحارب من أجل كم أفواه معارضيه بل إنه لم يلجأ إلىٰ أي قتال إلا عند لجوء هؤلاء إلىٰ السلاح وبعد استنفاذ جميع وسائل الحوار الممكنة. وإذا كان الكلام عن مصداقية الإمام وموضوعيته يجد الأدلة في تصرفاته كلها فإنه لجهة موقفه من معارضيه وتحديد حقوقهم يؤدي إلىٰ تقديم وقائع تكاد تتجاوز كل حدود التسامح:

إن لأموالهم ونفوسهم حرمة نفوس أتباع الإمام وأموالهم، لا يكرهون علىٰ البيعة إذا لم يبايعوا ولا يقتلون أو يتعرضون لشديد العقاب إذا ما اعتدوا علىٰ الخليفة باتهامه بالكفر وهو اتهام يتعدى الشتيمة والسباب في نظر المجتمع القديم.

لقد عامل معارضيه من الخوارج بمنتهىٰ الحرية والديمقراطية. كان خليفة وكانوا من رعاياه ولكنه لم يسجنهم ولم يجلدهم ولم يقطع، حتى نصيبهم من العطاء.

لقد كانوا أحراراً في الإعلان عن عقيدتهم أنّىٰ شاؤوا، وكان الإمام وأصحابه يقابلونهم بمعتقداتهم بكل حرية ويجادلونهم فيها ويتبادلون معهم الأدلة والاستدلال[٢]. كانوا يحضرون إلىٰ المسجد ولا يصلّون خلفه وكانوا يؤذنه أحياناً. كان يصلي ذات يوم وقد إأْتَمَّ الناس فقرأ أحد الخوارج وهو ابن الكواء بأعلىٰ صوته:

«ولقد أوحي .. إليك وإلىٰ الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين» (سورة الزمر ٦٥).

لقد أراد أن يقول للإمام «بما أنك قد كفرت فقد أهدرت أعمالك كلها. ولما ارتفع صوت الرجل بالكلام سكت الإمام حتى انتهى الرجل من التلاوة فاستأنف علي الصلاة فعاد ابن الكواء ليكرر الآية

---

١. الإمامة والسياسة لابن قتيبة صفحة ٦٦.

٢. علي وبنوه لطه حسين صفحة ٩٢٢(مجموعة إسلاميات) طبعة دار الآداب ١٩٦٧.

«إذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا» (الأعراف ٢٠) وإذ تكرر هذا من ابن الكواء بقصد الإخلال بالصلاة تلا الإمام الآية:

«فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون». (سورة الروم ٦٠) فسكت ابنُ الكواء ولم يَعُد(١).

هل عرفت حرية الرأي عبر تاريخها الطويل المليء بالألم والموت والدموع، مع السلطة مجالاً أرحب وأوسع من هذا الذي قدمته تجربة الإمام علي بن أبي طالب في الحكم ؟

وهل يمكن لحادثة ابن الكواء أن تتكرر دون عقاب في مواجهة الحصانة الدستورية لأي رئيس دولة في عصرنا الحديث؟

وعلىٰ ضوء كل ما يشابه هذا الموقف لابن الكواء وتلك التحديات يعلن الإمام ﴿عليه السلام﴾ أنه لا مجال لمعاقبة الخوارج بسبب آرائهم مهما بلغت من الحدة والانحراف والبعد عن المنطق بقوله :

«لا نمنعهم الفيء ولا نهيجهم ولا نبغيهم شراً ما لم يحدثوا حدثاً أو يفسدوا في الأرض.. إن سكتوا تركناهم وإن تكلموا حاججناهم وإذا أفسدوا قاتلناهم»[١].

إنه كخليفة للمسلمين يعترف لهم بحقهم في العطاء من بيت مال المسلمين وبسائر حقوقهم وحرياتهم الخاصة والعامة رغم أنهم كانوا يكفرونه ويسبونه في السر والعلن.

حقوق المعارضة أو المعارضين تبدو في رؤية الإمام السياسية لآفاق النظام الإسلامي شاملة لجميع الحقوق والحريات التي يكفلها هذا النظام لجهة المساواة التامة بين جميع أفراد الأمة وأبرز هذه الحقوق هو الحق في مناقشة جميع تصرفات الحكم والحاكم .

حق الحياة

لقد حمى الإمام ﴿عليه السلام﴾ حق المعارضين بالحياة بشكل لا نعتقد أنه أمكن لرجال

---

١. الأخبار الطوال للدينوري صفحة ١٥٧ ط. دار الفكر الحديث بيروت.

القانون الحديث المعاصر تجاوزه أو ربما التمكن من تقديم الضمانات التي قدمها الإمام تقيداً بأحكام الشرع الحنيف.

رفض قتل الخارجي الذي كان يتآمر على حياته لقتله غيلة عندما قدم إليه، وعندما قيل له:

«قد عرفته وعرفت ما يريد بك أفلا تقتله؟» قال:

«فكيف أقتل قاتلي؟». إنه عمق الفكر القضائي في مواجهة حق الحياة الذي قدسه الإسلام فلا يمس إلا بحق![1].

ثم ضربه ابن ملجم فأدت الضربة إلى موقف أشد رهبة و عظمة فأوصى فوراً بعدم التعرض لابن ملجم قبل معرفة مصيره حتى إذا بقي حيا تولى هو أمر محاكمته أو الادعاء عليه[2].

لقد خشي أن يقدم أحد من أبنائه أو أصحابه على قتل ابن ملجم قبل أن يلاقي الإمام وجه ربه بالموت ثم يبقى على قيد الحياة فيختل ميزان العدالة و حكم الشرع في أن «العين بالعين والسن بالسن» ويبقى السؤال: هل عرفت مسيرة العدالة وتاريخ البشر مثل هذه المصداقية في مواجهة شؤون الحياة والموت؟

لقد خشي على حق ابن ملجم بالحياة.. أن يمس دون وجه حق حتى تظهر البينة وهي في هذه المرة.. وفاة الإمام ﴿عليه السلام﴾؟! وحمى ﴿عليه السلام﴾ حياة الجرحى من أعدائه المحاربين بعد انتصاره في موقعه الجمل بشكل لم يعرف له عصره ولا حتى العصور التالية مثيلاً. بعد انتصاره في نهاية هذه الحرب دخل دار صفية بنت الحارث وأفهمها بوضوح أنه يعرف أنهم يختبئون في دارها بعد أن آوتهم إليها وأمرت بتمريضهم حتى يبرأوا[3]. لقد أمر منذ بداية موقعة الجمل بما يشير إلى موافقته على ما فعلت صفية عندما

---

١. كتاب الكامل للمبرد الجزء الثاني صفحة ١٤٧ط. مكتبة المعارف ـ بيروت.

٢. تاريخ اليعقوبي المجلد الثاني صفحة ٢١٢ طبعة دار صادر ـ بيروت.

٣. الأخبار الطوال للدينوري صفحة ١١٣ وما يلي ـ وكتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة الجزء الأول صفحة ٩٥.

قال لأصحابه :

«ولا تجهزوا على جريح»[١].

وفي هذه الحرب كما في غيرها لم يكن الإمام يبدأ بقتال ولم يخض جميع معاركه إلا مكرها خوفاً من الفتنة ومن انعكاساتها المتمثلة في تمزيق وحدة الأمة، وهكذا كان كلامه في موقعة الجمل شاهداً على ذلك حيث كان يوصي أصحابه بقوله :

«من ألقى سلاحه فهو آمن ومن دخل داره فهون آمن »[٢] وهل يمكن بعد هذا الكلام عن حرمة سلامة النية و عن حرمة المنزل ما يجيز لنا الأخذ بكلام منظري الفكر الحديث من أن (حرمة المنزل) هي إحدى معطيات عصر النهضة الحديثة بعد الثورة الفرنسية؟ .

حق الملكية الفردية

لقد حمى ﴿عليه السلام﴾ حق أخصامه كأقليات سياسية بالملكية فلم يسمح بالاعتداء على أملاكهم حتى بعد أن حاربوه وهزموا على يده. لقد أخذ بعد معركة النهروان ما كان في معسكرهم، و حين قدم الكوفة رد المتاع والعبيد والإماء على أصحابها وكذلك فعل في موقعة الجمل بعد الانتصار حيث أمر بجمع ما ترك أهل البصرة في ميدان القتال وحمله إلى المسجد ونادى مناديه في الناس :

«من عرف منه شيئاً فليأخذه» [٣]

الحرية الشخصية وحرية الحركة

الأقليات السياسية كانت تتمتع في ظل حكم الإمام ﴿عليه السلام﴾ بحرياتها الشخصية بالتساوي التام مع سائر أفراد الأمة ولقد سبق الكلام عن تصرفه مع الجرحى من أخصامه بعد موقعة الجمل لا سيما مع بني أمية منهم. كان يعلم أن السيدة عائشة قد ضمت إليها الكثير من الجرحى من بين المهزومين من أخصامه فلم يعرض لهم بسوء ولم يمنعهم من

---

١. الاخبار الطوال صفحة ١١٣. ٢. الإمامة والسياسة الجزء الأول صفحة ٢٠٧ وما يلي .

٣. الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزء الثالث صفحة ٢٥٥ طبعة دار صادر ودار بيروت ١٩٦٨.

الذهاب إلىٰ أي مكان يريدون للمعالجة من جراحهم [١].

ولقد كان ﴿عليه السلام﴾ لا يستكره الناس علىٰ البقاء في ظل سلطانه، فما أكثر الذين كانوا يرحلون من العراق ومن الحجاز ليلحقوا بمعاوية (مؤثرين دنياهم علىٰ دين علي) فلم يكن يعرض لهم أو يستكرههم علىٰ البقاء معه. وقد كتب عامله علىٰ المدينة سهل بن حنيف يذكر أن كثيراً من أهلها يتسللون إلىٰ الشام. فكتب إليه الإمام يعزيه عن هؤلاء الناس وينهاه عن أن يعرض لهم أو يكرههم علىٰ البقاء في طاعته [٢] وكانت هذه سيرته كما ذكرنا مع الخوارج يعطيهم نصيبهم من الفيء ولا يعرض لهم بمكروه ما أقاموا معه ولا يأمر أحداً من عماله بالتعرض لهم في طريقهم أثناء خروجهم فهم أحرار في دار الإسلام يتبوأون منها حيث يشاؤون بشرط ألا يفسدوا في الأرض أو يعتدوا علىٰ الناس، فإن فعلوا أجرى فيهم حكم الله في غير هوادة ولا لين [٣].

يتضح من كل ما ذكرنا أن لأفراد الأقلية السياسية في رؤية الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ حق المشاركة في توجيه الحكم عبر النقاش الذي يتسع لجميع الأمور بما فيها شرعية بيعة الخليفة كما أن لهم من الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية ما لا يسمح بأي تمييز بينهم وبين الآخرين.

كل ذلك يعني أن حق المساواة أمام أحكام الشرع (القانون) يمنح للأقليات السياسية بالتساوي مع سائر أفراد المجتمع بشكل لا يختلف عن ما يجري في ظل الأنظمة الديمقراطية المعاصرة. وهذه المساواة تؤلف الضمانة الكبرىٰ للحفاظ علىٰ وحدة الأمة لأنه لا يوجد كالتمييز بين المواطنين ما يؤلف مصدراً للظلم ومن ثم للفتن التي تهدد وحدة الأمة وكيانها!

٢ـ حقوق الأقليات الدينية

إذا كان من واجب الحاكم أن ينصف جميع الطبقات فإن في هذه الطبقات أو بينها من هم

---

١. الكامل في التاريخ لابن الأثير المجلد الثالث صفحة ٢٥٦ وما يلي.

٢. نهج البلاغة ص ٥٥٨ الجزء الرابع.

٣. المرجع السابق.

«أهـــل ذمـــة». وإذا كـــانت أحب الأمـــور إلىٰ نـــفس الوالي ـ حسب رؤيـــة الإمام ﴿عليه السلام﴾ ـ(أجمعها لرضا الرعية)[١] فإن كلمة (الرعية) تشمل جميع الطبقات ومن بينهم أهل الذمة أو أهل الكتاب [٢].

ما يهمنا من بعض ما ورد أعلاه بخصوص غير المسلمين من أهل الذمة ليس فـقط مكانهم في المجتمع الإسلامي كإحدىٰ طبقات الأمة بل أيضاً وبنفس القدر من الأهمية هو مساواتهم مع المسلمين أي مع سائر أفراد الأمة. وليس أبرز من هذه المساواة كحق ـ كما يظهر من كلام الإمام ـ ما يشير إلىٰ تدعيم وحدة الأمة لأن الفتنة تتغذىٰ باستمرار من عدم المساواة بين فريق أو أقلية مظلومة والآخرين كما بينا.

كان اختلاف العقيدة الدينية في التاريخ القديم، أي قبل الإسلام يؤلف أهم مـصدر للظلم والاضطهاد ومن ثم لثورات يقوم بها المظلومون أو المضطهدون دينـيّاً. وتـاريخ الإمبراطورية الرومانية والفرعونية وربما الفارسية شاهد كبير علىٰ ذلك.

من هنا نتساءل عما إذا كانت الحقوق التي يتمتع بها غير المسلمين من أهل الكتاب بحكم الشرع الإسلامي تؤلف سبباً مؤثراً في دعم وحدة الأمة وكيانها بعيداً عن الفتن التي كان يمكن أن تهدد هذه الوحدة؟ وإذا كانت رؤية الإمام السياسية توضح موقف الشرع الإسلامي الذي يجب أن يعتمد في هذا المجال، فانه يمكن القول أنها تنطلق من اعتبار أهل الذمة جزءاً من طبقة تتألف (من أهل الذمة ومسلمة الناس) كما ذكرنا سابقاً وهـم يتساوون في نظره مع أفراد هذه الطبقة من المسلمين ومن ثم مع سائر أفراد الأمة.

كان الإمام ﴿عليه السلام﴾ ينطلق في كل هذا الفكر السياسي والديني من قاعدة مفادها أن جميع الناس أو جميع المواطنين متساوون في الحقوق والحريات، وأن ليس كـالتمييز بينهم من قبل الحكم والحاكم ما يؤدي الىٰ الفتنة ومن ثم إلىٰ المس بوحدة الأمة. ومن هذا المنطلق يمكن توضيح رؤيته لحقوق الأقليات الدينية استناداً الىٰ كتاب الله وسنة رسوله عبر قوله :

---

١. نهج البلاغة الجزء الرابع صفحة ٥١٩ طبعة دار الأندلس بيروت ١٩٦٣.

٢. نفس المرجع السابق.

«إني نظرت في كتاب الله فلم أجد فضلاً لولد اسماعيل على ولد اسحق.. إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة، إن الناس كلهم أحراراً». واذا كانت الحرية تستدعي المساواة فليس أدعى من هذا المفهوم لمبدأ المساواة لتحقيق تماسك طبقات الأمة و دعم وحدتها.

وطالما أن أبرز حقوق الإنسان هو الحياة الذي تكرسه اليوم شرعة حقوق الإنسان، فان غير المسلمين يتمتعون بهذا الحق بالتساوي التام مع المسلمين، وكلام علي ﴿عليه السلام﴾ شاهد علىٰ ذلك حين يقول :

«دماؤكم كدمائنا» و «دم المسلم كدم الذمي حرام»[١].

العطاء من بيت المال

كان مبدأ المساواة يسود رؤية الإمام للتعامل مع غير المسلمين من أهل الكتاب كما سبق بيانه.

وبعد حرب الجمل وزع ما وجده في بيت مال البصرة بين أصحابه والمهزومين من محاربيه ولم يفضل أحداً علىٰ أحد دون تمييز في اللون أو الطبقة أو الدين «فأعطىٰ الموالي كما أعطىٰ الصلبية.»[٢] كما يقول المؤرخ اليعقوبي، و قيل له في ذلك فقال عبارته الشهيرة المشار اليها سابقاً:

« قرأت ما بين الدفتين فلم أجد لولد اسماعيل على ولد اسحق فضل هذا، وأخذ عوداً من الأرض فوضعه بهم إصبعيه »[٣].

يتبين من هذا الكلام أنه أعطى للنصارىٰ من العطاء من بيت مال المسلمين مثلما أعطىٰ لغيرهم من أخصامه وفي هذا التصرف ما يفسر جانباً من احكام الشرع المتعلقة بغير المسلمين .

---

١. نهج البلاغة جزء ـ ٤ ـ صفحة ٥١٥ ـ طبعة دار الأندلس ١٩٦٣ شرح الامام محمد عبده.

٢. تاريخ اليعقوبى، المجلد الثاني صفحة ١٨٣، دار صادر ـ بيروت وكتاب الدولة العربية الإسلامية تأليف د. علي حسني الخربوطلي ص ـ ١٢٨ .

٣. المرجع نفسه .

حقوقهم الاقتصادية

وتبرز رؤية الإمام في المساواة بين أهل الكتاب و غيرهم من أبناء الرعية(الأمة) من المسلمين وفي حقهم بالعمل في هذا الموقف من جباية الضريبة وهو موقف يبرز لهم حقوقاً اقتصادية تقضي بتعامل غاية في الاحترام وبالإمتناع عن بيع كل ما يلزم للقيام بأعمالهم من أدوات العمل ولقوتهم، حيث يقول لعامله علىٰ بزرج سابور:

«ولا تَضْرِبَنَّ رجلاً سوطاً في جباية درهم ولا تبيعنَّ لهم رزقاً ولا كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ولا تقيمنَّ رجلاً قائما في جباية درهم قال، قلت: يا أميرالمؤمنين إذاً أرجع إليك كما ذهبت من عندك، قال: وإن رجعت كما ذهبت، ويحك إنا أمرنا أن نأخذ منهم العفو ـ يعني الفضل ـ»[١].

وإذا كانت القوانين الحديثة اليوم تلتزم وتلزم بعدم استعمال العقاب الجسدي في جباية الضريبة و عدم شمول بيع المزاد كل ما يلزم لمؤونة المكلف بالضريبة ولكسوته وكل ما يلزم لقيامه بعمله، وكان كلام الامام ﴿عليه السلام﴾ يشمل غير المسلمين بالمساواة مع المسلمين ويلزم بعدم شمول الضريبة لغير (العفو) أي ما يفيض عن مؤونتهم وشؤون عملهم وكسوتهم، فإنه يعترف لهم (للأقليات الدينية) بحقوق اقتصادية لم تعرفها الشعوب قبل عصر النهضة الحديثة في نهاية القرن الثامن عشر!!.

ومن هذا الموقف البارز، لابد أن نشير الىٰ رؤية تبدو للباحث علىٰ صلة كبيرة بأبرز نظريات التنمية الحديثة وعلىٰ صلة كبيرة بحقوق الأقليات الدينية بحيث يكون الاعمار والتنمية هما الهدف والأساس، عندما يقول الامام ﴿عليه السلام﴾ لعامله على الخراج:

«وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد»[٢].

وتبدو العبارة الأخيرة شديدة الدلالة علىٰ أن الإنسان هو الهدف وأن الخوف من «خراب» البلاد يبرره كونه يؤدي الىٰ «هلاك البلاد» مما يعني أن مصلحة العباد هي

---

١. كتاب الأموال لأبي عبيد فقرة ١١٦ والخراج لأبي يوسف ص ـ ٣٧ ـ ٣٨ طبعة دار المعرفة ١٩٧٩ وكتاب الخراج لابن آدم فقرة ٢٣٤.

٢. نهج البلاغة، شرح محمد عبده الجزء الرابع صفحة ٥٢٨ طبعة دار الأندلس.

الأساس.

إن في هذا الكلام ما يعفي الفقير والمحتاج من دفع الضريبة ولكنهما يتساويان مع غيرهما من الذين دفعوا في حقهما في عائدات الجباية والأموال العامة الناجمة عنها!.

وهنا يطرح السؤال : هل أعطىٰ العلم الحديث أو أبرز نظريات التنمية المعاصرة أكثر مما يظهر في كلام الامام ﴿عليه السلام﴾ ؟!.

إن غير المسلمين من أهل الكتاب يتمتعون كما أشرنا بجميع هذه الحقوق الناجمة عن رؤية الإمام في هذا السياق !.

حق الحرية الشخصية

وكان غير المسلمين يتمتعون أيضاً بحريتهم الشخصية أسوة بالمسلمين دون أية تفرقة، لأن احترام حق الإنسان بالحرية الشخصية كان يحدد لتصرفات الامام في الحكم مجالاً لا يستطيع تجاهله باعتباره أحد مقتضيات أحكام الشرع الحنيف حتىٰ لو كان في التجاوز مصلحة عامة.

ونذكر علىٰ سبيل المثال مسألة النهر الذي عفا ودرس فجاءه أهل ولاية (من النصارىٰ) وطلبوا منه التدخل لدىٰ الوالي وأن يكتب له في أن «يسخرهم في احتفار النهر» فقبل منهم احتفار النهر وكره منهم ما طلبوا من التسخير! فكتب الىٰ عامله فرظة بن كعب في احتفار النهر ولكنه رفض التسخير فأضاف في كتابه :

«...ولست أرىٰ أن أجبر أحداً علىٰ عمل يكرهه فادعوهم إليك، فان كان الأمر في النهر علىٰ ما وصفوا فمن أحب أن يعمل فمرة بالعمل . والنهر لمن عمل دون من كرهه.»[1].

وربما كان من المفيد المتصل برؤية الامام في مجال ما يتمتع به غير المسلمين من المساواة مع غيرهم من المواطنين و من حق الحرية الشخصية أن نذكر ما صدر عنه من قول عندما واجهه دهاقين الأنبار من النصارىٰ فترجلوا واشتدوا بين يديه ، فقال :

---

١. علي وبنوه لطه حسين ص ـ ٩٤٩ ضمن مجموعة (إسلاميات) منشورات دار الآداب ـ بيروت ١٩٦٧.

ما هذا الذي صنعتموه ؟ فقالوا: خلق منا نعظم به أمراءنا ، فقال :

والله ما ينتفع به أمراؤكم وتشقون به في آخرتكم ، ما أخسر المشقة وراءها العقاب وأربح الدعة معها الأمان من النار»[١].

وهل أبلغ من هذه الواقعة للتعبير عما يتمتع به غير المسلمين من حقوق ؟ .

واذا كان مؤرخو عصر النهضة الحديثة يعتبرون أن تحريم ما يسمىٰ لديهم عبادة الشخص Culte de la personne هو أحد معطيات ذلك العصر فان الواقعة المشار إليها تثبت العكس !!.

و حق الملكية الفردية

إن غير المسلمين يتساوون مع سائر أفراد المجتمع من المسلمين . ونذكر قول الامام﴿عليه السلام﴾ :

« ولا تمسن مال أحد من الناس مصل و لا معاهد»[٢].

وهو أيضاً حرمة أموالهم بشكل يتساوى مع حرمة أموال المسلمين. وفي هذا ما يفيد أن جميع أحكام الشرع بما فيها أحكام الحدود تطبق علىٰ أي اعتداء علىٰ هذا المال. وكذلك يمكن القول في وجوب التصدي للمعتدين .

وهذا ما يظهر مما جاء في كلام للإمام﴿عليه السلام﴾ تعليقاً علىٰ غزو جنود معاوية للأنبار حيث قال :

«.. إن الرجل منهم كان يدخل علىٰ المرأة المسلمة والأخرىٰ المعاهدة فينزع حجلّها وقلبها ورعثها ـ القرط ـ.. ثم انصرفوا وافرين !»[٣].

أليس في هذ التعجب من عودة المعتدين وافرين (أي سالمين) ما يشير إلىٰ اعتبار مفاده أن الوقوف في وجه الاعتداء علىٰ أموال المسلمين و غير المسلمين من المعاهدين هو واجب شرعي؟

---

١. الكشكول لبهاء الدين العاملي تحقيق طاهر الزواوي الجزء الثاني صفحة ١٠٤ طبعة دار إحياء الكتب العربية ـ البابي الحلبي وشركاه .

٢. نهج البلاغة الجزء الرابع صفحة ٥١٥ .

٣. المرجع السابق ج ١ ص ٧٦ والأخبار الطوال للدينوري ص ١٦١.

ومن هذا المنطلق لم يتمكن الامام ﴿عليه السلام﴾ من استعادة درعه الذي وجده عند رجل نصراني عن غير طريق القضاء ولأنه لم يستطع تقديم البينة علىٰ ملكيته للدرع صدر الحكم الذي أبقىٰ الدرع في يد الرجل، حيث أخذه وابتعد به قليلاً ثم عاد ليقول: «إنها أحكام أنبياء» ويعيد الدرع إلىٰ الإمام بعد كل ما رأىٰ وسمع![1]

حق التقاضي أمام محاكمهم الخاصة

وهكذا وبالإضافة إلىٰ كل ذلك يبرز حق غير المسلمين من أهل الكتاب في التقاضي أمام محاكمهم الخاصة عندما يشاؤون.

وفي هذا السياق كتب الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ إلىٰ محمد بن أبي بكر في موضوع مسلم تعاطىٰ الزنا مع نصرانية طالباً أن يطبق الحد علىٰ المسلم وأن ترسل المرأة الزانية إلىٰ سلطات طائفتها الدينية لمحاكمتها حسب شرائع دينها[2].

يروي السرخسي أن الإمام علي بن أبي طالب والخليفة عمر بن الخطاب طلبا فيما يختص بذميين ارتكبا جريمة الزنا أن يرسلا إلىٰ أتباع دينهما لمحاكمتهما حسب قوانينهم المذهبية وعاداتهم[3].

إن جميع هذه الحقوق التي كان يتمتع بها غير المسلمين من أهل الذمة في المجتمع الاسلامي بقيت تظهر كدافع رضى واطمئنان لعدة قرون وابتعدت بهم عن افتعال الفتن والاحداث التي تمزق شمل الأمة وعلىٰ العكس من ذلك جعلت منهم طبقة فاعلة ومنتجة علىٰ مر العصور بما أقامت من مناخ الاطمئنان والرضى. وإذا كانت بعض الفتن قد ظهرت في أوساطهم وفي فترات قصيرة جداً من تاريخ طويل، فان السبب كان يتأتىٰ من تصرفات قلة.

من الخلفاء في مخالفة أحكام الشرع من أجل انتهاك حقوق غير المسلمين في بعض من

---

١. الكامل في التاريخ لابن الأثير المجلد الثالث صفحة ٤٠١ ـ طبعة دار صادر ودار بيروت ١٩٦٥.

٢. كتاب الإمام للشافعي الجزء ـ ٤ ـ طبعة القاهرة.

٣. يراجع كتاب المبسوط للسرخسي الجزء ١٦ـ الصفحة ٧٤ طبعة بيروت ـ ١٩٧٤.

مناطق المجتمع الإسلامي الكبيرا!

وخلاصة القول أن في الحقوق التي تتمتع بها الاقليات السياسية والدينية وفقاً لأحكام الشرع الاسلامي التي تظهرها وتوضحها رؤية الإمام علي بن أبي طالب ما يدعم وحدة الأمة ويحول دون توجه هذه الأقليات نحو إحداث الفتن لأنه يساوي بينها وبين حقوق سائر أفراد الأمة من المسلمين في جميع المجالات كما بينا.

ويستطيع الباحث في التاريخ الإسلامي ان يلاحظ مساهمة هذه الأقليات مع سائر أفراد المجتمع في جميع النشاطات الاقتصادية بوجه خاص والاجتماعية والسياسية بوجه عام في عصور احترمت فيها حقوقهم التي أشرنا إليها. وقد احترم الإمام ﴿عليه السلام﴾ هذه الحقوق حتىٰ في حالات الحرب التي لم يلجأ اليها الا دفاعاً عن النفس بعد استعمال جميع انواع الحوار.

إن جميع الفتن التي أدت الىٰ انهيار وحدة الأمة في بعض عصور التاريخ الاسلامي قد تزامنت مع انتهاكات لحقوق الأقليات السياسية أو الدينية وأدت إلىٰ نشوء الدويلات المتنازعة مع بعضها ومع السلطة السياسية المركزية ومن ثم إلىٰ تمزيق وحدة الأمة.

الشواهد علىٰ كل ذلك كثيرة ومتنوعة وكبيرة في التاريخ بدءاً بعصر الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان وولده يزيد ومروراً بعصر الخليفة المتوكل العباسي والحاكم بأمر الله الفاطمي وما أدت إليه التصرفات او الانتهاكات لحقوق معارضي السلطة او الأقليات السياسية والدينية من تهديد لوحدة الأمة وظهور الانقسامات الكبرىٰ بين فئاتها!؟

الوحدة الاسلامية في منهج الامام علي ﴿عليه السلام﴾

حجّة الاسلام السيد صدرالدين القبّانچي

العراق ـ النجف الأشرف

مقدمة

لا شك ان الظروف السياسية المعقّدة التى عاشها الامام علي ﴿عليه السلام﴾ سواء في زمن خلافته أو فيما سبقها تجعل عملية اكتشاف نظرية الامام علي ﴿عليه السلام﴾ ومنهجه في التعامل مع مسألة (الوحدة الاسلامية) عملّية صعبة ومعقّدة، وخاصة ان تلك الظروف لم تكن من لون واحد ولامع طرف واحد.

والحقيقة ان تلك الظروف المتعدّدة الجوانب والمختلفة الالوان هي ظروف تأسيسية لوضع الرؤية المتكاملة لمسألة «الوحدة الاسلاميّة» وهو أمر كان الامام علي ﴿عليه السلام﴾ وحده ـ ومن خلال ما يمتلكه من استيعاب كامل للاسلام جعله باب مدينة علم النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ بلا منازع ـ هو القادر علىٰ النهوض بأعباء هذه المسؤولية في مسألة هي من أخطر المسائل حساسيّة تجاه مستقبل التجربة الاسلاميّة وواقعها المعاصر يومئذ، رغم أن أصل النظرية أعني نظرية (الوحدة الاسلامية) لم تكن غائبة عن النص القرآني أو تجربة الرسول الأكرم ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، بل كانت مطروحة وبشكل واضح علىٰ مستوىٰ خطوطها العريضة وآفاقها العامّة. الا ان تفاصيل تلك النظرية وتحديد كامل معالمها وفي ظل الموازنات المختلفة كان بحاجة الىٰ عملية تأسيس.

***

ومن هنا فقد إعْتُبرَ الامام علي ﴿عليه السلام﴾ مؤسساً لنظرية «القتال علىٰ التأويل» بعد أن كان المسلمون قد عرفوا تجربة «القتال علىٰ التنزيل» فيما قبل، كما اعتُبر الامام علي ﴿عليه السلام﴾ مؤسساً لنظرية «التعايش مع حكومات الخط الآخر من أجل تحقيق مصالح اسلاميّه كبرىٰ».

ان هاتين القضيتين اعني «التعايش مع حكومات الخط الآخر» و «القتال علىٰ التأويل» هما من القضايا الكبرىٰ والخطيرة للغاية والتي لم يكن للمسلمين فيها تجربة سابقة وكان علىٰ الامام علي ﴿عليه السلام﴾ أن يرسم معالم التحرك الصحيح والشرعي فيهما معاً.

لقد كانت التحولات والعقد والمستجدات السياسيّة السريعة التي عاشها المسلمون منذ وفاة الرسول الأكرم ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وحتىٰ تسلّم الامام علي ﴿عليه السلام﴾ لقيادة التجربة الاسلاميّة تفرض على الامام أن يقوم بموازنات دقيقة للغاية بين كبريات القضايا الاسلاميّة والتي تقف في صدارتها مسألة «وحدة الامة المسلمة»، وهذا هو ما صنعه ﴿عليه السلام﴾ و في غاية من الروعة، والصبر، والدّقة، الأمر الذي يسمح لنا بالقول أن الامام علي ﴿عليه السلام﴾ هو الشارح الاول لنظرية الوحدة الاسلاميّة وواضع حدودها ليس من خلال النصوص التي قدّمها فقط وانما من خلال التجربة السياسيّة العملاقة التي خاضها.

***

ان هذا الواقع يجعل دراسة الموضوع أعني «الوحدة الاسلاميّة» في منهج الامام علي ﴿عليه السلام﴾ بحاجة الىٰ شمولية واستيعاب لكل المواقف ، وكذلك بحاجة الىٰ دقّة في استخلاص النتائج واكتشاف النظريّة ، وليس يسيراً أن نصير الىٰ استنتاج سريع ربما يغفل بعض مفردات تلك التجربة وظروفها المحيطة.

ولهذا فاني مضطر للقول ان دراستي هذه هي دراسة تمهيدية قد تساهم في وضع خطوط عريضة للنظرية بانتظار من يتقدم لدراسات اخرىٰ حول نفس الموضوع ربما تكون اكثر شمولية وسعةً.

وقد يحسن أن أضيف في المقدمة أن عظمة الامام علي ﴿عليه السلام﴾ ـ والعظمة لله وحده

ـ لا تكمن في وضع اصول النظرية وحدودها وإنما النقطة الاكثر أهمية والأروع عطاءاً هي الكفاءة السياسيّة والبطوليّة النادرة التي تمكنّ الامام علي﴿عليه السلام﴾ من خلالها أن ينجح في ايجاد التطابق الدقيق بين النظرية وبين الممارسة السياسيّة بحيث لا تحيد عن النظرية قيد أُنملة رغم ما فرضه ذلك من معاناة يشيب فيها الصغير ويهرم فيها الكبير كما كان يعبّر ﴿عليه السلام﴾[1].

نظرة أجماليّة عن الوحدة في القرآن والسنّة

وقبل ان نستعرض منهجيّة الامام علي﴿عليه السلام﴾ ونظريته في الوحدة الاسلاميّة يحسن أن نقدم صورة موجزة عن الوحدة فيما عرضه القرآن الكريم ورسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾.

***

لاشك ان القرآن الكريم هو أول من طرح وأكدّ فكرة «وحدة الامة الاسلامية» عبر نصوص قرآنية عديدة كما في:

قوله تعالىٰ «**إن هذه امتُكم امةً واحدة وانا ربكم فاعبدون**»[2].

وقوله تعالىٰ «**انما المؤمنون اخوة**»[3].

وقوله تعالىٰ« **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا...**»[4].

***

ضوابط للوحدة:ـ

الا ان الوحدة الاسلاميّة في منطق النص القرآني ومفهومه ـ و دون ان ندخل في تفاصيل لا يتسع لها البحث كما لم نكن بصددها ـ ليست هدفاً مطلقاً، ولا تحتل أولوية منفردة في مسار العمل السياسي بحيث تصعد وتتفوق علىٰ كل الأولويات والاهتمامات الاسلاميّة.

فقد نلاحظ علىٰ سبيل المثال لا الحصر ـ ان القرآن الكريم أشار الىٰ ضابطين لهذه

---

١. انظر نهج البلاغة ـ الخطبة ٣.
٢. الانبياء: ٩٢.
٣. الحجرات: ١٠.
٤. آل عمران: ١٠٣.

الوحدة:

أحدهما : التزام القرار السياسي الصادر عن القيادة الشرعيّة

وثانيهما : عدم التجاوز علىٰ الآخرين والمعبّر عنه في المصطلح القرآني بـ(البغي)

ففي الضابط الاول نلاحظ قوله تعالىٰ :

«والذين آمنوا و لم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شي حتىٰ يهاجروا»[1].

وذلك بعد أن فرض عليهم رسول الله﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ الهجرة الىٰ المدينة المنوّرة .

حيث اضحت قضية الطاعة لقرار الرسول الاكرم ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ وهو قرار الامامة والقيادة الشرعيّة شرطاً في الانضمام لدائرة الامة الاسلاميّة الواحدة ، ومن دون ذلك تختل هذه الوحدة وتسقط كل استحقاقاتها.

بينما نلاحظ في الضابط الثاني قوله تعالىٰ:

«وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فأن بغت إحداهما علىٰ الاخرىٰ فقاتلوا الّتي تبغي حتىٰ تفيء الىٰ أمر اللّٰه ».

حيث اعتبرت عملية البغي والعدوان اسقاطاً لاستحقاقات الوحدة أيضاً.

وفي ضوء ذلك نستطيع أن نفهم أن الوحدة لا تمثل قيمة مطلقة، وانما تمّثل أحد الأولويات الكبرىٰ في مسارات التحرك السياسي الىٰ جانب أولويات واهداف اخرىٰ ذكرها القرآن الكريم في مجالات عديدة.

معنىٰ الوحدة:

وحينما نريد أن نستنطق القرآن الكريم في المقصود بوحدة الامة الاسلاميّة التي دعا لها فاننا سنكتشف أن الوحدة في المفهوم القرآني هي عبارة عن وحدة الهويّة الشخصية لأبناء الامة الاسلامية ثم وحدة الكيان السياسي الذي ينتمون اليه . بما يفرضه ذلك من حقوق وواجبات .

---

١. الانفال : ٧٢.

والقرآن الكريم يصطلح علىٰ ما نسميّه بوحدة الهويّة الشخصية بعنوان « الأخاء» كما في قوله تعالىٰ

« إنما المؤمنون إخوة»[١].

ويصطلح علىٰ ما نسميّه بوحدة الكيان السياسي واستحقاقاته بعنوان «الولاء» كما في قوله المكرّر في اكثر من آية شريفة:ـ

« المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض »[٢].

ان معاني «المودّة» و «النصرة» و «التعاون» وغيرها مما تتحدث عنها الكثير من الآيات القرآنية هي جميعاً من اسحقاقات وحدة الهوية والكيان بين أبناء الامة الاسلاميّة وهو ما تحدثت عنه عشرات من نصوص السنّة الشريفة عن رسول الله ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ من قبيل قوله ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ :ـ

«من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[٣].

وقوله ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾: ـ **«المسلمون يد واحدة علىٰ من سواهم»**[٤].

وقوله ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ **«المؤمنون في توّادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكىٰ تداعىٰ له سائره بالسهر والحمّىٰ**[٥].

وغير ذلك في تفاصيل عديدة تشرح الدلالات العملية لوحدة الهوية والكيان .

***

ومعنىٰ ذلك أن تعدّد اللغات والقوميات والمواقع الجغرافية وتعدّد التقاليد والتراث لا تخلّ بالوحدة الاسلاميّة كما لا تهدف الوحدة الاسلاميّة الىٰ الغاءها بمقدار ما تهدف الىٰ ضمّها جميعاً في اطار اسلامي شامل. واهتمامات أخلاقية وفكرية مشتركة تجعل تلك الفوارق والتمايزات في مرتبة متأخرة من التأثير علىٰ السلوك الشخصي والسياسي للفرد

---

١. الحجرات : ١٠ .
٢. التوبة: ٧١.
٣. أصول الكافي : جـ ٢ باب الاهتمام بامور المسلمين .
٤. كنز العمال .
٥. كنز العمال : جـ ١ ـ ١٤٣ .

والجماعة.

***

استحقاقات الوحدة:ـ

كما ان وحدة الكيان السياسي للامة الاسلامية لا ترفض حالة التعددّية في الشعوب الاسلاميّة او حتىٰ الدول الاسلاميّة ـ علىٰ بحث أوسع تحتاجه هذه المسألة بالذات ـ وانما تفرض وحدة الكيان السياسي للامة الاسلاميّة اموراً ثلاثة ـ:

الاول: ـ ان لا تتقاطع تلك الشعوب أو الدول في قراراتها السياسيّة.

الثاني:ـ ان لا تنصهر في همومها الاقليميّة بعيداً عن الهموم المشتركة لعامة المسلمين. أو المختصة ببعض الشعوب الاسلامية الأخرىٰ.

الثالث :ـ أن لا تتصارع فيما بينهما ضمن معارك داخلية بعيدة عن المعركة مع العدو المشترك للامة الاسلاميّة كلها.

كيف تعامل الإمام علي﴿عليه السلام﴾ مع قضية الوحدة

لدى دراسة شاملة لتجربة الامام علي ﴿عليه السلام﴾ السياسيّة التي استغرقت ثلاثين عاماً بعد وفاة الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ سوف نكتشف ان الامام كان يتعامل مع قضية «الوحدة الاسلاميّة» علىٰ اساس منهج خاص وأولويات محددّه مرسومه تستطيع ان تفسر كل التعددّية الملحوظة في مواقفه ﴿عليه السلام﴾، وكانت قضية «وحدة الأمة» أحد المفردات الفاعلة والمؤثرة في ذلك المنهج. ويمكن ان نقرأ له ﴿عليه السلام﴾ نصوصاً عديدة في هذا الشأن مثال قوله ﴿عليه السلام﴾:

«والزموا السواد الاعظم، فان يد الله مع الجماعة، وأياكم والفرقة فان الشاذ من الناس للشيطان كما ان الشاذ من الغنم للذئب»[1].

---

١. نهج البلاغة ـ الخطبة ١٢٧.

وقوله ﴿عليه السلام﴾:

«ليس رجلٌ أحرص علىٰ جماعة أمة محمد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وألفتها مني ابتغي بذلك حسن الثواب، وكرم المآب، وسأفي بالذي وأيت علىٰ نفسي»[١].

وكان ذلك في جوابه الى أبي موسىٰ الاشعري حين رأىٰ خلع عليّ ومعاوية من الخلافة توحيداً لجماعة المسلمين!!.

***

أن أحداً لا يشك في ان الامام علي﴿عليه السلام﴾ كان أبعد الناس عن السياسية النفعيّة «الميكافيليّة» في التعامل مع القضايا، وهو حين يدعو الى الوحدة ويطلب الدخول في صفوف الجماعة لم يكن يهدف الى تدعيم حكومته أو تقوية سلطانه، بل قد رأيناه يدعو الى الوحدة حينما كانت القيادة السياسية له. والجماعة معه، ورأيناه يدعو الىٰ الوحدة يوم كانت القيادة السياسية بيد غيره ـ ممن اختلف معهم واختلفوا معه ـ وذلك حفاظاً علىٰ الكيان الاسلامي من التمزق والانهيار امام عواصف الفتن الداخلية والخارجيّة، ويمكن أَنْ نقرأ له هنا قوله وهو يشرح موقفه بعد تسلّم أبي بكر للخلافة:

«فطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جَذّاء أو أصبر علىٰ طَخِيَّةٍ عَمْيَاءَ..

فرأيت أن الصبر علىٰ هَاتَا أَحْجَىٰ، فصبرتُ وفي العين قذىٰ، وفي الحلق شجىٰ، أرىٰ تُراثي نهباً..»[٢]. ويقول في ذلك أيضاً:

«فأمسكت يدي حتىٰ رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون الىٰ محق دين محمد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فخشيت ان لم أنصر الاسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولا يتكم التي انما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب أو كما ينقشع السحاب فنهضت في تلك الاحداث حتى راح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه»[٣].

---

١. نهج البلاغة ـ الخطبة ٣.
٢. نهج البلاغة ـ الخطبة ٣.
٣. نهج البلاغة ـ الكتاب ٦٢ الىٰ أهل مصر بيد مالك الاشتر حين جعله والياً عليهم.

كما أن أحداً لا يشك أيضاً ان قضية استلام الحكم والوصول الىٰ السلطة لم تكن هي القضية الاولى التي كان ينطلق منها الامام في رسم مواقفه وسياسته رغم أنها قضيّة ذات أهمية خاصة حينما ينظر اليها من زاوية دورها في الحفاظ على نجاح التجربة الاسلاميّة وتحقيق أهدافها[١].

وعلى خلاف عدد آخر من الذين عاصروا الامام علي ﴿عليه السلام﴾ وخالفوه فقد كانت سياساتهم محكومة لدوافع ذاتية، ومنهجيّة نفعيّة بعيدة عن القيم والاهداف الاسلامية الكبرىٰ.

ولسنا حالياً بصدد الحديث عن سياسة الامام علي ﴿عليه السلام﴾ فان بحثنا يختص بموضوع «الوحدة الاسلامية» من وجهة نظر الامام علي ﴿عليه السلام﴾ وحركته السياسية.

غير ان من الحق الاعتراف بأن مسألة استلام الحكم لم تكن خارجه عن اهتمامات الامام علي ﴿عليه السلام﴾ فقد سمعناه يقول

«لنا حق فأن اعطيناه والاّ ركبنا أعجاز الابل»[٢] وشهدناه يدخل الشورىٰ السداسيّة التي عينّها عمر بن الخطاب ويعمل جاهداً علىٰ كسب الاصوات لصالحه، وقد سجّل له التاريخ قوله في الرد علىٰ من اتهمه بأنه طالب رئاسة:

«وقد قال قائل: انك علىٰ هذا الامر يابن ابي طالب لحريص، فقلت بل أنتم لأحرص وأبعد، وانا أخص واقرب، وانما طلبتُ حقاً لي وانتم تحولون بيني وبينه»[٣].

---

١. ذكر الامام الشهيد السيد محمد باقر الصدر أن الامام علي ﴿عليه السلام﴾ وفي الطريق نحو تحقيق أهدافه الاسلامية الكبرى عمل على عدة خطوط: ـ

«الخط الاول: ـ هو خط تسلّم زمام التجربة وقيادة الحكم الاسلامي، فقد تحرك الامام في هذا الخط حتىٰ قيل عنه أنه اشد الناس رغبة في الحكم والولاية.

الخط الثاني: ـ هو خط تحصين الأمه ضد الانهيار أمام الانحراف، حيث كان يتدخل الامام تدخلاً إيجابياً في سبيل تصحيح مواقف الجهاز الحاكم ولاجل انقاذ التجربة من المزيد من الضياع، وكان يتدخل سلبياً على شكل معارضة لتهديد الحكّام ومنعهم من المزيد من الانحراف.

الخط الثالث: ـ تحديد النموذج الحقيقي والمثل الاعلى للاسلام، للحفاظ على صلة الامة بالاسلام وعلىٰ المدىٰ البعيد» انظر: ـ اهل لبيت تنوع أدوار ووحدة اهداف ـ السيد محمد باقر الصدر.

٢. نهج البلاغة ـ من قصار كلماته ـ ٢٢.

٣. نهج البلاغة: خطبة ١٧٢.

الآن ما يجب معرفته هو ان مسألة استلام الحكم لم تكن هي الاولىٰ في سلم اهتمامات الامام السياسية ولا كانت هي الهدف لديه بمقدار ما كان الهدف هو المحافظة علىٰ الكيان الاسلامي حالياً وسلامة التجربة مستقبلياً كما سوف نشير اليه، وقد أثر عنه قوله لابن عباس: ما قيمة هذا النعل؟ فأجابه: لا قيمة لها، فقال ﴿عليه السلام﴾: «والله لهي أحبّ اليّ من إمرتكم الا أن اقيم حقاً أو أدفع باطل»[1].

الاهداف الكبرىٰ لمسيرة الأمام ﴿عليه السلام﴾:

ماهي الاهداف الكبرىٰ التي رسمها الأمام علي ﴿عليه السلام﴾ لمسيرته وتحديد مواقفه؟

وما هو الموقع الذي احتلته قضية «الوحدة الاسلاميّة» قياساً لتلكَ الاهداف؟

قد نستطيع ان نُجمل ثلاثة اهداف وضعها الامام علي ﴿عليه السلام﴾ في مقدمة اهتماماته وأعطاها الاولوية القصوىٰ في تحركه :ـ

الهدف الاول:

المحافظة علىٰ أَصل الوجود الاسلامي، والكيان السياسي للامة الاسلاميّة.

وفي هذا الهدف يمكن ان نسجّل للامام علي ﴿عليه السلام﴾ مبايعته للخلافة الحاكمة بعد ان كان قد سجّل موقفه تجاهها أولاً، الّا أن استحقاقات الحالة السياسية وتطوراتها، والمخاطر التي تعرّض لها أصل الوجود الاسلامي من خلال مواقف الردّة، او تربصّ المجموعات الحاقدة علىٰ الاسلام مثل موقف ابي سفيان وطلبه من الامام علي ﴿عليه السلام﴾ أن ينهض ضد الجماعة الحاكمة ويتعهد له بأن يحشد اكبر قوات لصالحه، كل ذلك دعا الامام علي ﴿عليه السلام﴾ وحفاظاً علىٰ الكيان السياسي للمسلمين أن يتنازل عن حقّه المغتصب[2].

---

١. نهج البلاغة: خطبة ٣٣.

٢. وقد سجّل ذلك بشكل واضح وصريح في خطبته المعروفة بـ«الشقشقية» حيث قال:

←

الهدف الثاني:

المحافظة على نقاء التجربة الاسلامية من خلال احقاق الحق وابطال الباطل ورسم النموذج الصحيح لحركتها قدر الامكان، سواءاً علىٰ مستوىٰ الدولة أو الأمة.

وفي هذا الهدف يمكن أن نسجّل للأمام ﴿عليه السلام﴾ مواقف عديدة بدءاً من اعتراضه علىٰ حكومة السقيفة، ومحاولة شرح الحقيقة للامة و اعادة الحق لأهله، وحتى اصراره على عدم قبول البيعة له ـ في الشورى السداسيّة ـ على كتاب اللّٰه وسنّة رسوله وسيرة الشيخين.

ويدخل في اطار هذا الهدف موقفه ﴿عليه السلام﴾ تجاه ولاية معاوية حين طلب منه البعض أن يبقي معاوية على ولاية الشام حتى اذا استتب له الامر عزله، وكذلك موقفه في مسألة التسوية بالعطاء بين العَرب والموالي فقال ﴿عليه السلام﴾ في هذا الشأن حين عوتب علىٰ ذلك:

«أتأمروني ان أطلب النصر بالجور فيمن ولّيت عليه، واللّٰه لا أطور به ما سَمَر سمير، وما أمّ نجم في السماء نجما، لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وانما المال مال اللّٰه، ألا وان اعطاء المال في غير حقّه تبذير واسراف».

نهج البلاغة ـ خطبة ١٢٦

ولقد كان الأمام شديداً للغاية في التزام الحق وعدم تقّبل أي نوع من أنواع التسامح على حساب الحق ومقاييسه، حتىٰ رأيناه يكتب الى بعض عماله وقد غدر به ونَهَب بيت المال في البصرة قائلا له: ـ

«فاتق اللّٰه واردد الى هؤلاء القوم أموالهم فانك ان لم تفعل ثم امكنني اللّٰه منك

→

«أما واللّٰه لقد تقمصّها ابن ابي قحافة وإنه ليعَلم أن محلّي منها محل القطب من الرَحا، ينحدر عني السيَل ولا يرقى اليّ الطير، فسَدَلت دونها ثوبا، وطويت عنها كشحا...

فيا عجباً بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لأخر بعد وفاته لشدّ ما تشطّرا ضَرعيها.. فصبرت علىٰ طول المدة وشدة المحنة، حتىٰ اذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أني احدهم فيا للّٰه وللشورى متى اعترض الريب فّي مع الاول منهم حتى صرتُ أقرن الى هذه النظائر لكني أسففت إذ اسفّوا وطرتُ إذ طاروا..» نهج البلاغة / الخطبة ٣.

لاعذّرن الىٰ اللّٰه فيك، ولاضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً الا دخل النار.
ووالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة ولا ظفرا مني بأرادة حتى آخذ الحق منهما..» نهج البلاغة ـ الكتاب ٤١.

الهدف الثالث :

المحافظة علىٰ سلامة العقيدة الاسلامية والدفاع عنها.

وفي هذا الهدف يمكن أن نسجّل عكوفه علىٰ جمع القرآن الذي عرضه في خلافة عثمان بن عفّان فردوّه عليه.

كما يمكن أن نقرأ له ﴿عليه السلام﴾ عشرات الدفاعات عن العقيدة حين كان علماء اليهود والنصارىٰ يجابهون الخلافة الحاكمة بأسئلة واثارات وما كان بوسعهم الاجابة عليها الّا من خلال الامام علي ﴿عليه السلام﴾ فكان ﴿عليه السلام﴾ هو الملجأ في الردّ علىٰ تلك الشبهات ودفع تلك الاثارات حين لم يكن للحكومات الا ان تستسلم لتلك الاثارات أو تقمع اصحابها بالسيف وكلاهما غير مجدٍ.

ولقد استطاع الامام من خلال تلك الدفاعات الصادقة والقوية ان ينتزع من عمر بن الخطاب مقولته المعروفة «لا أبقاني اللّٰه لمعضلة ليس لها أبو الحسن».

الوحدة مشروع متحرك مع كل الاهداف:

هذه هي الاهداف الثلاثة التي وضعها الامام علي ﴿عليه السلام﴾ في مجمل حركته السياسيّة والفكرّية:

الاول : ـ المحافظة علىٰ أصل الوجود الاسلامي.

الثاني: ـ المحافظة علىٰ نقاء التجربة الاسلامية.

الثالث :ـ المحافظة علىٰ العقيدة الاسلاميّة.

وقد نستطيع أن نعتبر الوحدة الاسلامية هدفاً آخر من اهداف التحرك لدىٰ الامام علي

﴿عليه السلام﴾[١]، الّا أننا نعتقد ان الوحدة الاسلاميّة ليست هدفاً في عرض الاهداف الاخرى بل هي مشروع يتحرك مع كل الاهداف الأخرىٰ، وهي قبل ذلك ليست هدفاً في حد ذاته بمقدار ماهي ضرورة تفرض نفسها أحياناً في الطريق نحو تحقيق الاهداف الاخرى، فضلاً عن كونها طموحاً يعبّر عن مدىٰ الانصهار بالفكر والقيم الاسلاميّة.

وعلىٰ اساس ذلك وجدنا الامام علي ﴿عليه السلام﴾ يقترب من الوحدة احياناً ويبتعد عنها احياناً اخرىٰ بمقدار ما يفرض عليه الموقف تجاه الاهداف الاخرى وقياساً للجماعات الأخرىٰ وطبيعة حركتها.

نحن نعتقد ان الامام ﴿عليه السلام﴾ استطاع ان يرسم الصورة الصحيحة للوحدة الاسلاميّة بعيداً عن جعلها مبرراً لتمرير سياسة المساومة والاستئثار علىٰ حساب الحق والامة من أجل كسب الاصوات وشراء الاصدقاء، وهذا ما سنشرحه لاحقاً ان شاء الله.

التوازن بين «الوحدة» و «الأهداف الاسلاميّة»:

لم تكن «الوحدة» في منهج الامام علي ﴿عليه السلام﴾ ذات قيمة مطلقة تتعالىٰ بها فوق الاهداف الاسلاميّة الكبرىٰ، بل كانت تأخذ موقعها المناسب من خلال ما تساهم في تحقيق تلك الاهداف، وهذا ما لاحظناه في سياسة الامام علي ﴿عليه السلام﴾ ومواقفه طوال ثلاثين عاماً من تجربته السياسيّة الغنيّة بالعطاء.

***

لقد اقترب الامام من الوحدة واعطاها الاولويّة في مواقع عديدة، بينما وجدناه إبتعد عنها

---

١. انظر في ذلك ما كتبه سماحة آية الله السيد محمد باقر الحكيم في كتابه «الوحدة الاسلامية من منظور الثقلين» حيث سجل ثلاث مفردات كانت تتدرج في سلّم الاولويات في نظر أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾.

الاولىٰ: العقيدة الاسلاميّة.

الثانية: الدولة الاسلاميّة.

الثالثة: الوحدة الاسلاميّة.

الصفحة ١١٨ تحت عنوان «الوحدة والاولويات الاسلاميّة».

وخاض حروباً داميةً في داخل الصف الاسلامي ورفض كل عروض الصلح المطروحة عليه في مواطن اخرىٰ.

لماذا؟ وما هو المنهج؟

لقد اندمج الامام مع الخلافة الحاكمة بعد رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وقف الىٰ جانب أبي بكر وبايعه بعد انقطاع وامتناع.

وقف الىٰ جانب عمر بن الخطاب وكان ناصحاً له.

وقف الىٰ جانب عثمان بن عفان وكان مدافعاً عنه.

وهو في كل هذه المواقف لا يمتنع أن يسجّل رأيه القاطع والصريح في تلك الحكومات و مواقفها السياسيّة أو الفكريّة.

لماذا ـ اذن ـ وقف الىٰ جانبها واندمج معها وتجرّع مرارة الألم، وحرارة اللوعة، وصبر علىٰ حقٍ مضيَّع، كما كان يقول ﴿عليه السلام﴾ :ـ

«فأغضيت علىٰ القذىٰ، وجرعت ريقي علىٰ الشجا، وصبرت من كظم الغيظ علىٰ أمرٍّ من العلقم، وآلم للقلب من وخز الشفار»[1].

هناك تفسيران لهذا الموقف :ـ

التفسير الاول:

هو أن الامام لم يكن قادراً علىٰ التغيير، وسوف تكون عملية الثورة والمواجهة عملية انتحاريّة غير ذات جدوىٰ.

وربما كانت بعض تصريحات الامام ﴿عليه السلام﴾ تشير الىٰ هذا المعنىٰ كما في قوله ﴿عليه السلام﴾.

«اللهم إني استعيذك علىٰ قريش ومن أعانهم، فأنهم قد قطعوا رحمي، واكفؤوا إنائي، واجمعوا علىٰ منازعتي حقاً كنت أولىٰ به من غيري...

---

١. نهج البلاغة ـ الخطبة ٢١٧.

فنظرت فاذا لي ليس رافد وذاب ولا مساعد الا اهل بيتي فظننت بهم عن المنيّة»[١].

ولكن هذا التفسير ـ رغم واقعيته ـ وكما تدلل عليه نصوص اخرىٰ للامام﴿عليه السلام﴾ الاّ انه وحده لا يشرح الموقف بالكامل، فان الامام في معركته ضدّ معاوية كان يقرأ النتيجة نفسها وكان يتنبأ بشهادته وغلبة معاوية وآل أمية علىٰ الحكم ومع ذلك لم يكن مستعداً للابقاء علىٰ معاوية او شراء ضمائر اصحاب المطامع الذين ثاروا عليه فيما بعد.

الامام غير قادر علىٰ التغيير هنا وهناك معاً، فلماذا صالح هناك وقاتل هنا، صالح الخلافة الحاكمة بعد رسول الله﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ و لم يصالح الناكثين والقاسطين والمارقين ايام خلافته .

الانحراف هو نفس الانحراف، بل هذا الانحراف الثاني هو امتداد للانحراف الاول وعلي لم يكن قادراً علىٰ التصحيح هنا كما لم يكن قادراً هناك ايضاً، فلماذا اختلف الموقف ؟

التفسير الثاني:ـ

هو أن الاهداف الاسلاميّة الكبرىٰ هي التي فرضت علىٰ الأمام ان يتعايش مع الخلافة الحاكمة وهي نفسها التي فرضت عليه أن يقاتل خطوط الانحراف ايام حكومته وخلافته. المحافظة علىٰ الكيان الاسلامي، ورسم النموذج الصحيح للاسلام، والدفاع عن العقيدة الاسلامية هذه الاهداف الثلاثة كانّت تفرض اختلاف الموقف في الحالين .

فالوجود السياسي للاسلام، وأصول المعتقد الاسلامي كان معرضاً للخطر بعد رسول الله﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وكان على الامام من أجل ذلك أن يصبر عن حقه ويتنازل عن موقعه، وهذا هو ما عبّر عنه في كتابه الى اهل مصر:

«فأمسكت يدى حتي رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون الى محق دين محمد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فخشيت إن لم أنصر الاسلام واهله أن ارى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم »[٢].

---

١. المصدر السابق ـ الخطبة ذاتها.

٢. نهج البلاغة ـ الخطبة ١٤٦.

نفس هذا الوقع هو الذي جعله يقدّم النصح لعمر بن الخطاب حين استشاره في الخروج مع النفير الاسلامي العام ضد التحشد الفارسي قائلاً له :

«فكن قطباً، واستدر الرَحا بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب فانك إن شخصت من هذه الارض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتىٰ يكون ما تدع وراءك من العورات أهمَّ اليك مما بين يديك..»[١].

نفس هذا الواقع أيضاً هو الذي جعله يدافع عن حكومة عثمان بن عفان ويحاول تصحيح مسارها قدر المستطاع، ثم هو الذى جعله يعتذر عن قبول البيعة لنفسه بعد مقتل عثمان قائلاً:

«دعوني والتمسوا غيري، فانّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولاتثبت عليه العقول.. وانا لكم وزير خير لكم مني أمير..»[٢].

وخلاصة القول ان المخاطر التي تعرّض لها الوجود الاسلامي نظاماً وعقيدة ومجتمعاً هي التي سمحت للامام أن يعيش في الظل ويعمل علىٰ تصحيح مسار التجربة الحاكمة قدر المستطاع أيام الخلافة الراشدة ويطلق مقولته المعروفة «سأصبر مالم أخف علىٰ جماعتكم»[٣].

بينما وقوفه علىٰ رأس الهرم ايام خلافته، ونظر الناس اليه باعتباره النموذج الصحيح والشارح الكامل للاسلام لم يكن يسمح له بالتنازل او المداهنة مع انحرافات كان يرى نفسه مسؤولاً عن مواجهتها ورد خطرها حيث لا خوف على اصل الوجود الاسلامي من خارج .

ان الخوف هذه المرة ينبع من انتصار الانحراف الداخلي واكتسابه الشرعيّة التي ستجعله نموذجاً صحيحاً الى الابد وكان ذلك كفيلاً ـ لو حدث ـ بانهيار المجتمع الاسلامي كله علىٰ المدى القريب .

---

١. نهج البلاغة ـ الخطبة ١٤٦.
٢. نهج البلاغة ـ الخطبة ٩٢.
٣. نهج البلاغة ـ الخطبة ١٦٩ كما قال ﴿عليه السلام﴾ «والله لاسلّمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جورٌ الّا علىّ خاصة» الخطبة ٧٤.

لكن بسالة الامام علي﴿عليه السلام﴾، وتشخيصه الدقيق للخطر، وفضحه لخطوط الأنحراف، وسلبها الشرعية بالكامل هو الذي جعل الامة تنتظر حكماً كحكم علي ﴿عليه السلام﴾ على مدى القرون الآتية رغم خسارة علي وشهادته وغلبة خط الانحراف وحكومته.

هذا الواقع هو الذي جعل الامام علي ﴿عليه السلام﴾ يخوض حروباً بلا هوادة، ويستبسل في القتال دون حراجة وهو يقول :ـ

«والله لو تظاهرت العرب علىٰ قتالي لما ولّيت عنها»[١].

ويقول في موضع آخر حين قيل له :ـ

«ان الحرب قد أكلت العرب »

فقال :

«ألا ومن أكله الحق فالىٰ الجنّة، ومن أكله الباطل فالىٰ النار»[٢].

ان الامام وهو يقف علىٰ رأس الحكم هذه المرة يجد نفسه مسؤولاً عن رسم النموذج الصحيح لتجربة الحكم الاسلامي والقيادة الاسلاميّة، ولذا كان يقول :ـ

«ولعمري ما عليّ من قتال من خالف الحق، وخابط الغيّ من إدهان ولا إيهان..»[٣].

ويقول في موضع آخر:ـ

«وان أعظم الخيانة خيانة الامة، وأفظع الغِش غش الائمة»[٤].

هذا هو التفسير الثاني لاختلاف موقف الامام بين مرحلة حكومته ومرحلة ما قبل حكومته.

***

ونحن نعتقد ان كلا التفسيرين صحيح حينما نجمع بينهما معاً.

لاحظوا ان علياً لم ينتصر على الانحراف ايام حكومته ومع ذلك حين قُتل في المحراب قال «فزت ورب الكعبة» ولكنه لم يكن قادراً على اطلاق هذه المقولة لو دخل في

---

١. نهج البلاغة ـ الكتاب ٤٥.
٢. نهج البلاغة ـ الكتاب ١٧.
٣. نهج البلاغة ـ خطبة ٢٤.
٤. نهج البلاغة ـ الكتاب ٢٦.

مواجهة مسلحة او مقاطعة كاملة مع الخلافة الراشدة نتيجتها أن يُقتل غيلةً أو في ساحة حرب. ومعنى ذلك ان المواجهة مع خطوط الانحراف التي برزت أيام حكومة الامام علي ﴿عليه السلام﴾ كانت مواجهة ناجحة بحسب تقدير الامام وتحقق له مقاصده الكبرى أو شيئاً منها، بخلاف المواجهة مع الانحراف فيما قبل حكومته، خصوصاً اذا أخذنا بعين الاعتبار ان الخلافة الراشدة كانت تتمتّع لدى الكثير من الناس يومئذ بشيء غير قليل من القدسيّة أو الاحترام أو على الاقل هي قادرة أن تظهر بذاك المظهر أمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ الذي سيبدو كأنه يطالب بحقوق شخصيّة ومصالح ذاتية.

ولنعد الى مسألة «الوحدة»..

الوحدة كما قلنا في منهج الامام علي ﴿عليه السلام﴾ هي قضيّة تأخذ قيمتها بمقدار ما تحقق من تقدّم لصالح الاهداف الكبرى.

لقد حقق الامام الوحدة ايام الخلفاء الثلاثة، و لم يحققها أيام خلافته، لماذا؟

لان المطلوب هو وضع الوحدة في مسارها الصحيح وموقعها المناسب قياساً للاهداف الاسلاميّة الكبرى فهي بذاتها لا تمثل قيمة مطلقة كما شرحنا، بل هي مفردة في آليات التحرك من أجل تحقيق نصر اكبر لاهداف الاسلام، وهذا هو ما عبّرنا عنه بـ«التوازن بين الوحدة والاهداف الاسلاميّة الكبرى».

التوازن بين الوحدة وقيم (الحق) الاخرى

وكما كان الامام ﴿عليه السلام﴾ يجهد لحفظ التوازن بين الوحدة والاهداف الاسلامية الكبرى، كذلك كان يجهد لتحقيق التوازن العادل بين مقتضيات الوحدة الاسلاميّة ومقتضيات القيم الاسلاميّة الاخرى، والتي تُجملها وتجمعها كلمة «الحق» فلقد وجدنا الامام يُصرُّ في مختلف مواقفه على ان لا يتجنّب الحق مهما كلفه الامر ولو على حساب الاصدقاء والانصار، وحتى على حساب وحدة الصف، واجتماع الكلمة.

«الحق» هو المقولة التي دافع عنها الامام علي ﴿عليه السلام﴾ ونذر نفسه لها غير عابىء بمن خالفه، ولا مكترث بمن ناهضه.

«الوحدة» يجب ان تقوم علىٰ اساس الحق، وفي الطريق نحو إقامة الحق، وعبر أساليب الحق.

طبعاً فان «الحق» ليس مقولة مبهمة اومجملة.

الحق مقولة تشرحها القيم واحكام الشريعة الاسلاميّة في مختلف المجالات الشخصية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية[١].

***

لم يقمع الامام «الصوت الاخر» ولا «الموقف الاخر» لان حرية الرأي حق والموقف الآخر لا مانع منه سياسياً، اذا لم يَتحول الى تمرّد ونقض للعهود وتهديد لوحدة الامة، وهذا ما يمكن ان نقرؤه في موقفه من طلحة والزبير حين استئذناه للعمرة وهو يعلم «انهما لا يريدان العمرة، بل يريدان الغدرة» كما كان يقول ﴿عليه السلام﴾، وكذلك موقفه من عبدالله بن عمر حين امتنع من البيعة فتركه الامام لحاله.

هذا هو نموذج واحد من منهجية الامام في تحقيق الوحدة.

كما لم يسخّر الامام بيت المال لتحقيق المكاسب السياسيّة بعيداً عن العدالة في التوزيع، وتجاوزاً علىٰ حق المسلمين فيه.

وذلك ما عبّر عنه بشكل رائع في موقفه مع أخيه عقيل حين طلب منه مزيداً من العطاء، من بيت المال فرفض ﴿عليه السلام﴾ ذلك[٢].

---

١. ولقد كان يقول﴿عليه السلام﴾ وهو يعبّر عن شدة التزامه بأحكام الله وحدود الشريعة :ـ

«والله لو أعطيت الاقاليم السبعة بما تحت افلاكها علىٰ أن أعصي الله في نملة أسلبها جُلب شعيرة ما فعلته، وان دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، وما لعلّي ولنعيم يفنى، ولذة لا تبقى، نعوذ بالله من سُبات العقل، وقبح الزلل وبه نستعين» نهج البلاغة؟ الخطبة ٢٢٤.

٢. قال ﴿عليه السلام﴾:

«والله لقد رأيت عقيلاً وقد املق حتىٰ استماحني من بُركم صاعاً، ورأيت صبيانه شعث الشعور، غبر الالوان من فقرهم، كأنما سودّت وجوههم بالعظلم، وعاودني مؤكداً، وكررّ علىّ القول مردداً، فاصغيتُ اليه سمعي، فظن ←

هذا نموذج آخر في منهجية الامام لتحقيق الوحدة.

كما أصرَّ الامام علىٰ ردَّ القطائع التي كان عثمان بن عفان قد قطعها بغير حق لكثير من ذويه والمقربّين اليه، فقال ﴿عليه السلام﴾:

«والله لو وجدته قد تزوج به النساء، ومُلِكَ به الاماء لرددته فأن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق» وهذا يعني أنه لا يرتضي كسب الاصوات وتحقيق وحدة شكليّة عن طريق التصرّف اللامشروع باموال المسلمين.

كما اصّر علىٰ التسوية في العطاء بين المسلمين علىٰ خلاف ما صنعه السلفُ من التفاضل في العطاء، وحين عوتب علىٰ ذلك قال:

«لوكان المال لي لسويّت بينهم فكيف وانما المال مال الله»[1].

لا شك أن كل هذه المواقف كانت تثير المتضررّين وتؤلبهم ضدّ الامام علي﴿عليه السلام﴾ وربما تجعلهم يلتحقون بالصف الآخر، الاّ ان ذلك كله لم يثن الامام عن التزام جادة الحق، ولم يضطره مشروع الوحدة مع هؤلاء الاقوام ومحاولة كسب ودّهم للتجاوز علىٰ حقوق الله وحقوق الاخرين، ولذا نراه يقول وهو يضع منهجه السياسي حيث عُرضت عليه البيعة بعد مقتل عثمان:ـ

«واعلموا أني إن أجبتكُم ركبتُ بكم ما أعلم، ولم أصغِ الى قول القائل وعتَب العاتب»[2].

***

أن عظمة هذه المواقف سوف تتجلى اكثر حينما نقارن بينها وبين مواقف آخرين قمعوا مخالفيهم، واستباحوا دماءهم[3]، وفرضوا الوحدة بالقهر وبحّد السيف.

→

"أني أبيعه ديني، واتبع قياده مفارقاً طريقتي، فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذي دِنف من ألمها، وكاد ان يحترق من ميسَمها، فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرّني الى نار سجّرها جبارها لغضبه». نهج البلاغة ـ الخطبة ٢٢٤.

١. نهج البلاغة ـ خطبة ١٥. ٢. نهج الباغة ـ خطبة ٩٢.

٣. كما نلاحظ ذلك في الموقف من سعد بن عبادة حين تم اغتياله، او الموقف مع مالك بن نويرة لمجرد أنه

أو أطلقوا العنان لبعض ولاتهم حتىٰ بنوا القصور الحمراء، واغمضوا علىٰ كل ذلك أبصارهم من أجل كسب ودهم واتقاء شر أقوامهم[١] أو أهدروا كرامة أصدق الناس لمجرد أنهم خالفوهم[٢].

ان الوحدة التي أرادها الامام علي ﴿عليه السلام﴾ هي وحدة لا تصادر حقوق الاخرين، ولا تفرض نفسها بحدّ السيف، ولا تتسامح في دين الله وحدوده، ولا يتفاضل الناس فيها علىٰ اساس من مال أو عشيرة أو جاه بعيداً عن تقوىٰ الله.

ذلك هو علي ﴿عليه السلام﴾ القائل :ـ

«الذليل عندي عزيز حتىٰ آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتىٰ آخذ الحق منه»[٣].

ويقول مؤكداً هذا المفهوم في كتابه الىٰ مالك الأشتر حين ولّاه مِصْرَ

«إني سمعت رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يقول في غير موطن :

«لن تقدس أمةٌ لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتعتع»[٤].

***

«الحق» و «الاسلام» و «حدود الشريعة» هي المثلّث الذي يؤطر الوحدة بين أبناء الامة الاسلامية وكل وحدة بعيدة عن هذه الاصول هي اضطهاد، ومصادرة حقوق، وفاقدة للشرعيّة، سواء استخدم فيها أسلوب القمع أو اسلوب شراء الذمم.

→

امتنع من اعطاء الزكاة لخلافة ابي بكر اعتقاداً بان الامام علي ﴿عليه السلام﴾ هو الأحق بالخلافة.

١. كما نلاحظ ذلك في تولية الخليفة الثاني معاوية بن أبي سفيان الشام.

٢. كما نلاحظ ذلك في موقف عثمان بن عفان من أبي ذر الغفاري حين أمر بطرده الىٰ الربذة وقال «برئت الذمة ممّن خرج لتوديع أبي ذر».

٣. نهج البلاغة / الخطبة ٣٧.

٤. نهج البلاغة / الكتاب ٥٣.

***

ها هو علي ﴿عليه السلام﴾ يقول :ـ

«واعلموا ان الناس في الحق أسوة»[١].

«ويقول وهو يكتب لبعض ولاته :

«فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء»[٢].

ويقول في عهده لمالك الاشتر وهو يرشده لكيفية انتخاب أعوانه ومساعديه :ـ

«ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمرّ الحق لك،،

ولاتوّلهم محاباةً وأثره فانهما جُماع من شُعَب الجور والخيانة»[٣].

الاركان الثلاثة للوحدة:ـ

ان مراجعة دقيقة في سياسة الامام علي ﴿عليه السلام﴾، وكذلك مطالعة في نصوصه الخالدة تكشف لنا عن رؤيته في مكوّنات الوحدة وأركانها.

هذه المكوّنات هي عبارة عن :

(١) الرسالة الحقّة.

(٢) الامامة الحقّة.

(٣)الارادة الحقّة.

ونلاحظ هنا ان «الحق» ـ وكما أشرنا اليه فيما سبق ـ هو المحور الاساس الذي يؤكد عليه الامام في المسير نحو الوحدة.

ان المكوّنات الثلاثة اعلاه ستشكل الاضلاع لمثلّث الوحدة الاسلاميّة، ولدىٰ فقدان أي واحد من هذه الاضلاع فان الامة ستبقىٰ مكشوفة أمام مختلف الامراض والاختراقات التي تطيح بوحدتها وكيانها.

---

١. نهج البلاغة / الكتاب ٧٠.

٢. نهج البلاغة / الكتاب ٥٩.

٣. نهج البلاغة نهج البلاغة ـ الكتاب ٥٣.

***

الامام علي﴿عليه السلام﴾ لم يتحرك نحو الوحدة دون فهم كامل ودقيق لمقوماتّها واركانها وهي ما تحدثت عنه مواقفه وتصريحاته العديدة.

ان التاريخ ربما حدّثنا عن قادة عملوا علىٰ توحيد شعوبهم، وربما حدث مثل ذلك في التاريخ الاسلامي أيضاً، لكن الجدير ملاحظته في سيرة الامام علي ﴿عليه السلام﴾ ومنهجه هو فهمه لأركان الوحدة ومقوماتها وسعيه من أجل تحقيقها ثم تحقيق الوحدة المبنّية علىٰ تلك الاركان والمحاطة بتلك الاضلاع.

وهكذا يتقدم الامام علي ﴿عليه السلام﴾ بفهم جديد لكل عملية توحيد غير قائمة علىٰ تلك الاركان والاسس، انها ستكون عملية مؤقتة في أحسن حالاتها، وستنتهي الىٰ تمزّق قريب، وربما الىٰ خوض في دماء، ثم ضياع بين الارض والسماء.

ولأجل ذلك كان معنياً جداً بترسيخ تلك الاركان وتفعيلها في الامة.

الرسالة الحقة المتمثلة بالاسلام، والامامة الحقة المتمثله بأهل البيت﴿عليهم السلام﴾، والارادة الحقة المتمثلة بروح الامر بالمعروف والتناهي عن المنكر.

***

«الرسالة الحقة» وهي الاسلام موجودة لدىٰ الامة المسلمة، لكن الامة اصبحت تبتعد عن هذه الرسالة وتتعامل معها شكلياً وليس جوهرياً.

وكما قال ﴿عليه السلام﴾:

«واعلموا انكم صرتم بعد الهجرة أعراباً، وبعد الموالاة أحزاباً، ما تتعلقون من الأسلام الا بأسمه، ولا تعرفون من الايمان الا رسمه، تقولون النار ولا العار.

وانكم ان لجأتم الىٰ غيره حاربكم أهل الكفر، ثم لاجبرئيل ولاميكائيل، ولا مهاجرون ولا أنصار ينصرونكم...»[1].

---

١. نهج البلاغة / الخطبة ١٩٢ التي تسمى بالقاصعة.

ومن هنا فقد انثلم اهم ركن من اركان الوحدة، وانكسر اول ضلع من اضلاعها وكان الامام علي﴿عليه السلام﴾ بحاجة الىٰ رأب هذا الصدع، ورتق هذا الفتق وهو ما عمل عليه جاهداً طول حياته السيّاسية وخاصة بعد رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾.

***

ونصل الى قضية «الامامه الحقة» فنجد ان الامام﴿عليه السلام﴾ رغم اعتقاده بضرورة وجود الامام للامة براً كان أو فاجراً [1]. بدلا من حالات الفوضىٰ والاضطراب السياسي الذي ينشأ من فقد الامام، الاّ انه ﴿عليه السلام﴾ يرى أن «الامامة الحقة» اعني «الامامة الشرعية» هي وحدها القادرة علىٰ صنع الوحدة الحقيقة للامة، فربما أمكن لسلاطين الجور وحكومات الانحراف أن توحّد الامة في دائرة حكمها وسلطانها الاّ ان مثل هذه الوحدة ليست بذات قيمة حيث لا تعبّر عن حضارة تلك الامة ولياقتها التاريخيّة ووضعها في موضع الشهادة علىٰ العالم كما اراده الله تعالىٰ لامة الاسلام [2].

لنستمع اليه ﴿عليه السلام﴾ وهو يؤكد دور الامة في وحدة الامامة ونظم أمرها وسلامة حركتها حيث يقول في ذلك:ـ

«فرض الله الايمان تطهيراً من الشرك.. والامامة نظاماً للامة، والطاعة تعظيماً للامامة» [3].

وطبيعي انه يتحدث هنا عن الامامة الحقة المتمثلة به وبأهل بيت النبوة كما قال ﴿عليه السلام﴾ في نص آخر

«فأَين يُتاه بكم، بلْ كيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم ازمّة الحق، واعلام الدين،

---

١. انظر في ذلك قوله جواباً على من قال (لا حكم الاّ لله).
فقال﴿عليه السلام﴾:ـ «كلمه حق يراد بها باطل، نعم انه لا حكم الا لله، انه لابد للناس من أمير برٍ او فاجر يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع بها الكافر...» نهج البلاغة / الخطبة ٤٠.

٢. في قوله تعالىٰ «كذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء علىٰ الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً».

٣. نهج البلاغة ـ من قصار كلماته ـ ٢٥٢.

وألسنة الصدق فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، وردوهم ورود الهيم العطاش »[١].

ولطالما تحدث ﴿عليه السلام﴾ وشكىٰ من أمته عدم طاعته متنبئاً بخسارة المعركة لافتراق الامة عنه فكان يقول :ـ

«إني والله لأظن ان هؤلاء القوم سيُدالون منكم باجتماعهم علىٰ باطلهم، وتفرقكم عن حقكم، وبمعصيتكم امامكم في الحق وطاعتهم إمامهم في الباطل، وبأدائهم الامانة الىٰ صاحبهم وخيانتكم...»[٢].

ويقول ﴿عليه السلام﴾ وهو يخاطب قومه الذين تفرقوا عنه وعصوا أمره :ـ

«أيّ دار بعد داركم تمنعون، ومع أي إمامٍ بعدي تقاتلون؟

المغرور من غررتموه، ومن فاز بكم فقد فاز ـ والله ـ بالسّهم الأخيب، ومن رمىٰ بكم فقد رمىٰ بأفوقٍ ناصل. اصبحت والله لا أُصدّق قولكم، ولا أطمع في نصركم، ولا أوعد العدو بكم.

ما بالكم؟ ما دوؤاكم؟ ماطبكم ؟

القوم رجال امثالكم..»[٣].

وبهذا الاستعراض نكون قد وصلنا مع الامام﴿عليه السلام﴾ الىٰ دور «ارادة الامة» في السير نحو الحق والوحدة فيه. والصبر علىٰ ألم الجراح، وصعوبات الطريق، والتي طالما كان الامام يشير اليها بالقول

«لا يُدرك الحقُ الاّ بالجد»[٤]

ويقول «لا يَدفع الضيمَ الذليلُ»[٥]

وكان ينعي علىٰ أمته فقدَ هذا العنصر، كما كان يعرض فهمه للتاريخ وما هو سبب نجاح الامم السابقة أو اخفاقها حيث يقول :ـ

«ان الله لم يلعن القَرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الامر بالمعروف والنهي

---

١. نهج البلاغة / الخطبة ٨٦.
٢. نهج البلاغة / ٢٥.
٣. نهج البلاغة / الخطبة ٢٩.
٤. نهج البلاغة ـ الخطبة ٢٩.
٥. المصدر السابق ـ الخطبة ٢٩.

عن المنكر، فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي، والحلماء لترك التناهي»[١].

والان ـ وبعد هذا العرض لنظرية الامام علي ﴿عليه السلام﴾ في أركان الوحدة ومقوماتها ـ نستطيع ان نكّون تفسيراً واضحاً وشمولياً لكل مواقفه ﴿عليه السلام﴾ حيال مختلف المسائل السياسيّة التي عاصرها والتي ربما كانت مواقفهُ فيها غير واحدة الاتجاه في مظهرها.

بل و من خلال هذه النظرية أيضا نستطيع ان نُفسر مواقف اهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ كلهم تجاه مختلف المسائل السياسيّة أو الفكرية التي عاصروها، حيث نلاحظ بعضهم قد خاض غمار الحرب والثورة ـ كما هو في حركة الامام الحسين ﴿عليه السلام﴾ ـ وبعضهم آثر الاتجاه الفكري ـ كما هو في حركه الامام الباقر والصادق ﴿عليهما السلام﴾ ـ

ان جميع تلك المواقف لم تكن لاختلاف في المذاق، أو تعدد في وجهات نظر بمقدار ما كانت نتجه طبيعية تفرضها الحالة المعاشة ووفقاً للاركان المطلوب توفرّها من أجل تحصين الامة وتوحيدها أمام تيارات الضياع والانحراف ـ وهذا بحث واسع لسنا بصدد الخوض فيه طبعاـ ولنعد الىٰ سياسية الامام علي ﴿عليه السلام﴾ ومواقفه لكي نفسّر مدىٰ تطابقها مع نظريته في أركان الوحدة.

فقد رأيناه ﴿عليه السلام﴾ يستجيب لمقتضيات الوحدة في الانسجام مع الخلافة الحاكمة لكن ذلك لم يكن يمنعه من الاعلان عن رأيه في مدىٰ شرعيتها[٢]، أو الوقوف ضدها من أجل تصحيح مواقفها، أو احتضان بعض الاصوات المضادة رغم اتخاذه هو شخصياً سياسة الانسجام والوفاق[٣] أو الضغط عليها من أجل الاستجابة لمطالب الثوار رغم محاولته في تخفيف حدة التوتّر بينهما[٤].

---

١. نهج البلاغة ـ الخطبة ١٩٢.

٢. حين امتنع عن البيعة بعد وفاة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وصرّح من خطاب له بأنه الأولى بالحكم.

٣. كما لاحظناه في وقوفه الىٰ جانب أبي ذر الغفاري وهو يفضح سياسه الانحراف.

٤. كما لاحظناه في موقفه من ثوار مصر ضد حكومة عثمان بن عفان فقد كان ﴿عليه السلام﴾ يقول في قصة قتل عثمان :ـ

«لو أمرت به كنت قاتلاً، او نهيت عنه لكنت ناصراً غير أن من نصره لا يستطيع ان يقول: خذله من انا خير ←

ان كل ذلك يشرح لنا مساعي الامام في ربط الامة باسلامها الحقيقي وعدم السماح لمزيد من صور الابتعاد عنه، كما يشرح لنا مساعيه من أجل إعادة زعامة التجربة الاسلامية الىٰ أهلها، ويشرح لنا مساعية في تطعيم الامة بعناصر الارادة علىٰ ان تقول كلمة الحق أمام الطغيان والانحراف.

ولاشك ان الحديث في كل هذا المسار السياسي حديث واسع ومفصّل، وقد تزداد الصورة وضوحاً لو أمكن استعراض مختلف مواقف الامام ﴿عليه السلام﴾ في الخطوط التي أشرنا اليها الا ان طبيعة المقال لا تسمح لنا بالمزيد من التوسع والشرح.

***

خلاصة البحث

والىٰ هنا نرجو ان نكون قدمّنا صورة صادقة وشموليّة لمنهج الامام علي ﴿عليه السلام﴾ في التعامل مع قضية الوحدة الاسلاميّة.

لقد شغلت قضية الوحدة واحداً من اكبر مواقع اهتمامات الامام ﴿عليه السلام﴾.

كما انه ﴿عليه السلام﴾ تعامل مع الوحدة باعتبارها أحد المفردات في مواجهة المخاطر الخارجية والداخليّة المحدقة بالامة الاسلاميّة.

والىٰ جانب ذلك فقد كانت الاهداف الاسلاميّة الكبرىٰ وقيم الحق والعدالة ربما دفعته لتغير المسار والابتعاد عن الوحدة الشكليّة للامة.

وهكذا حرص الامام علىٰ تحقيق جذور الوحدة، وخلق اركانها في الامة ولم يكتف بالسعي لتحقيق الوحدة الظاهرية غير المعتمدة علىٰ اركان أو الممتدة في الاعماق.

لقد رأىٰ الامام ﴿عليه السلام﴾ ان الوحدة يجب ان لا تكون علىٰ حساب الحق والعدل، كما لا يجوز ان تستخدم لقمع الآخرين وتوحيدهم بالقسر دونما قناعة واقامة الحجة عليهم،

→

منه، ومن خذله لا يستطيع ان يقول: نصره من هو خيرّ مني، وانا جامع لكم أمره: ـ استأثر فأساء الاثرة وجزعتم فأسأتم الجزع» نهج البلاغة ـ الخطبة ٣٠.

كما لا يجوز تحقيق الوحدة عبر تقسيم الثروة، وتوزيع المُلك لأرضاء ذوي المطامع و شراء ذممهم،

بل لا بد من الوقوف بخشونة أمام اولئك.

ولقد رأىٰ الامام أن الوحدة يجب أن تنبع من ضمير الامة وإرادتها و مدىٰ ارتباطها بالامامة الحقة والرسالة الحقة، ومن هنا كان لابد من العمل علىٰ توعية الامة وادخالها في الساحة السياسيّة والفكرية بكل جدارة.

هذه ـ في الختام ـ هي الوحدة في منهج الامام علي ﴿عليه السلام﴾ بمقدار ما تسنى لنا تناوله واكتشافه .

ولاشك ان مجالاً واسعاً للبحث بقي أمامي الا ان عذري في الاقتصار علىٰ هذا الذي قدّمت هو الحدود المفرضة عليّ في هذا لمقال والحمد الله رب العالمين.

الوحدة الانسانية عند الامام علي ﴿عليه السلام﴾

الشيخ غالب عسيلي

لبنان

أيها السادة الأجلاء

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

سلام عليك يا سيدي يا رسول اللّه، سلام عليك يا مدينة العلم، سلام على باب المدينة علي ابن ابي طالب سيد الأوصياء وإمام المتقين.

علي ﴿عليه السلام﴾ ربيب القرآن وتلميذ محمد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾. و فكر علي ﴿عليه السلام﴾ يرفده هذا النبع الصافي، من كتاب اللّه أخذ و علىٰ يدي محمّد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ نشأ وترعرع، ولا بُدَّ من معرفة علي والتعرف عليه أن تعرف القرآن الذي حفظه وحافظ عليه، كتبه وعلمه بعد أن تعلمه وطبقّه.

وقد اعتبر القرآن الكريم الأمة كلها واحدة:

«إن هذه أمتكم أُمّة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون» (الأنبياء ٩٢)

«إن هذه أمتكم أمة واحدة، و أنا ربكم فاتقون» (المؤمنون: ٥٢).

و من البديهي أن اللّه سبحانه وتعالى يريد للإسلام أن يحكم العالم ويهيمن على كل سلوكِ ومواقفِ البشرية جمعاء، بهديه وتعاليمه ونهجه المتمثل بالعمل على طبق الإيمان و العمل الصالح.

و كانت هذه هي رسالة النبي محمد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وعليها كان النهج والمسار، على تلك الرسالة ومن هذا الواقع وفي ظل النبي الاكرم نشأ علي ﴿عليه السلام﴾ و تربى، تعلم و عمل،

فكانت سيرته مع النبي و من بعده كما تعلمون أيها السادة العلماء هي سيرة النبي و قد تعددت صفات علي ﴿عليه السلام﴾ و بلغت من الرقي والعظمة أنها كانت خالدة خلود الإسلام وما بقيت الدنيا ونحن نأخذ جانباً من جوانب شخصية الإمام علي﴿عليه السلام﴾ و هو البعد الإنساني وتعاطيه مع الإنسان كل الإنسان.

فنحن من خلال كلماته وخطبه ومواقفه وسيرته نرى بكل وضوح التأكيد في كثير من المواقف وقضايا الحياة يمكن للناس المشاركة فيها مشاركة فعّالة، فها هو يتحدث عن قضية مشتركة بين البشر جميعاً.

«يا بن آدم احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى الموت فيها فلا تجده(درر الحكم ـ ١٦)».

«يا بن آدم إنما أنت أيامٌ مجموعة، فإذا مضى يوم مضى بعضك ـ الحكم ٤٤)»

«يا بن آدم هل تنتظر إلا هرماً مائلاً ـ أو مرضاً شاغلاً أو موتاً نازلاً»

و في موضع آخر يتحدث عن الأخاء الإنساني و ذلك في وصية إلى الصحابي كميل بن زيد ـ يا كميل من أخوك ـ أخوك الذي لا يخذلنك عند الشدَّة، ولا يغفل عنك عند الجريرة (الذنب والجناية)، ولا يخدَعُك حين تسأله، ولا يتركك وأمرك حتى تعلمه، فإن كان مُميلاً أصلَحهُ.

و من هذه الروابط التي أكد عليها الإمام ﴿عليه السلام﴾ في التعاطي مع الناس بروح الأُخّوةِ والترابط، الناس صنفان إما أخو لك في الدين أو نظير لك في الخلق.

إن كُلّ هذه الروابط والعلاقات وإن كانت تأخذ في بعض الأحيان شكلاً إنسانيّاً، و لكن المفهوم الحقيقي عند الإمام ﴿عليه السلام﴾ في المسألة الانسانية تلك، إنسانيّة الإنسان الملتزم بإيمان عام أو إيمان اسلامي حقيقي.

فالأخوة والاخاء والمؤاخاة بين المؤمنين بالدين الواحد أو مع اتباع الديانات المختلفة، كانت روابط المودة بين المؤمنين برسالة الإسلام والمؤمنين برسالة المسيح (ع)

«ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدةً لِّلذينَ آمَنُوا الَّذينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى، ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسين وَ رُهْبَاناً وأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (المائدة ٨٢) هكذا كان النبي محمد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ حتى أنه

تعامل مع اليهود في المدينة من خلال المواثيق والعهود التي لم يلتزموا بها.

و كذلك كان الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ في تعامله من هذا المنظار المتمثل بالأفق الممتد إلى ما بعد الزمن الذي هو فيه والتي حرص الإمام على أن يعطي فيها المثل الحي على التعامل مع الإنسان بالعدل والاحسان مسلماً كان أو غير مسلم ـ فنراه يتأثر و يتألم لأي ظلم يقع على أحد.

نأخذ مثلاً على ذلك استنكاره الظلم الذي وقع بعد اعتداء جيش معاوية على الانبار التي كانت تحت سلطة الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ ما ورد في خطبة الجهاد.

أما بعد فأن الجهاد باب من أبواب الجنة، إلى أن يقول:

وهذا أخو غامد قد وردت خيلُه الانبار و قد قَتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكُم عن مسالحها (ثغورها) ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حِجلها وقُلبها (سوارها) و قلائدها ورعاثها (أقراطها) ما تمتنع منهم إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجلاً، منهم كلَمٌ (جرح) ولا أريق لهم دم .

فلو أن إمرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً، ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً ، فيا عجباً، فهذا أميرالمؤمنين لا يلوم من يموت أسفاً.

فهو يتأثر لما جرىٰ على امرأة معاهدة وليست من أهل الذمة ولا مسلمة لنقول بمسؤوليته المباشرة عنها وعن حمايتها فيعتبر أن مجرد سلبها يكفي ليموت الإنسان أسفاً وهو عنده جدير، فكيف إذا كانت مسلمة وهو خليفة المسلمين و كيف بنا إذا كان الاعتداء على ما هو أهم من ذلك كالتعرض لشرفها أو سفك دمها.

فالله الله بالمسلمين أن لا يتهاونوا في الامر البسيط فكيف إذا كان ما هو أعظم من ذلك، المبدأ رفض الظلم والانتهاك لحقوق الإنسان.

ومما روى في سيرته ﴿عليه السلام﴾ أثناء وجوده في المدينة من استنكاره لوجود شخص كان يطلب الصدقة من الناس وهو على حال يظهر منها العوز والفقر والحاجة و يبلغ سن الهرم والشيخوخة، فقالوا له متعذرين بأنه نصراني كان يخدم عند آل فلان فلما عجز ولم

يعد يصلح للخدمة استغنوا عنه ولا كافل له.

قال خذوه إلى بيت مال المسلمين وأعطوه.

ذلك هو الاساس الذي أسسه علي ﴿عليه السلام﴾ لقانون ضمان الشيخوخة والتقاعد بعد طول عمل و جهاد حيث لا تزال بعض الدول إسلامية أو غير الاسلاميّة لا تعمل به لكن الإمام ﴿عليه السلام﴾ أمر بأن يكون له راتب بغض النظر عن الانتماء إلى نفس المعتقد الذي يعتقد به أو لا يعتقد، نظر إليه كإنسان عمل حتى عجز، إذاً لا يترك!

الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ و تهذيب النفس:

و مما ورد في نهج البلاغة عنه ﴿عليه السلام﴾ وهو يتحدث عن واقع حياتي يعيشه الناس في مقام تهذيب النفس والارتقاء بالإنسان بالمعنى الشمولي إلى سمو الإنسان وهو الانسان العالم، أنه هو الذي يميزه عن أخيه الإنسان فيقول في وصيّة إلى كميل بن زياد:

«يا كميلُ العِلْمُ خيرٌ منَ المالِ، العِلْمُ يَحْرُسُكَ وأنت تَحْرُسُ المالَ، تفنيهِ (تَنْقُصُهُ) النفقَةُ و العلمُ يزكو علىٰ الانفاقِ، العلمُ حاكمٌ والمالُ محكومٌ عليهِ.

و مما في أيدينا من خطب و كلمات و كتب وردت في نهج البلاغة و ربما كلمات في مطاوي المرويات والروايات والاحاديث عنه ﴿عليه السلام﴾ أو في أحاديث أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ عن شخصيته، امثلة كثيرة تحتاج إلى أكثر من بحث و باحث كلها ضمن المنظور الإنساني العام، أمّا في مجال السياسة أو إدارة البلاد و الحكم، أو في ممارساته أثناء حكمه.

و أوسع شاهد على تلك التوجيهات، التوجهات التي يمكن القول عنها انها أسست لميثاق حقوق الإنسان في المجتمع المعاصر، ولنأخذ نصاً من عهد الإمام ﴿عليه السلام﴾ الى مالك الأشتر لما ولاه مصر:

الشعب لا الارستقراطية:

«وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق أعمها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة يجحف (يذهب)، برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة.

و ليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء، و أكره للإنصاف وأسأل بالألحاف، واقل شكراً عند الإعطاء وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة. وإنما عماد الدين، وجَماع المسلمين، والعدة للأعداء، العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم، ومليك معهم».

ويقول الإمام شمس الدين في شرح هذه الفقرة ما نصه:

في هذه الفقرات يبين الإمام ﴿عليه السلام﴾ أن الحكم الإسلامي، هو حكم شعبي، تنبع شرعيته من رضا الناس و من اختيارهم، فهو ليس حكماً مفروضاً عليهم من أعلى، وإنما هو حكم ينبع من قناعاتهم الداخلية.

و هنا نلاحظ أن الإمام علياً ﴿عليه السلام﴾ إمام معصوم، وهو منصوب من قبل اللّه تعالىٰ، بمعنى أن شرعيته ثابتة بالنصّ الإلهي و لكنه ﴿عليه السلام﴾ يلاحظ أن هذا الموقع يتعامل مع قضية الحكم الواقعي من منطلق قناعات الناس ورضاهم، لأن تنفيذ الأحكام الإلهية في الاجتماع البشري، هو ليس تنفيذاً يقوم على القصر والارغام في مجال الحكم السياسي، وإدارة شؤون المجتمع وإنما يقوم على الرضا استجابة لمبدأ الشورىٰ، حيث قال تعالىٰ: «وأمرهم شورىٰ بينهم» (سورة الشورىٰ الآية ٣٨)، من جهة، «و شاورهم في الأمر»(سورة آل عمران الآية ١٥٩) من جهة ثانية. فالشورى بمستواها العمودي من الحاكم مع الرعية، و بمستواها الأفقي مع الرعية بنفسها، تنتج أن الدولة في الإسلام، و أن المجتمع السياسي، لا يمكن أن يكون مجتمعاً سلطوياً بالمعنىٰ الكامل، بل هو مجتمع مؤسسات ومجتمع اختيارات. و هنا لسائل أن يسأل: ما هي أهداف السياسة التي يجب أن ينتهجها الحاكم؟

يبين الإمام ﴿عليه السلام﴾ هنا بشكل قاطع حاسم أن هدف هذه السياسة بجميع مجالاتها يجب أَنْ تستهدف رضى الشعب وتحقق مصالحه و لا يجوز أبداً أن يضحي الحاكم بمصالح الشعب من أجل رضى حفنة قليلة من الناس هم «الطبقة الارستقراطية الخاصة»، فإن رضىٰ هؤلاء لا قيمة له امام غضب العامة «الشعب» أما غضبهم، فلا يؤثر شيئاً مع رضى عامة الشعب ثم بين الإمام ﴿عليه السلام﴾ ملامح الطبقة الارستقراطية.

فهم في أوقات السلام والأمن عبء كبير علىٰ الدولة بما يأخذونَهُ من خيراتها بما لهم من امتيازات، أما في أوقات الشدة والبلاء فلا يفيدون بشيء. و ذلك لأنهم طبقة رخوة منحلة لا تقدر علىٰ تحمل المكاره والشدائد. هم طبقة تأخذ ولا تعطي.

أما اللذين يجب ان تتوجه الدولة بجميع أجهزتها لخدمتهم و تحقيق مصالحهم، فهم عامة الشعب، لأنهم عماد الأمة و عمود الدين انتهى ـ هذه صورة واضحة عن التعامل الإنساني و شكل من أشكال الوحدة الإنسانية.

و يقول ﴿عليه السلام﴾ عن السياسة: «جمال السياسة العدل في الإمرة والعفو مع المقدرة».

و من كلام له:

«أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله فإن الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل.

و في واجبات الفرد مع الأمة ولأجل الامة يقول ﴿عليه السلام﴾:

«أيها الناس إنما يجمع الناسَ الرضاءُ والسخطُ و إنما عقر ناقةَ ثمودَ رجلٌ واحدٌ. فعمَّهُم اللّهُ بالعذابِ لما عمّوه بالرضا فقال سبحانه فعقرُوها فاصبحوا نادمينَ» فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خُوارَ السكّة المُحْمَاة في الأرض الخوَّارة.

أيها الناس من سَلَكَ الطريق الواضح ورد الماء و من خالف وقع في التِّيهِ

و لقد تعاطىٰ الكتاب على مدى حقب زمنية مختلفة مع كلمات و حكم الإمام علي﴿عليه السلام﴾ بأشكال مختلفة ومفاهيم متفاوتة في الفهم والمعتقد، كل باحث حسب إنتمائه وأهوائه و معتقداته.

فنرى طائفة من الناس من تعاطت مع كلماته ﴿عليه السلام﴾ من منظور الوضع الاقتصادي و كون تلك الفئة من الناس تأخذ المذهب الاشتراكي في تعاطيها مع نظرية الحكم فيأخذون ما قاله من كلمات أو مواقف يستشهدون بها على صحة نظريتهم فكلمة الإمام ﴿عليه السلام﴾: «لو تمثل لي الفقر رجلاً لقتلته، أو كلمة عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لايخرج على الناس شاهراً سيفه».

أو الاستقلال الاقتصادي و محاربة الاقطاع محاربة السيطرة على القوت من بعض

الفئات كلمته «جناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم»، نعم قالها لأجل الإنسان كل الإنسان و ليس لفئة دون فئة..

و في هذا السياق ومن نفس المنظور الانساني ما قاله و كتبه جورج جرداق في كتابه «علي و حقوق الإنسان» في وصفه لهذه الشخصية من خلال ما اطلع عليه من كلمات يقول، و هذا التماسك في الشخصية وفي كل ما ينبثق عنها في مختلف الاحوال والظرف، هو الذي يجعل لأقوال ابن أبي طالب و تعاليمه وعهوده قيمة الدستور المنظم: المبني على أصول والموجهِ علىٰ غايات.

و لعلي مذهب مركز يقوم على تحديد معنى العقل، ثم علىٰ الايمان بقدرته، و بقيمة التجربة، وعظمة المعرفة، وثورية الحياة، سبق به العاقلينَ سبقاً عجباً.

لقد كتب جورج جرداق و غيره كتباً كثيرة تحدث عن الجانب الانساني الذي أولاه الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ منها من يقوم بمقارنة بينه و بين شخصيات اصلاحية غربيّة يريد بذلك أن يظهر عظمة الإمام أنه هو المصلح الأول و هذا الموضوع طويل و يحتاج إلىٰ صياغة ورؤية جديدة.

نسأل اللّه التوفيق والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

رؤية الأمام علي وموقفه من وحدة الأمة وحقوق الأقليات السياسية والدينية

الدكتور محمد طي

لبنان

لقد اعتدنا علىٰ معالجة موقف علي بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ من مواضيع ومعطيات أساسية طرأت علىٰ العالم الإسلامي من قبل وتطرأ اليوم، واعتدنا علىٰ معالجة مواقف غيره من مواضيع ومعطيات، فهل تشكل تلك المعالجة دوماً كشفاً لموقف من أمور محددة. أم أن في الأمر شيئاً آخر؟

إن كشف موقف أي شخصية إسلامية من أي أمر، يؤدي إلىٰ معرفة جزئية، تكون أحد مصاديق الموقف الواقعي للمسلمين. أما كشف موقف علي ﴿عليه السلام﴾ فأمر مختلف.

فعلي ﴿عليه السلام﴾ يتحلىٰ بميزات أماط الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ عنها اللثام، فإذا هي العلم الأقصىٰ والعدالة القصوىٰ .. وهي الأيمان كله كما وصفه الرسول عند بروزه لعمرو بن عبد ودّ.

ومن هنا فإن علياً يجسد الإسلام، وقد قلنا في مقام آخر: إنه الإسلام من لحم و دم، يمشي في الأسواق ويأكل الطعام.

من هنا فإن ما يتخذه علي ﴿عليه السلام﴾ ليس موقف فرد مهما علا شأنه، بل هو شيء آخر، ولكنه ليس شيئاً مضافاً إلىٰ الإسلام، لأن الإسلام ليس ناقصاً، إذ يقول تعالىٰ:

(ما فرَّطنا في الكتاب من شيء) (الأنعام، ٣٨).

غير أن ما حواه الكتاب لا بد له أحياناً من ترجمان يكشفه ويطبقه في الواقع مستنبطاً

دقائقه مستنطقاً غوامضه، وهذا ما قام به علي ﴿عليه السلام﴾ في المجالات التي انكشفت في عصره.

ولما كان علي بالحجم الّذي حدده الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فإن ما كشفه يتجاوز ما يستطيع كشفه الآخرون لتميزه عنهم، ولهذا عده بعض المسلمين سنّة يجب اقتفاؤها، فيما لا يجدالآخرون حرجاً في هذا الاقتفاء، وإذا صح حديث «أصحابي كنجوم السماء بأيهم أقتديتم أهتديتم»، وأياً يكن المحمل الذي نحمل عليه كلمة «الأصحاب»، فلا بد أن يكون علي ﴿عليه السلام﴾ رأس مصاديقها، فيكون قدوة في كل حال.

وهكذا فإن موقف علي في كل أمر هو موقف الإسلام المنطلق من الإيمان كله.

ولقد أستجدت في عهد الإمام أمور عظيمة فكشف الموقف الإسلامي منها. فقد ابتلىٰ علي﴿عليه السلام﴾ بالأقليات التي لم تظهر علىٰ السطح في العهود السابقة، وإن تكن قد تكونت في رحم تلك العهود، من جماعات أثرت ثراء فاحشاً، إلىٰ جماعات ذاقت لذة التسلط ولذة المال، إلىٰ جماعات لم تعثر علىٰ من يفقهّها في الدين بل غبّت الأضاليل غباً، الىٰ الطلقاء الذين أظهروا الإيمان طيلة عقود وكلها أطلت برأسها أيام علي ﴿عليه السلام﴾ وبكل شراسة.

فعمل علي ﴿عليه السلام﴾ من أجل الحفاظ علىٰ الوحدة الإسلامية من جهة وعدم تجاوز ما أباحه الشرع من حرية، من جهة أخرىٰ فحدّد معنىٰ الجماعة ومعنىٰ الفرقة، كما أبان حقوق الجماعات السياسية، وكشف القانون الإنساني الإسلامي الضروري لحالات القتال بين أهل القبلة.

أما بخصوص أتباع الأديان المسماة بالتوحيدية، فكانت بقيت أحكام لم تتضح فيما سبق، فتصدىٰ علي ﴿عليه السلام﴾ لإعلانها. وهذا ما سنبيّنه فيما يأتي من هذه المقالة.

الوحدة الإسلامية:

يأمر الإسلام بإقامة الوحدة بين المسلمين وبالحفاظ عليها لأن رباط الإسلام يجب أن يكون أمتن من كل رباط وأقوىٰ من كل نزعة للتفرقة مهما كان نوعها، لأن ما يشدّ المسلم

الىٰ المسلم هو الإيمان بالله الواحد الأحد وبرسالة رسوله محمد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ التي أتىٰ بها من عنده تعالىٰ، فتكونت بذلك جماعة متحابة متآخية كما يصفها تعالىٰ بقوله:

(إنما المؤمنون إخوة) «الحجرات / ١٠» و مثلهم.. في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ»[١].

وهذه الوحدة ليست مجرد تجميع لأفراد تشدهم أي عصبية تتيسر، بل هي وحدة في الله ملزمة باتباع صراطه إذ يقول تعالىٰ:

(وأعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) «آل عمران / ١٠٣». والاعتصام بحبل الله التمسك بكتابه وبسائر ما أوحىٰ إلىٰ نبيه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾[٢].

ومن هنا كانت اللحمة هي الاستجابة للأحكام الإلهية، حتىٰ إذا ما تهدّدت تهدّد حكم الله في الأرض ووجب علىٰ المسلمين معالجة الموقف وتدارك الانقسام عملاً بقوله تعالىٰ:

(وإن طائفتان من المؤمنين أقتتلوا فأصاحوا بينهما) «الحجرات / ٩». غير إن واجب الاصلاح ليس دائماً، حتىٰ ولو أصرّت فئة من التخاصمين علىٰ الاعتداء وتجاوز حدودها لأن الله في هذه الحالة يأمر بالتصدي لها حتىٰ تثوب إلىٰ حكم الله:

(فإن بغت إحداهما علىٰ الأخرىٰ، فقاتلوا التي تبغي حتىٰ تفيىء الىٰ أمر الله) الحجرات / ٩). وعندما تجب العودة الىٰ الإصلاح علىٰ أساس من الإنصاف لا خلط الحق بالباطل. إذ تضيف الآية:

(فإن فاءت فأصلحوابينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) (الحجرات / ٩).

وهكذا فإن الإسلام لا يأمر بالحفاظ علىٰ الوحدة بعد قيامها بأي طريقة تتسير بل هو يوجب التصدي للانحراف والعدوان. ولقد أفاض الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ في الدعوة الىٰ مقاومة هذه الظاهرات ولو بالقوة حفاظاً علىٰ وحدة الأمة فقد قال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾:

«ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرّق أمر هذه الأمة وهي جمع فاضربوه بالسيف كائناً

---

١. صحيح مسلم، كتاب البر- ٦٦.

٢. راجع تفسير الميزان للآية ١٠٣ من سورة آل عمران.

من كان» [١] ولكن شرط أن يكون العامل علىٰ تفريق الأمة عاصياً لأحكام الله ومخالفاً سُنة رسوله. ذلك أن الله تعالىٰ يقول :

(ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) (الأنفال / ١٣).

ويكون وفئته عند الأصرار من الباغين الذين ينطبق عليهم حكم الآية التاسعة من سورة الأنفال التي مرت معنا. هذه الأمور واجهها علي ﴿عليه السلام﴾ ميدانياً واستنبط الأحكام التفصيلية الضرورية لها.

الأمام علي ﴿عليه السلام﴾ ووحدة الأمة:

عمل علي ﴿عليه السلام﴾ بكل ما أوتي للحفاظ علىٰ وحدة الأمة الاسلامية، وقدّم التنازلات علىٰ طريقها، حتىٰ إذا أصرت فئات علىٰ الشقاق قاتلها ليعيد إلىٰ الأمة وحدتها.

يرىٰ الإمام « أن سبحانه أمتن علىٰ جماعة هذه الأمة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي ينتقلون في ظلها ويأوون إلىٰ كنفها [٢]. لذلك وجب عليهم الحفاظ عليها والابقاء علىٰ الجماعة لأن يد الله معها «والشاذ من الناس للشيطان» [٣] فعندما أتاه أبو سفيان والعباس بن عبدالمطلب يدعوانه الىٰ النهوض بالخلافة بعد بيعة أبي بكر علىٰ أساس أنه الأحق وبحجة أن بني عبدمناف وهم عشيرتهم ، أشرف من بني تيم عشيرة أبي بكر ، ردّ الامام قائلاً:

«أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة. وعرّجوا عن طريق المنافرة وضعوا تيجان المفاخرة» [٤].

وعندما بويع عثمان بن عفان خليفة و كان الإمام يخشىٰ عاقبة، ذلك جدّد حرصه علىٰ وحدة الصف الإسلامي بقوله :

«والله لأسلّمن ما سلمت أمور المسلمين» [٥].

---

١. صحيح البخاري كتاب الامارة / ٥٩.

٢. ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، دار الهدىٰ الوطنية م ٣ ص ٢٤٤.

٣. المرجع نفسه م ٢ ص ٣٠٦.

٤. المرجع نفسه م ١ ص ٧١.

٥. المرجع نفسه م ٢ ص ٦١.

وبعد مقتل عثمان ووفود المسلمين إلىٰ بيت الامام لمبايعته ، لم يقبل الإمام إلا بيعة عامّة في المسجد، وهذا ما حصل فعلاً.

ولدىٰ مطالبة بعض الأمويين بالاقتصاص ممن أجلبوا علىٰ عثمان وقتلوه ، رد الإمام قائلاً:

«تعالوا نداوِ ما لا يدرك اليوم بإطفاء النائرة وتسكين العامة، حتىٰ يشتد الأمر ويستجمع، فنقوىٰ علىٰ وضع الحق في مواضعه »[1].

ثم أنه حتىٰ قبل الأضطرار إلىٰ القتال و كلما لاحت بارقة أمل أثناءه، كان الإمام يحاول الاستفادة من الهدنة ليعمل علىٰ إعادة اللحمة إلىٰ الأمة، فهو لم يبدأ خصماً بقتال لا في البصرة ولا في صفين ولا في النهروان، وهو يقول في أحد ردوده علىٰ الخوارج بشأن الهدنة التي أعلنت للقيام بالتحكيم «لعل اللّٰه يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الأمة»[2].

غير أن الإمام قاتل بعض الفئات الاسلامية كما أشرنا ولا سيما أولئك الذين أسماهم بالناكثين والقاسطين والمارقين، فهل يعد ذلك نسفاً لوحدة الأمة؟.

كنا أشرنا في بداية هذه الأسطر إلىٰ ان وحدة الأمة هي الوحدة القائمة علىٰ الحق المحدّد من لدن اللّٰه تعالىٰ، وهي لا تقبل تعدي حدود اللّٰه ولا تحديها.

والامام قاتل فئات تعدّت حدود اللّٰه وحتىٰ تحدّتها، من جهة ، وشقّت عصا المسلمين من جهة أخرىٰ ، وكان لا بدّ ، من أجل إعادة الحق الىٰ نصابه، ومن أجل القضاء علىٰ عوامل التفسخ في الأمة من ردع القائمين بالانشقاق ، خصوصاً وأن كل الاساليب السليمة لم تنفع في إعادة اللحمة.

فقادة حرب الجمل بذل معهم الإمام كل الجهود ليثنيهم . وكان آخرها أن طلب نقاشهم حتىٰ علىٰ ارض المعركة ، ولكنهم أصرّوا علىٰ مواقفهم من النية بقتاله بعد أن كانوا بايعوه، فكانوا ناكثين للبيعة ناقضين للعهد.

ومعاوية تمرّد علىٰ الخليفة الذي بايعه طوعاً مَنْ بايع الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه ، وراح

---

١. المرجع نفسه م ٢ ص ١٦١.

٢. المرجع نفسه م ٢ ص ٣٠٣.

يعّبيء أهل الشام، وهو ممن لم يسلموا إلّا يوم فتح مكة بعد اليأس من إمكانية القضاء علىٰ الإسلام، وقد ظهر منه ما كان يخشاه الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ مسبقاً علىٰ المسلمين.

أما الخوارج فهم تمرّدوا علىٰ إعطاء العهد، ليبدأوا مسيرة قادتهم إلىٰ ارتكاب الفساد في الأرض بشكل متكرر.

علىٰ أن الإمام لم يكتف بمعالجة الشروح الداخلية في الأمة الإسلامية، بل اتخذ الموقف المحافظ عليها في وجه الأخطار الخارجيّة فقد بلغ من حرصه ﴿عليه السلام﴾ علىٰ وحدة المسلمين أنه كان مستعداً للتنازل عن أي مطلب، بل و حتىٰ لمهادنة أي خصم مسلم، بل ولإيقاف أي حرب داخلية عندما تكون وحدة المسلمين مهددة بخطر خارجي. فهو بليع أبا بكر الصديق عندما دهم خطر القبائل المرتدة عن الاسلام وأخذت تهدّد وجود الدين الحنيف نفسه. وقد شرح موقفه هذا بقوله:

«فامسكت يدي (عن البيعة) حتىٰ رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون إلىٰ محق دين محمد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرىٰ فيه ثلماً أو هدماً، فنهضت في تلك الأحداث حتىٰ زاح الباطل وزهق وأطمأن الدين وتنهنه»[1].

وعندما حملت الأنباء حشد الروم لمهاجمة الشام، أعلن الإمام أنه إذا حصل ذلك فهو سيتحالف مع معاوية، بعد أن كانت الحرب بينهما هي الحل لتمرّد معاوية. فقد قال الامام ﴿عليه السلام﴾:

«والله لو فعلها بنو الأصفر (الروم) لوضعت يدي بيد معاوية».

وهكذا فإن الأمام حافظ علىٰ الوحدة الاسلامية بمدارتها في عهود ما قبل خلافته وبمحاولة ثني الناوين علىٰ المشاقة بعد ولايته، ثم بقتال من عرّضوا وحدة المسلمين للخطر، كل ذلك إنفاذاً لالتزام أتخذه علىٰ نفسه وعبّر عنه في رسالة إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري الذي توجه ليشارك في التحكيم بقوله:

«وليس رجل فاعلهم أحرص الناس علىٰ جماعة أُمّة محمد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وألفتها مني»[2].

---

١. المرجع نفسه م ٤ ص ٢٣٧.

٢. المرجع نفسه ص ١٦٤.

وفي كل هذه الحالات، كان الامام يرى أن مَنْ معه هم أهل الجماعة وأهل السنة. وأن أخصامهم هم أهل الفرقة وأهل البدعة. فقد أجاب سائلاً عن هذه الأمور بقوله :

«فأما أهل الجماعة فأنا و من تبعني وإن قلوا. ذلك الحق من أمر اللّه وأمر رسوله، وأمّا أهل الفرقة فالمخالفون لي ومن أتبعهم وإن كثروا. وأمّا أهل السنّة فالمتمسكون بما سنّه اللّه ورسوله وإن قلوا، وأما أمهل البدعة فالمخالفون لأمر اللّه ولكتابه ورسوله والعاملون برايهم وأهوائهم وإن كثروا...»[1].

طبيعة الوحدة في نظر علي:

غير أن الوحدة التي كان يسعى اليها الإمام﴿عليه السلام﴾ لم تكن وحدة مفروضة بالقوة المادية أو بالإرهاب المعنوي، وحدة انطباقية من ذوات متشابهة المصنّفات المادية، بل وحدة إنسانية حركية (دينامية) مكونّة من شخصيات إنسانية عاقلة، تتكون أفكارها وآراءها بحرية فتتناقش ويؤثر بعضها في بعض ويتأثر به وحدة لا تتناقص مع وجود التجمعات ذات الطابع الاجتماعي وحتىٰ السياسي، بل تتحمل الجميع، من جهات إسلامية أو من أتباع الديانات الأخرىٰ، وتؤمن للجميع وسائل المعيشة أو تحفظها، وتجبر حتىٰ المشركين وتسمح بوجودهم المؤقت في هذه الحالة بين ظهراني المسلمين رغم أنهم في حالة حرب معهم.

الوحدة والأقليات :

لم تكن أحكام الإسلام بخصوص الاقليات السياسية قد أتضحت كفاية حتىٰ عهد علي ﴿عليه السلام﴾. فعهد الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ عرف أهل الديانات الأخرىٰ كالوثنية واليهودية والمسيحية، فنزلت أحكام التعامل معهم وطبقها الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾. أما الأقليات داخل الجسم الإسلامي فلم تكن قائمة علىٰ أساس سياسي واضح، بل علىٰ أسس قبيلية أو مناطقية، كالمهاجرين والأنصار، أو كالأوس والخزرج. أما العهود التالية فقد عرفت

---

١. كنز العمال ١٦ / ١٨٣.

انقسامات ذات طابع سياسي وقبلي، إذ كان في المعارضة في بداية عهد أبي بكر بعض الأنصار وبنو هاشم وبعض الآخرين. غير أن التعامل معهم لم يفصح عن قواعد يمكن أعتمادها، لأنها كانت تتسم بالطابع التاكتيكي الظرفي.

أما عثمان الذي تألَّبَ عليه المسلمون من الامصار فهاجموا المدينة ليزيحوه، وانتهىٰ الأمر علىٰ هذه النحو إلىٰ أن تولىٰ علي ﴿عليه السلام﴾ الخلافة فتعامل مع الأقليات السياسية كما الدينية علىٰ اسس ثابتة واضحة و دائمة، بحيث يمكننا تحديدها واعتمادها كقواعد للتعامل مع هذه الأقليات.

علي والأقليات السياسية:

لقد عرف عهد علي﴿عليه السلام﴾ عدداً من الحركات السياسية التي أتخذت أشكالاً منظمة وخاضت معارك سياسية ضد الإمام وحكمه تمهيداً لخلعه بالقوة وقد تعامل معها الإمام في كل الحالات بما تقضي به مبادىء الاسلام مستخرجاً عدداً من الأحكام الأساسية الهامة في التعامل مع الأقليات السياسية. ومن أهم الأقليات التي تعامل معها علي﴿عليه السلام﴾:

الخوارج:

وهم فرقة من جيشه احتجت علىٰ قبوله بالتحكيم في حرب صفين بعد أن كان أفرادها ممن ضغطوا عليه ليرضخ لخدعة رفع المصاحف علىٰ الرماح والقبول بتعيين الحكمين بينه وبين معاوية.

وقد كفَّرت هذه الفرقة علياً ﴿عليه السلام﴾ ودعته إلىٰ التوبة. وعمدت أخيراً إلىٰ تطبيق حكم المشركين علىٰ من يؤيد علياً ممن وقع بين أيديها، الأمر الذي أضطر الإمام إلىٰ مواجهتها فقاتلته فهزمها في معركة النهروان ولكنه لم يقض عليها بشكل نهائي.

جماعة طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة:

وهي الجماعة التي كانت تحرض ضد عثمان، فلما قُتِلَ وآل الأمر الىٰ علي﴿عليه السلام﴾

حملت راية الدعوة إلىٰ الثأر من قتلة عثمان مواجهة بها علي بن أبي طالب، بعد أن بايعه قائداها طلحة والزبير، وانتهىٰ الأمر بأن قاتلت علياً في البصرة فهزمها وقضىٰ عليها.

جماعة معاوية ـ أهل الشام :

بعد مقتل عثمان، راح معاوية يدّعي أنه ولي دمه، ويطالب بالأقتصاص من قتلته، رافضاً بيعة علي، وانتهىٰ الأمر بحرب أستمرت طويلاً في صفين وآلت إلىٰ التحكم بين علي ومعاوية، ذلك التحكيم الذي أنتهىٰ بخديعة المندوب الذي مثّل علياً بعد أن فرض عليه فرضاً من قبل قادته .

التعامل مع الاقليات السياسية:

رغم أن الأقليات لم تكن تنوي الأقتصار في مواجهتها للإمام بالصراع السياسي، بل كانت تضع منذ البدء نصب أعينها اللجوء الىٰ السلاح لتحقيق أهدفها فإن الامام تعامل معها كما يجب التعامل مع جهات مسالمة.

لقد تمتعت الأقليات السياسية المسلمة في عهد علي﴿عليه السلام﴾ بكافة حقوق المسلمين وحريّتهم دونما انتقاض، ما دامت لم تستخدم السلاح ضد السلطة أو ضد الناس، من مثل حرية إبداء الرأي وحرية التجمع لا سيما المنظم و حق الملكية وسائر الحقوق الأقتصادية.

حرية أبداء الرأي:

لم يتعرض علي﴿عليه السلام﴾ لحرية إبداء الرأي رغم أنها بلغت تكفيره، ناهيك عن مطالبته بالتنّحي فعلىٰ الرغم من كون الخوارج مجموعات من جيشه خرجت عليه وهو في حالة الحرب، فأنه لم يتعرض لهم بقتال ما داموا لم يستخدموا السلاح، وكان يقول:

«... ولا نُهيّجهم (الخوارج) ولا نبغيهم شراً ما لم يحدثواحدثاً أو يفسدوا في

الأرض.. إن سكتوا تركناهم وإن تكلموا حاججناهم وإذا أفسدوا قاتلناهم»[١].

وكان يكرر قوله:

«لا أقاتلهم حتىٰ يقاتلوني..»[٢].

وفعلاً فإن الإمام لم يناقشهم ويرسل الرسل اليهم. وقد كلف غير رسول بلقائهم ونقاشهم. فقد أوفد إليهم عبدالله بن عباس يرافقه صعصعةبن صوحان و زياد بن النضر وطلب من ابن عباس الا يناقشهم بالقرآن فإنه حمّال وجوه فيقول ويقولون، بل ان يناقشهم بالسنة، ولكن دون جدوىٰ[٣] ثم ذهب إليهم الإمام بنفسه لمناقشتهم[٤].

وكانت مطالب الخوارج تتلّخص بعد إصرارهم علىٰ التحكيم بداية، بالتراجع عنه، لأنه تحكيم للرجال في دين الله الأمر الذي يعدّ في نظرهم كفراً، إما أن يتوب منه الإمام أو ينخلع من الإمامة، كما أخذوا عليه إعطاء الأجل في التحكيم وعدم البدء به فوراً.

ولكن علياً كان يرد عليهم بأنهم كانوا من بين أولئك الذين اجبروه علىٰ القبول بالتحكيم بعد أن كشف لهم أن رفع المصاحف علىٰ الرماح خدعة، وأنهم أصروا علىٰ وقف القتال والاحتكام إلىٰ كتاب الله[٥]. فإذا كانوا اليوم غيروا رأيهم، فأنه لا يسعه موافقتهم وقد أعطىٰ المواثيق علىٰ القبول. وأما تحكيم الرجال بدل القرآن فأوضحه بقوله:

«إنّا لم نحكم الرجال وإنّما حكمنا القرآن(وهو) لا ينطق بلسان ولا بد له من ترجمان وأنما ينطق عنه الرجال»[٦].

وانه اشترط علىٰ الحكمين أن يحكما بكتاب الله و «يحييا ما أحيا الكتاب ويميتا ما امات، فان حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف ما حكما به وإن أبيا وزاغا فنحن من حكمهما براء»[٧].

وأما مسألة الأجل فسوّغها علي ﴿عليه السلام﴾ بقوله:

---

١. الدينوري، الأخبار الطوال، دار الفكر الحديث، بيروت ص ١٥٧.

٢. المبرد، الكامل ج ٢ ص ١٥٦.

٣. راجع إبن أبي الحديد/ مذكور سابق م ٤ ص ٢٣٦.

٤. راجع محمد باقر المحمودي، نهج السعادة، مؤسسة المحمودي م ٢ ص ٣٨٣.

٥. راجع إبن أبي الحديد، سابقاً م ١ ص ٢٠١ و م ٢ ص ٢٦١.

٦. المرجع نفسه م ١ ص ٣٠٣.

٧. نهج السعادة، مذكور سابقاً ص ٣٢٨ و ٣٢٩.

«فعلت ذلك ليتبيّنَ الجاهل وَيَتَثَبَّتَ العالم، لعل اللّه أن يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الأمة، فلا تؤخذ بأكظامها، فتعجل عن تبين الحق وتنقاد لأول الغي»[١].

وأما كلمتهم «لا حكم إلا اللّه» فهي كلمة حق يراد بها باطل وأنه لا بد للناس من أمير.

وأخيراً فإنه في مسألة توبته ردَّ عليهم بأنه لم يكفر بقبوله ضغطهم ورضوخه للتحكيم ولإختيارهم ممثله، رغم ان هذا الموقف كان موقفاً ضعيفاً نابعاً من وضع عسكري غير ملائم بعد ظهور التمّرد في صفوف الجند. ومع ذلك لم ييأس الإمام من إمكانية الاقناع، حتىٰ بعد أن امتنعوا عن الصلاة خلفه، بل كان يناقشهم حتىٰ في أثناء تأدية الصلاة.

فقد ورد انه كان يصلي وإذ بمصل وراءه يقرأ: (**إن الحكم إلا للّهِ يقصُّ الحقَّ وهو خير الفاصلين**) (الانعام / ٥٧). فقرأ الإمام دون أن يقطع صلاته: (**فأصبرْ إنَّ وعدَ اللّهِ حقٌّ ولا يَسْتَخِفَّنَّكَ الذينَ لا يوقنونَ**) (الروم / ٦٠). وقد وصل الأمر بالخوارج ان اتهموا الامام بالشرك. فقد قرأ ابن الكواء خلفه في الصلاة وبصوت عالٍ: (**ولقد أوحي اليك والىٰ الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين**) (الزمر / ٦٥) فردّ عليه الأمام بالآية السابقة نفسها علىٰ أن حرية الرأي لم يعترف بها الإمام للخوارج فقط فقد مارسها جماعة الجمل. وحاجهم الامام، وكان قال عندما غادر طلحة والزبير إلىٰ البصرة.

(«إن فعلوا هذا فقد أنقطع نظام المسلمين، وما كان عليهم في المقام فينا مؤونة ولا إكراه»)[٢]

وكان ذلك بعد إظهارهم مواقفهم المخالفة لموقف الإمام كما ناقش الإمام وأفاض جيش الشام بقيادة معاوية دون أن يستعجلهم الحرب.

وهكذا و علىٰ رغم أن الفئات المذكورة لم تكن دائماً تستخدم النضال السياسي للتأثير علىٰ رأي الإمام وموقفه، بل هي تتوسل ذلك تبريراً لقتاله بهدف الخلاص منه والحلول محلّه، فإنه لم يحاسبها علىٰ نواياها و لم يستبق إعلانها الحرب عليه بالمبادرة

---

١. إبن ابي الحديد، مذكور سابقاً م ١ صفحة ٣٠٣.

٢. عمر أبو النصر، الحرب الأهلية في صدر الاسلام، منشورات عمر أبو النصر ١٩٧٠ ط ٢ ص ٨٢.

إلىٰ قتالها، بل ترك لها الحرية لتنشر رأيها مقابل رأيه.

حرية التنقل:

لم يقيد الإمام ﴿عليه السلام﴾ حركة الفئات التي عارضته رغم وجود السوابق في تاريخ الخلفاء الراشدين، إذ أن عمر لم يكن يسمح لقريش أن يتركوا المدينة المنورة. فكان يقول:

«إني قائم دون شعب الحرّة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار»[١].

لقد ترك علي ﴿عليه السلام﴾ طلحة والزبير يغادران المدينة وهو يعلم أنهما سيشغبان عليه تحت ستار تأدية العمرة، إذ قال لهما:

«ليس العمرة ما قصدتما بل الغدرة»[٢].

وعندما توجّه طلحة والزبير وعائشة الىٰ البصرة مع جموع من الأمويين يقودون جيشاً من المتمردين ليستولوا عليها، لحق بهم علي ﴿عليه السلام﴾ ليناقشهم علىٰ أمل إقناعهم. وهو أقنع الزبير لكن عند بدء المعركة إنسحب، أما الخوارج فإن الإمام لم يتعرض لهم إلا بالنصح والإرشاد وكانوا ينتقلون من أماكنهم ويتجمعون، وقد كان رجال من الكوفة يتسللون إليهم بوجود الإمام في الكوفة[٣].

وحتىٰ من كانوا يتسللون للحاق بمعاوية من أهل المدينة لم يمنعهم[٤].

كل هذا مع العلم أن هؤلاء المتمتعين بحرية الحركة كانوا يريدون خلعه أو الانضمام الىٰ عدوه.

الحقوق الاقتصادية والاجتماعية:

صحيح أن علياً استرد القطائع التي أقطعها عثمان دون وجه حقّ، إلا أنه لم يصادر أملاك

---

١. الطبري، م ٣ ص ٤٢٦.
٢. إبن أبي الحديد، مذكور سابقاً، م ٣ ص ٥٧٦.
٣. المرجع نفسه م ٢ ص ٥٢٨.
٤. المرجع نفسه م ٤ ص ٢٣٠.

خصومه وأموالهم التي أحرزوها بالطرق الشرعية، كما أنه لم يكن ليقطع العطاء لمجرد رأيه، ما دام الخصم لم ينفصل عن جماعة المسلمين.

فالخوارج رغم تكتلهم واتهامهم الإمام بالكفر فهو لم يقطع عطاءهم، فقد لاحظ صاحب كتاب الأموال «أن علياً رأى للخوارج في الفيىء حقاً مالم يظهروا الخروج علىٰ الناس (إستخدام السلاح ضد المواطنين)، وهو مع هذا يعلم أنهم يسبونه ويبلغون منه أكثر من السبِّ، الا أنهم كانوا مع المسلمين في امورهم ومحاضرهم »[١].

وهذا ما صرح به عليٌّ مراراً فكان يقول لهم :

«لكم عندنا ثلاث خصال: لا نمنعكم مساجد اللّٰه أن تصلوا فيها، ولا نمنعكم الفيىء ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نبدأكم بحرب حتىٰ تبدأونا»[٢].

أما إذا أنشقت الأقلية بشكل نهائي وأنفصلت عن جماعة المسلمين و لم تعد تقاتل تحت راية الإمام فإن العطاء يتوقف بطبيعة الحال. وهذا ما لاحظه أبو عبيد حيث يقول عن الخوارج «حتىٰ صاروا إلىٰ الخروج فيما بعد، فقطع عطاءهم»[٣]. وهذا هو المبدأ فالعطاء هو المقابل للإلتزام الواقعي بالجماعة والقتال الىٰ جانبها.

وهذا ما أفهمه علي ﴿عليه السلام﴾ لعبد اللّٰه بن عمر، إذ قال له :

«شككت في حربنا فشككنا في عطائك»[٤].

وهكذا فإن علياً أعترف بحقوق الأقليات السياسية بالمعارضة والحركة، وبحقوقها الاقتصادية دون أي انتقاص بحقوق الأقليات السياسية بالمعارضة والحركة، وبحقوقها الاقتصادية دون اي انتقاص، بشكل لا تدانيه فيه الأنظمة القائمة اليوم في أحسن صورها. وذلك أن الأنظمة الحديثة تسمح ممارسة الحقوق والحريات ما دام النظام غير مهدد. أما عندما يهدد النظام فإن هذه الحريات تلغىٰ. وما قرارات المحكمة الدستورية الألمانية بإلغاء الأحزاب النازية الجديدة أو الشيوعية إلا خير و دليل علىٰ ذلك[٥].

---

١. أبو عبيد، الأموال، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ١٩٨١، ص ١٠٢.

٢. مستدرك وسائل الشيعة م ١١ ص ٦٥. ٣. أبو عبيد مذكور سابقاً.

٤. المحمودي، مذكور سابقاً م ٤ ص ١٢٧.

٥. راجع محمد طي، القانون الدستوري والمؤسسات السياسية ١٩٩٧ ص ٣٤٥ راجع كذلك.

←

وإذا أضفنا إلىٰ ذلك أن علياً كان في حالة حرب بشكل دائم منذ تسلم الخلافة حتىٰ استشهد، عرفنا قدر ايمانه بحريات الأقليات وحقوقهم. فاليوم اذا كان النظام في حالة حرب أو في ظروف استثنائية فإنه يعلن حالة الطوارىء أو حالة الحصار ويسمح لنفسه بمصادرة االحريات. فيمنع التجمعات ويقمع حرية الرأي ويصادر الأشخاص، لزجّهم في القتال علىٰ أساس أنهمم جنود احتياطيون، لا سيما أرباب المهن والحرف ممن يحتاجهم المجهود الحربي، وكذلك هو يصادر الممتلكات وقد عرفت دساتير العديد من البلدان أحكاماً خاصة بحالات الضرورة والظروف الاستثنائية، تمنح السلطة التنفيذية العليا صلاحيات ديكتاتورية. فالعرف الدستوري الأمريكي سمح للرئيس روزفلت بإحتجاز اليابانيين، وحتىٰ الأمريكان االمتحدرّين من أصل ياباني احتياطياً إبان الحرب العالمية الثانية خوفاً من أن يشكلوا طابوراً خامساً دون أن يمارسوا أي عمل تجاه أمريكا[١].

والدستور الفرنسي في المادة ١٦ منح رئيس الدولة سلطات ديكتاتورية عندما يقدّر أن عمل المؤسسات المنتظم قد يتوقف أو أن الخطر يهدّد مؤسسات الجمهورية أو استقلال الأمة، أو وحدة أراضيها أو تنفيذ التزاماتها الدولية. وتقدير الرئيس لهذه الأمور ليس من شروط تحققها واقعياً. وهو عند ذلك يتخذ كل التدابير التي يراها ضرورية لمواجهة تلك الظروف[٢].

أما الدستور الالماني فقد أعطى السلطة التنفيذية في المادة (٨١) صلاحية استثنائية بالتشريع عندما تفقد الأكثرية في البندستاغ[٣].

→

Duverger Mauice, Institutions Politiques er droit constitutionnel. p. U . F paris 1978 p. 3ll.

١. المرجع نفسه ص ٢٣٠ راجع كذلك Duverger op cit p 367.

٢. المرجع نفسه ص ـ ٣٠٦ ـ ٣٠٧ راجع كذلك.

_ Hauriou,Y. Giquele&. p. Gélard, droir Constitutionnel & institutions poliitiques. ed. Mantchxestien Paris 1975 p. 373.

٣. المرجع نفسه ص ٢٤٤. راجع كذلك.

←

اما علي فانه التزم باحترام الحقوق والحريات حتىٰ في أحلك الظروف، وهو الذي كان يرىٰ ان من الممكن المواجهة بيسر لو تخلّىٰ عن التزامه. فقد كان يقول:

«قد يرىٰ الحوّل القلب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر اللّٰه أو نهيه، فيدعها رأي العين بعد القدرة عليها وينتهز فرصتها ودونها مانع من أمر اللّٰه أو نهيه، فيدعها رأي العين بعد القدرة عليها وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين»[1].

لهذا فانه لم يلجأ الىٰ الغدر[2].

ولم يتخذ تدابير استثنائية تجاه حقوق يعدّها مما حمى اللّٰه تعالى، وقد دفع علىٰ هذا الطريق ثمناً باهظاً، كان يمكنه لو تهاون في الأحكام التي التزم بها أن يوفره.

عليٌّ والأقلياتُ الدينيةُ:

يميز الاسلام بين نوعين من الأديان: الاديان السماوية، أي التي نزل اليها كتاب من السماء كالمسيحية واليهودية والصابئة والمجوس، واديان المشركين من عبدة الأشخاص والأشياء لوحدها أو الىٰ جانب اللّٰه تعالىٰ. وتعاطىٰ مع كل فئة علىٰ نحو يختلف عن تعاطيه مع الأخرىٰ.

وفيما يلي لن نتطرق الىٰ مناقشة الموقف من المشركين وسنقصر كلامنا علىٰ أهل الكتاب.

عليٌّ وأهلُ الكتاب:

لقد وضعت مصادر التشريع أسس التعامل مع أبناء الأديان السماوية الأخرىٰ وطبقها الخلفاء الراشدين الذين سبقوا علياً ﴿عليه السلام﴾، ولم تبق الا امور محدودة عالجها علي ﴿عليه السلام﴾.

→

– Burdeau Georges, droir Constitutionnele & institutions Politiques, L. G . D.Y. Paris 1977. 273.

١. ابن ابي الحديد، مذكور سابقا م ١ ص ٢١٦. ٢. المصدر نفسه.

فالاسلام لم يساوِ الذمي بالمسلم، بل جعله في وضع يجد مصلحته في الخلاص منه واعتناق الاسلام، فقد فرض عليه الخراج في الأرض، أو الجزية علىٰ الرؤوس إذا كان قادراً علىٰ القتال استدلالاً بالآية الكريمة

«قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم اللآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتو الكتاب حتىٰ يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون» (سورة التوبة / ٢٩).

وكما أن الاسلام حرّم علىٰ أهل الذمة أن يتبوؤا مناصب الولاية علىٰ المسلمين من إمارة وقضاء وما اليها بدليل الآية الكريمة:

(ولا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) (آل عمران / ٢٨) والآية **(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارىٰ أولياء)** (سورة المائدة / ٥١)، وفي النكاح يمنع الاسلام زواج المسلمه بكتابي في حين يسمح بزواج المسلم بكتابية.

أما في مسائل القصاص فليس هناك إجماع من المسلمين في موضوع نفس المسلم ونفس الكتابي إذترى بعض المذاهب أن هناك مساواة بحيث يقتل المسلم بالكتابي كالحنفيّةِ، فيما ترىٰ مذاهب أخرىٰ أنه لا يقتل المسلم إلا إذا اعتاد قتل أهل الذمة[1].

وفيما خلا هذا إذا تفحصنا موقف علي من أهل الذمة فإننا نراه ينطلق من قوله في عهده الىٰ مالك الاشتر عندما ولّاه مصر إذ يقول:

«وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق»[2].

أما تفصيل هذا الموقف وبحسب المصادر التي بين ايدينا، فيبتدى في: مسألة ممارسة الشعائر الدينية، ومسألة أرواحهم وكراماتهم وأموالهم وحقوقهم الاجتماعية الاقتصادية وفي مساواتهم بالمسلمين.

---

١. راجع المصنفات الفقهية ومن بينها عبدالله مصطفىٰ المراغي ـ التشريع الاسلامي لغير المسلمين، مكتبة الجماهير ـ القاهرة ص ٨١.

٢. ابن ابي الحديد، مذكور سابق م ٤ ص ١٢٠.

مسألة ممارسة الشعائر الدينية:

لم يتعرض علي ﴿عليه السلام﴾ لأهل الكتاب في ممارستهم لشعائرهم الدينية بالطريقة التي وردت في عهود الخلفاء السابقين لهم، ومن هنا فإنه يكون معترفاً ضمنياً بحريتهم بممارسة هذه الشعائر. ومن باب أولىٰ أن يبقوا علىٰ أديانهم ولا يكرهوا علىٰ تغييرها.

مسألة أرواح أهل الذمة (أو نفوسهم):

يقول علي ﴿عليه السلام﴾ عن أهل الذمة:

«إنما قبلوا عقد الذمة لتكون اموالهم كأموالنا ودماؤهم كدامائنا»[١].

وهكذا فإن عقد الذمة يحقن دماء أهل الكتاب ويوجب العقوبة علىٰ من يتعدىٰ عليهم تحت أي ذريعة كانت. فقد حصل أن أعتدىٰ جنود معاوية في أحدىٰ غاراتهم، التي شنوها تحت شعار الانتقام لدم عثمان، علىٰ بعض أهل الذمة، فيمن اعتدوا عليهم. فكتب علي ﴿عليه السلام﴾ إلىٰ معاوية مستنكراً يقول:

«ويحك، وما ذنب أهل الذمة في قتل ابن عفان ؟»[٢].

أما في مسألة دية الكتابي ، فقد أثر عن علي ﴿عليه السلام﴾ أن « دية اليهودي والنصراني مثل دية المسلم»[٣].

مسألة كرامات أهل الذمة:

«لقد حافظ علي علىٰ ﴿عليه السلام﴾ كرامات أهل الذمة فمنع تعذيبهم أو ضربهم لمجرد تحصيل المال منهم، إذ كان يوصي عماله علىٰ الخراج بألا يلجأوا الىٰ الإكراه المادي ضد المكلفين بالخراج لإجبارهم علىٰ دفع ما يستحق عليهم، فقد كان يقول ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم»[٤].

أموال اهل الذمة:

---

١. أبو بكر الكاشاني، البدائع، طبعة الخانجي ١٣٢٨ ج ٧ ص ١١٠ و ١١١.

٢. المحمودي ، المذكور سابقا ج ٥ ص ٣٠٨. ٣. المحمودي ، المذكور سابقا ج ٥ ص ٣٠٨.

٤. ابن أبي الحديد، مذكور سابقاً، م ٤ ص ١١٦.

لقد ورد في كلام علي كما بينا سابقاً بخصوص أهل الذمة :

إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا..»

وهذا يعني أنه يجب الحفاظ عليها كما يحافظ علىٰ أموال المسلمين. وقد كان الإمام قدوة في ذلك، فهو لم يقبل من أهل الخراج أن يقدموا له طعاماً ودواباً إلا بأثمانها رغم ظاهر طيب انفسهم بذلك. فقد أجابهم الإمام علي علىٰ عرضهم التقدمة بقوله :

وأما دوابكم هذه، فإن أحببتم ان نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم إخذناها منكم. وأما طعامكم الذي صنعتم لنا فإنا نكره، أن نأكل من أموالكم شيئاً إلا بثمن»[١].

كما كان يأمر بعدم التعرض لمال المعاهدين إذ يقول :

«ولا تمسن مال احد من الناس مصل أو معاهد»[٢].

ثم ان الامام يدعو الىٰ عدم إلحاق الظلم باهل الذمة، كما جاء في وصيته لأبنه الحسن ﴿عليه السلام﴾ :

«الله في ذمة نبيكم فلا يظلمن بين اظهركم»[٣].

وعدم إلحاق الظلم يتناول الجانب المالي إلىٰ غيره من الجوانب. وهكذا فلا أغتصاب ولا مصادرة تحت أي حجة كانت بل حماية وضمان .

الحقوق الاجتماعية لأهل الذمة:

لم يكن أهل الذمة محرومين من ضمان الحد الأدنىٰ الضروري لمعيشتهم بل كان الإمام يتعهد إعالتهم كالمسلمين . فقد صدف أن رأىٰ شيخاً يتسول في الطريق ، فأستغرب الموقف وسأل كيف يحصل ذلك فأجيب :

أن الرجل من أهل الذمة فوبخ أصحابه المسؤولين عن الأمر قائلاً

« أستعملتموه حتىٰ إذا كبر وعجز منعتموه ؟ أنفقوا عليه من بيت المال»[٤].

---

١. صادق الموسوي. تمام نهج البلاغة ، الدار الاسلامية، بيروت ١٤١٤ ص ٥٠٢ .

٢. ابن ابي الحديد، مذكور سابقاً، م ٤ ص ١١٦. ٣. الطبري، التاريخ ، دار الفكر بيروت، م ٥ ص ١٤٨.

٤. الحر العاملي ، وسائل الشيعة ، دار احياء التراث العربي م ١١ ص ٤٩ .

هذا كما كان الإمام ﴿عليه السلام﴾ يمنع أن تنزعَ من الذمي مؤونته أو كسوته أو دابته التي يعمل عليها لتباع، أو يجبر علىٰ بيعها لتسديد ما يتوجب عليه. فقد كان يأمر عماله بقوله: «ولا تبيعن لهم رزقاً يأكلونه ولا كسوة شتاء ولا صيف».

(ولا) دابة يعتملون عليها، لإنا لم نؤمر بذلك، إنما أُمرنا ان نأخذ منهم العفو)[1].

المساواة والحق بالمقاضاة:

فيما خلا ما يأمر به الاسلام من الضغط على الذمي في ذلك الحين، فقد كان علي يساويه بالمسلمين بل وحتىٰ بنفسه، وما قصة مثوله والذمي أمام القاضي شريح، للتقاضي وهو الخليفة، ورضوخه لموجبات المساواة أمام خصمه وتسليمه بحكم القاضي الذي صدر في غير مصلحته، إلا خير دليل علىٰ تلك المساواة.

فقد أضاع الامام ابان خلافته درعاً له في الطريق الىٰ الشام.

وفي يوم من الأيام وجدها مع شخص من أهل الذمة، فطلبها منه فرفض أعطاءها أياه مدعياً أنها ملكه، فشكاه الأمام الىٰ شريح القاضي، فمثلا معاً فسألَ القاضي الامام عن مدعاه فقال: هي درعي ولم أهب و لم أبع.

فرد الذمي منكراً. فسأل القاضي الأمام عن بيّنته فقال:

ليس لي بيّنه. فقضىٰ شريح بالدرع للذمي، ورضخ الإمام[2].

وهكذا نجد ان اهل الذمة في الاسلام كانوا يرغمون علىٰ إعطاء الجزية ويجري بينهم و بين المسلمين تمييز في المعاملة وذلك لأنهم في الوضع الذي تصفه الآية الكريمة ٢٩ من سورة التوبة. فإذا أسلموا رفعت عنهم الجزية والتمييز، وذلك في زمن الدعوة الىٰ الاسلام وجهاد اعدائه.

---

١. صادق الموسوي مذكور سابقا ص ٥٠٨.

٢. راجع الاصفهاني، الأغاني، دار صعب بيروت، جزء ١٦ ص ٣٨. راجع كذلك ابن حجر، الصواعق الحرقة مص ١٩٦٥. ص ١٣٠، وابن عساكر تاريخ دمشق، ترجمة علي ابن ابي طالب في ٣ أجزاء تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، بيروت ط ٢ ج ٣ ص ٢٤٤.

أما علي فأنه كان يعترف لأهل الكتاب بحقوق الإنسان الكاملة بإستثناء الشرع الحنيف، ويراهم بعد ذلك مساوين للمسلمين. وإذا حاولنا مقارنة الأمر بما تحويه صكوك وإعلانات حقوق الانسان الحديثة، فإننا نجد أنفسنا أمام مستويين من النقاش:

المستوىٰ الأول:

هو المستوىٰ المتروك للحاكم الذي يقوم بإستنباط الاحكام من المبادىء الأساسية للشرع الحنيف. وهو المستوىٰ الذي كان يجتهد فيه علي ﴿عليه السلام﴾ فيحدد الأحكام الواضحة والدائمة.

وإذا حاولنا عقد مقارنة مع النصوص الحديثة، نجد الأمام قد سبقها باكثر من أحدعشر قرناً.

فقد كفل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في ١٠ / كانون الأول ديسمبر ١٩٤٨؛ في مادته الأولىٰ المساواة في الحقوق والكرامة للناس ومنع في مادته الثانية التميز بسبب الدين وأعطىٰ الجميع الحق في الحياة والحرية (م ٣) وهي الحقوق التي كفلها علي لأهل الكتاب، بعد وفائهم بواجباتهم التي حددها القرآن الكريم والنبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ والخلفاء السابقون.

كما منع الإعلان التعذيب والمعاملة القاسية (م ٥) وهو ما كان يطبقه علي خاصة في تحصيل الخراج.

وقد اعترف الإعلان بالشخصية القانونية (م ٦) وبحق اللجوء الىٰ المحاكم (م ٨ و ١٠)، وقد مكن علي أهل الكتاب حتىٰ من مقاضاته شخصياً وهو الخليفة، أمام قاضيه.

كما ضمن الإعلان توفير حد أدنىٰ من المعيشة للجميع (م ٢٥). وقد منع علي بيع كسوة المدينين للدولة، بما فيهم أهل الكتاب، ومؤونتهم ودوابهم الضرورية لمعيشتهم، كما أقر حقوقاً لهم في بيت مال المسلمين عندما يكونون عاجزين عن الكسب.

المستوىٰ الثاني:

وهو مستوى الأحكام الأساسية المفروضة علىٰ الجميع، بمن فيهم الامام والتي تنظم فيما تنظم الموقف الإسلامي من أبناء الأديان الأخرىٰ. وهذه الأحكام صنفان.

١ـ أحكام منزلة حددها الشارع المقدس وتتمثل بالجزية وإلا فالقتال.

٢ـ أحكام عائدة لولي الأمر يتخذها للحفاظ علىٰ الجماعة وعلىٰ النظام العام داخلها، من مثل منعهم من حمل السلاح، والأخبار عما يصل الىٰ علمهم من أخطار علىٰ المسلمين، وحق الضيافة، والتميز بالهيئة...[١].

أما الأحكام رقم (١)

فعائدة الىٰ حكمة المشرع الذي أمر بقتال من **(لا يؤمنون باللّٰهِ ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم اللّٰه ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتىٰ يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)** (التوبة ٢٩).

وأما الأحكام رقم (٢)

فهي تفرض عليهم علىٰ أنهم جزء من الأمم المغلوبة وأن بإمكانهم مساندة أممهم بتشكيل طابور خامس لمصلحتها، ما دامت متربصة بالمسلمين، ومساندتها في حال هجومها علىٰ دار الإسلام. ذلك الىٰ تأكيد الصغار المفروض شرعاً، في زمن كان الإنتماء فيه الىٰ الدين لا الىٰ الوطن.

وإذا حاولنا هنا المقارنة، نجد ان حقوق الإنسان التي حملتها المواثيق منذ الصكوك الأمريكية في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الىٰ الإعلان الفرنسي لسنة ١٧٨٩ الىٰ نصوص عصبة الأمم بعد الحرب الأولىٰ الىٰ إعلان حقوق الإنسان الىٰ سائر النصوص التي

---

١. راجع الماوردي، الأحكام السلطانية، مركز النشر، مكتب الإعلام الاسلامي ١٤٠٦ هـ ص ١٤٥. راجع كذلك أبو يعلىٰ، الأحكام السلطانية، مركز النشر مكتب الإعلام الاسلامي ١٤٠٦هـ ص ١٥٦. وراجع الكليني، فروع الكافي، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٥ م ٣ ص ٥٦٦ وما بعدها.

تلت الحرب الثانية وصولا إلىٰ اليوم، نجد أن كل هذه النصوص لا تطبق إلا علىٰ المستوىٰ الداخلي، وحيث لا تعيش أقليات الىٰ جانب الأكثرية. أما في الخارج وفي مواجهة أبناء الأديان المختلفة عن الدين المسيطر فلا حقوق فعلية. فإذا عاينّا وضع الهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية، فإننا نجد أنه بعد عمليات الإبادة وانتزاع الأرض لم يبق منهم إلا أعداد قليلة تقيم في مناطق محاصرة، حظائر، وهم الذين كانوا يملكون كل تلك الأرض. أما وضع السود في تلك البلاد أو الفلسطينين في فلسطين أو سائر أبناء المستعمرات، أو حتىٰ البلدان الصغيرة غير المستعمرة مباشرة، فانه يبين حقيقة ما تقدمه صكوك حقوق الأفراد والأقليات علىٰ الصعيد الفعلي، مما يتناقض مع الهدف الذي رسمه واضعو تلك الصكوك والذين ناضلوا من أجلها. أما إذا حققنا في وضع الأقليات الدينية والتي قاست ما لا يحتمل عبر التاريخ في مختلف بلدان العالم، فإننا نجد اليوم أن الحماية المفروضة بالنصوص الدولية تقزمها القوانين في الداخل، ولكن بشكل غير مباشر.

أما علىٰ الصعيد الفعلي، فهي مقهورة ومنهوبة ومطاردة، ويكفي النظر الىٰ مشاكل الكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا الجنوبية، ووضع الوالون المتدينين، الفلامان العلمانيين في بلجيكا، ووضع المسلمين في الهند والصين والفليبين وفي أثوبيا وأوغندا، بل وحتىٰ في أوروبا وأمريكا حيث يشكلون أقليات كبيرة.

الخلاصة:

لقد استطاع الإمام علي ﴿عليه السلام﴾، في الحقل المتروك لإجتهاده أن يبرز للإسلام صورة سمحة مشرقة عن طريق إعترافه بحقوق الأقليات السياسية، لم تتجاوز عصره وحسب، بل هي تتجاوز عصرنا. ذلك أنه وفي ظروف إستثنائية للغاية استطاع ان يطبق قانوناً يصعب تطبيقه اليوم في الظروف العادية. فهو أقر للمتآمرين علىٰ نظامه، وليس لمجرد معارضيه، ممن حملوا السلاح وشاطروه المقاتلين والأموال، بحقوقهم وحرياتهم ما داموا لم يستعملوا سلاحهم للإنقضاض علىٰ مؤسسات حكمه. وعندما كان يتواجه معهم كان يدعوهم الىٰ تحكيم كتاب الله، وهو القانون الأسمىٰ الذي يفترض أنه المشترك بينه

وبينهم. ولم يكن يقاتلهم حتىٰ ينشبوا القتال هم ويكون هو في وضع المضطر الىٰ الدفاع بشكله ألأكثر مباشرة.

إن أقل ما كان يفعل اليوم بطلحة والزبير، أن تفرض عليهما الأقامة الإجبارية في المدينة المنورة، فيمنعا من التحرك الىٰ مكة المكرمة. وأقل ما كان يفعل بالخوارج، أن يجرَّدوا من سلاحهم بعد توقف القتال مع معاوية، وبمجرد القدرة علىٰ ذلك، ويحجز زعماؤهم احتياطياً وبشكل إداري حتىٰ تنتهي الحرب مع جيش الشام.

أما موقفه من أهل الكتاب، وفي المجال المحفوظ للحاكم، فهو يتجاوز المتاح اليوم في أقل تقدير، دونما تنكر لمبادىء الإسلام. فكان الإمام إنسانياً كأقصى ما تكون الإنسانية.

كل ذلك في ظل إيمانه بالوحدة الإسلامية الصحيحة القائمة علىٰ إحترام العقيدة الإسلامية دون إي إنتقاص، بحيث تكون وحدة بالتنوع، وحدة منفتحة يمارس فيها كل حريته ليتحمل مسؤوليته، فيكون إنساناً حقيقياً كما أراد له خالقه أن يكون، فيعيش ذاته بفطرته دونما قسر غير محق أو تشويه، فيكون قائداً، بل راعياً مصداق قول الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾:

«كلكم راع و كلكم مسؤول عن رعيته»[1].

لقد تجاوز علي ﴿عليه السلام﴾ عصره، وهو متجاوز لعصرنا مع فارق نوعي لصالحه يتمثل بضمانة الأحكام التي أرساها، تلك الضمانة المتمثلة بإيمان علي نفسه، وهو إيمان مطلق، وبإيمان من سيسير علىٰ هديه، فيصبح من يخالف مخالفاً لإحكام أساسية في الإسلام تدمغ صاحبها بشوب من الكفر، فيما الأحكام التي تم التواضع عليها في هذا العصر، ولا ننكر أهميتها، لا تتمتع بضمانة موازية، بل هي تخرق كلما أمكن التحايل علىٰ القانون، وما أسهله، وقضت بذلك مصلحة الحاكمين.

---

١. صحيح البخاري، جمعة ١١، وأحكام مسلم، إمارة ٢٠.

الامام علي (ع) والوحدة الاسلامية

آيةالله محمد واعظ زادة خراساني

المقدمة

في البداية، نقدم الشكر للقائد المعظم لاعلانه هذا العام عاماً للامام علي(ع) وأيضاً نشكر المساعي الكبيرة التي قامت بها لجنة تكريم الامام علي(ع).

لابد في البداية ان نتحدث عن موضوعات لها علاقة في توضيح البحث الاساسي.

١ ـ المقصود من الوحدة الإسلامية.

وهي نفسها وحدة الامة الاسلامية التي قال عنها اللّٰه سبحانه وتعالى في القرآن الكريم (إن هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)[١].

إذاً فإن أساس هذه الوحدة وضعها القرآن الكريم، الذي خاطب المسلمين مرات عديدة على انهم امة واحدة، مثل قوله تعالى:

(كنتم خير أمة أخرجت للناس ...)[٢] (وكذلك أمة وسطا)[٣].

لقد أعلن رسول اللّٰه (ص) وحدة الأمة الإسلامية بصورة رسمية بعد هجرته و ذلك عند عقد العهد بين المهاجرين والانصار، حيث قال (ع)[٤] انهم امة واحدة من دون الناس).

إن هذا الإعلان الرسمي الذي تزامن مع تأسيس الدولة الاسلامية علاوة على اشتماله على مفهوم وحدة الدين والعقيدة، فإنه يشتمل أيضاً على الوحدة السياسية والاجتماعية للمسلمين، وهم مطالبون بالمحافظة على هذه الوحدة، بالرغم من وجود الاختلافات القومية واللغة، والاختلافات في الفروع الفقهية، والاساليب العملية وفي فهم الكتاب

والسنة وكذلك الاختلافات السياسية، وان لا تجعلهم مثل هذه الاختلافات التي كانت موجودة على الدوام والتي هي أمر طبيعي مشتتين فرقاً فرقاً، وان لا تدفعهم إلى العدواة والحرب مع بعضهم.

و ذلك فقد جاء في الآيات التي دعت المسلمين إلى الوحدة وحذرتهم من الاختلاف جملة "ولاتفرقوا"، ويمكن على سبيل المثال تعداد هذه الآيات.

(واعتَصِمُوا بحبل اللّهِ ولا تَفرَّقوا)[٥]، (واقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)[٦]، (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا)[٧].

ويبدو من هذه الآيات ان المرادمن الوحدة الاسلامية، هي وحدة الامة الاسلامية، باعتبارها امة متحّدة، وتمتعها في نفس الوقت بالحرية المحدودة في كثير من الميادين العلمية والعملية. بشرط ان لا تؤدي هذه الحرية والاختلاف الناشيء منها ـــ وهو أمر طبيعي ـــ إلى تحول المسلمين إلى فرق وجماعات تتنافس بينها بصورة غير مشروعة تؤدي في نهاية المطاف إلى النزاع والحروب الداخلية.

٢ـ ان الحديث عن الوحدة يتزامن دائماً مع ذكر الاختلاف، وقد أورد القرآن الكريم في أغلب الاحيان هذين المفهومين ـــ يعني الوحدة والاختلاف ـــ متزامنين مع بعضهما، مثل الآية المائة والثلاث من سورة آل عمران التي يرفعها شعاراً كل دعاة الوحدة والمصلحين في العالم الاسلامي، (واعتصموا بحبل اللّه جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة اللّه عليكم اذ كُنْتُم أعداء فألّف بين قلوبِكم فأصبَحْتُم بِنعمَتِه إخواناً).

ان سبب تقارن الحديث عن الوحدة والاختلاف في الكتاب والسنّة وخُطب مولانا أمير المؤمنين علي(ع) هو انه لولا وجود الاختلاف لما وجدت الحاجة إلى التوصية بالوحدة.

ان التوصية بالوحدة هي من أجل اجتناب الاختلاف والتفرقة الموجودة أو التي يتوقع وجودها، وبعبارة أخرى، فإن المراد من ذلك هو رفع الاختلاف الموجود أو منع خطر الاختلاف الذي يتم الاحساس به.

٣ـ عندما حلّت مرحلة وصول علي (ع) إلى الخلافة ازدادت أرضية الاختلافات،

وبعد أن تولّى الخلافة، ازدادت الاختلافات بسبب الحروب والأحداث المؤسفة، ولذلك فقد كانت الدعوة إلى الوحدة ومقاومة الاختلافات على رأس اهتمامات ومخططات الامام علي(ع).

لقد اشار القرآن الكريم كراراً إلى الاختلافات والعداوات التي كانت سائدة في تأريخ العرب، ودعا إلى تجاوزها ومنعها، وقد قمت بجمع الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الجانب، ومن خلال التدبر فيها اعتقد ان الكثير منها يرتبط بالاختلافات العشائرية والقومية بين العرب قبل الاسلام، ويمكن ان نجد نموذجاً على هذه المسألة في سورة آل عمران (١٠٣ـ ١٠٥)، الانفال (٤٣) وأكثر آيات سورة الحجرات.

كما يمكن ذكر آيات كثيرة من القرآن الكريم على صعيد الاختلافات الدينية والعقائدية، وقد تحدّث عنها الامام علي(ع).

لقد أشار الامام علي (ع) عن الاختلافات المتجذرة بين العرب وسوف نشير اليها في طيّات هذه المقالة.

ويجب ان لا نغفل عن ان هذه الاختلافات قد جُمّدت بصورة مؤقتة مع مجيء الاسلام ولكنها لم تنته تماماً بل بقيت خلفياتها وكان لها تأثير في التطورات والحوادث المهمة في طول تاريخ الاسلام.

ان اختلاف العرب العدنانيين والقحطانيين، ونزاعات الانصار والمهاجرين التي ظهرت بعد الاسلام، واختلافات الأوس والخزرج التي كانت موجودة قبل الاسلام وكذلك الاختلافات بين هاشم وأميّة، واختلاف القبائل الاخرى مع بعضها التي ظهرت أكثر أثناء خلافة الامام علي(ع) كان لها تأثير أثناء عهد الخلفاء الآخرين الذين سبقوه ويمكن اكتشاف النماذج على ذلك في التأريخ.

وبعبارة أفضل، ان الامام علي(ع) ورث هذه المنافسات العشائرية والاتجاهات السياسية والتي كانت تصل في بعض الاحيان إلى أوجها، حيث يقول عنها(ع) [٨] (الا وان بلّيتكم قد عادت كهيئتِها يَوْمَ بَعَثَ اللّه نبيّهُ صلّى اللّه عليه وسلّم).

وعلى كل حال، فعلاوة على كل الاختلافات السابقة، فقد وقعت قبل وصول الامام

علي(ع) إلى الخلافة، حادثة ثورة الناس على عثمان، والتي عبّروا عنها بأسم (الفتنةالكبرى)، وهي فتنة تنازع الناس بسببها فيما بينهم وأستغلّها معاوية إلى ابعد الحدود سيّما وانه اتهم الامام علي (ع) بأنه كان المحرّض على قتل الخليفة.

لقد كانت هذه الفتنة والشبهة كبيرة إلى حد أنها لم تلقِ بتأثيراتها على عموم الناس فقط بل ظهرت تأثيراتها على الخواص أيضاً، وبسببها امتنع بعض الشخصيات من الصحابة عن البيعة للامام علي(ع).

ولذلك نجد ان قسماً من رسائله وخطبه (ع) تضمّنت ليس فقط دفع الشبهة والدفاع عن نفسه بنفي أي دور له في هذه الحادثة بل أكد أنه دافع عن حياة الخليفة بكل ما يستطيع، حيث يقول:

(واللّه لقد دَفَعْتُ عنهُ حتى خشيتُ أن أكوُنَ آثِماً) (٩).

وعلى هذا الاساس، فإن الامام علي(ع) وصل إلى الخلافة في مثل هذا الجو المضطرب، وكل الذي كان يجده أمامُه، فهو الاختلاف، والتحزّب والنفاق والتآمر.

ولذلك كان من حقه ان يتحدث إلى هذا الحدّ عن الاختلاف والوحدة.

كما تحدث كثيراً حول الفتنة وهي أحاديث تحتّل قسماً كبيراً من نهج البلاغة (١٠).

ويبدو أن أول أحاديثه كانت عن الفتنة هو كلامه في الجواب للعباس وأبي سفيان فقد نقل السيد الرضي في نهج البلاغة، ان العباس وأبي سفيان أثناء وفاة رسول اللّه (ص) اقترحا عليه (ع) أن يبايعاه ــ وكان ذلك في الوقت الذي تمت فيه البيعة لابي بكر في السقيفة، فقال الامام علي (ع) (١١).

(أيّها النَّاس، شُقّوا امواجَ الفتن بِسُفُنِ النجاة، وعرّجُوا عن طريق المُفاخَرَةِ).

ومن الطبيعي ان لا يُحتمل ان يكون العبّاس عم النبي(ص) والامام علي(ع) باحثاً عن الفتنة، فقد اقترح علىٰ الامام (ع) ان يبايعه وذلك قبل بيعة الناس لابي بكر، وأشار إلى ان الناس سيقولون ان عم النبي بايع ابن عمه، ولكن احتمال بحث أبي سفيان عن الفتنة قوي.

وفي رواية اخرى نقل أنه بعد ان بايع الناس لابي بكر، جاء ابو سفيان إلى الامام علي(ع) وقال: أريد ان أبايعك واني قادر على ان أملأ ما بين الجبلين بالجيش، فأجابه

الامام علي(ع)، بما معناه : ما زلت علي نفاقك يا أبا سفيان.

ان مثل هذه الروايات التأريخية غنية الدلالة على طبيعة ظروف واوضاع المجتمع الاسلامي عند وفاة الرسول الأكرم (ص).

ولعل الامام علي(ع) لم يُرد وبصورة صريحة للعباس وابي سفيان ان يقول لهما قالا نفاقاً، ولذلك وجّه خطابه إلى الناس.

ان الفتنة هي من أهم عوامل الاختلاف، ولهذا السبب فإن الامام علي(ع) إلى جانب ذمّه للفتنة، وماهيتها وأثرها ومنشأها، فقد وصفها مرات عديدة بالصورة التالية: (انّما بَدْءُ وقوع الفِتَنِ أهواءٌ تُتَّبَعُ واحكام تُبتَدَعُ) (١٢).

(ان الفِتنَ اذا أقبلتْ شَبَّهَتْ، واذا أدْبَرَتْ نَبَّهَتْ...) (١٣).

(فِتنٌ كَقِطَعِ اللّيلِ المُظْلِمِ، لا تقومُ لها قائمةٌ، ولا تُردُّ لها رايةٌ (١٤).

وكل الخطبة (١٥١)،(١٥) وقسماً مهماً من الخطبة (١٥) (١٦). وغير ذلك.

بداية البحث :

وبعد هذه المقدمة، فإن الوحدة الاسلامية عن الامام علي(ع) يمكن بحثها من خلال عنوانين، الاول : خطبة (ع) التي وردت اغلبها في نهج البلاغة والتي قال أغلبها في أيام خلافته، والثاني: السيرة العملية له (ع) التي بدأت بعد وفاة الرسول الأكرم (ص) وأستمرت حتى خلافته وشهاته، والتي يمكن التعرف عليها من خلال نهج البلاغة والتأريخ السياسي لتلك المرحلة.

القسم الاول : خطب الامام علي (ع) عن الوحدة:

يجب تقسيم حديث الامام علي (ع) عن الوحدة إلى عدة أقسام .

الف : وصفه (ع) لدور رسول اللّٰه (ص) في ايجاد الوحدة والأُلفة والاخوة بين المؤمنين، ووصف الاختلافات القبلية والعقائدية في عهود الجاهلية، وقد أتبّع في ذلك حتماً الاسلوب القرآني في الحديث عن الوحدة والاختلاف والتي تمت اليها الاشارة سابقاً.

لقد تحدث الامام علي (ع) كثيراً حول الجاهلية وتفرق العرب وأثر الاسلام في أبدال تلك التفرقة بالوحدة والألفة، وهنا ننقل قسماً من تلك الأحاديث: (قد صُرِفَتْ نحوهُ أَفْئِدَةُ الابرار، وثُنيتْ اليهِ أزِمَّةُ الابصارِ، دفن اللّه به الضّغائِنَ، وأطفأ به النوائِرَ، الَّفَ به اخواناً، وَفَرَّقَ بِهِ أقْراناً، أعزّ بِهِ الذِّلَّةَ، وأذلَّ به العِزَّةَ...) (١٧).

(فتَّم اللّه بِهِ الصَّدْع، وَرَتَقَ به الفَتْقَ، والفَّ به الشَّمْلَ بينَ الأرحامِ بَعْدَ العداوةِ والواغِرةِ في الصُّدُورِ، والضغائِنِ القادحةِ في القُلُوبِ...) (١٨).

وفي هذه الجمل التالية، مثلما في الجُمل السابقة، يوضح الامام علي(ع) ان ازالة الضغائن وابدال العداوات إلى المحبّة هي كلها ببركة بعثة رسول اللّه الأكرم (ص):

(وأهلُ الارضِ يومئذٍ مِللٌ متفرقةٌ، وأهواءٌ منتشِرةٌ، وطوائف مُتَشَتِّتةٌ بينَ مُشَبِهٍ للّه بِخَلقِهِ، أو مُلْحِدٍ في اسمِهِ أوْ مُشيرٍ إلى غيرِهِ، فهداهُم به من الضِلالةِ، وانقذهم بمكانِهِ من الجهالةِ) (١٩).

ففي هذه الخطبة يشير الامام علي(ع) إلى تشتت الناس واختلافهم في الدين، قبل البعثة النبوية ويؤكد على هدايتهم وانقاذهم من الضلالة وزرع الالفة، والمحبّة بين القلوب من قِبل رسول اللّه (ص).

لقد تحدث الامام علي(ع) بشكل عام كثيراً عن بعثة الرسول الأكرم (ص) وبركاتها، حتى لا يغفل المسلمون عن عهد الجاهلية وآثار بعثة رسولهم وبركاته عليهم.

ويبدو ان الامام علي(ع) كان يرى في أوضاع وأحوال المسلمين وتوجههم إلى الدنيا ومضاهرها وانشغالهم بالمسائل الخلافية وانقساماتهم السياسية والمذهبية الناشئة من الأحداث السابقة لعهده، كلها تشكل خطراً جدياً على الاسلام والمسلمين، وان طريق التخلّص من هذا الخطر هو العودة إلى عصرالرسول (ص)، وحين يذكّر ببركات وجود الرسول (ص) من خلال المقارنة بين الاوضاع قبل بعثته وبعدها، فانه يعلم ان الاحتمال واردٌ في أنْ يُنسى ذلك الدور وتلك البركات، وان يُحْرِمَ الجيل الذي جاء بعد ذلك العهد والذي لم يشهد ذلك العهد ويعايش التحولات السريعة، من بركات البعثة ويبتعد عنها تماماً، خصوصاً وان الايدي الخفّية للمنافقين القدماء أو الجدد كانت تخطط لابعاد

الشباب عن ماضي الاسلام وتأريخه.

ونحن اليوم نواجه نفس المشكلة مع جيل ما بعد الثورة، ونشعر بخطر انفصالهم عن جاذبية عهد الثورة.

ان جزءً من عدم وعي الجيل الجديد أمرٌ طبيعي، ولكن القسم الآخر أمرٌ متعمدٌ، وان أعداء الثورة والاسلام يحيكون مختلف المؤمرات والحيل من أجل فصل هذا الجيل عن الثورة، فهم يريدون ان لا يتعّرف الشباب شيئاً عن جاذبية وأثار الثورة ويحاولون جلب انتباهم نحو الغرب.

وبناء على هذا نفهم جيداً مقدار الخطر الكبير الذي كان يشعر به الامام علي(ع) أو توقّعه على مستقبل الاسلام، وكان يرى ان الحل ينحصر بتوعية الشباب، وكذلك تنبيه وتحذير جيل عهد الرسول الاكرم (ص) الذين كانوا حتى ذلك الحين موجودين ولكنهم يسيرون نحو الانقراض، وكان يرى انهم نكصوا عن ماضي الاسلام بسبب عبادة الدنيا، والانزلاقات السياسية والتحزبات الفرقية والمسلكية.

ب: العوامل النفسية والاخلاقية للوحدة والأختلاف.

من المسلّم به هو أن التعامل الروحي الاخلاقي الصحيح مؤثر في ايجاد الوحدة والأخوة بين المسلمين، وعلى عكس ذلك هو أثر الروحية غير السالمة والقلوب المريضة والتعامل غير الصحيح حيث يكون الاختلاف.

ونقرأ بهذا الصدد للامام علي(ع) ما يلي:ـــ

(قُلوبُ الرجال وحشيةٌ، فمن تألّفها أقبلت عَلَيهِ)[٢٠].

وفي هذه الجملة يشير الامام علي(ع) إلى ظاهرة نفسية تتعلق باقتراب الناس ومحبتهم لبعضهم.

ان الناس وبتأثير الهوى، والجهل والطمع والحرص والعوامل الاخرى البيئية والعائلية، و قبل كل ذلك بسبب السذاجة يتجهون وبصورة حتمية نحو طريق الغُربة والعزلة عن الآخرين.

ان طريق معالجة خسائر هذهِ الصفة النفسية هو اقرار المحبّة والأُلفة مع الناس، وان الانتباه إلى هذه الخصلة أو الصفة النفسية ومحاولة معالجتها من قبل المصلحين الاجتماعيين، والقادة، ودعاةالوحدة تقع ضمن أولوياتهم.

(أعجز الناس مَنْ عَجَزَ عن اكتسابِ الاخِوْانِ، وأعجَزُ مِنْهُ من ضيَّعَ من ظَفِرَ بِهِ منهم) (٢١).

وفي كلام أميرالمؤمنين (ع) هذا، اشارة إلى أحدى نقاط ضعف الانسان في قضية الصداقة واكتساب الصديق، مع اننا ربما نتصور أن أعجز الناس هو الضعيف من الناحية البدنية، والاقتصادية، والثقافية وامثال ذلك، ولكن الامام (ع) يرى ان اعجز الناس هو الذي يعجز عن اكتساب الصديق، والأعجز منه هو الانسان الذي لا يستطيع ان يحافظ على أصدقائه، واستمرار المحبة مع أصدقائه .

(خالطِوا الناس مُخالطةً ان مِتُّم معها بَكَوْ عَلَيْكُمْ وان عشتم حَنُّوا اليكمُ) (٢٢).

وليس من شك ان حسن المعاشرة وعقد المحبة بين آحاد الناس بحيث تكون قلوبهم مائلة إلى بعضهم في الحياة، ويبكون على بعضهم من فرط المحبة بعد الممات لهي الحجر الاساس للمجتمع السالم والملتزم والأمة الاسلامية الواحدة.

والعبارات الحكيمة التالية للامام علي(ع) توضح هذا المطلب:

(الغريبُ من لم يكن لهُ حبيب) (٢٣).

(فقد الأحبّة غربة) (٢٤).

(المَوّدة قرابةٌ مستفادة) (٢٥).

(التَّوَدُّدُ نِصْفُ العَقْلِ) (٢٦).

(لا تتّخِذَن عَدُوَّ صديقِكَ صديقاً فتعادِيَ صَديقَك) (٢٧).

(من اطاعَ الواشِيَ ضَيَّعَ الصَّديقَ) (٢٨).

(ايها الناسُ، من عَرَفَ مِنْ أخيهِ وثيقَةَ دينٍ، وسَدَادَ طَريقٍ ، فلا يَسمْعَنَّ فيه اقاويل الرِّجال) (٢٩).

والاقوال المتقدمة تتحدث عن قوانين الصداقة وكسب الاصدقاء والتي يؤدي اتباعها إلى توثيق العلاقة بين أفراد المجتمع .

ان أحاديث الامام (ع) بهذا الخصوص كثيرة جداً وهي كلها حاكية عن روحه الفياضة بالحب والصدق، وميله الشديد (ع) نحو ايجاد الوحدة والأخوّة بين المسلمين.

وقد جمعت أكثر هذهِ الاحاديث المليئة بالمحبة والمودة في كتاب (المعجم الموضوعي لنهج البلاغة) [٣٠] تحت عنوان (الصداقة والاصدقاء).

ج: الدعوة إلى الوحدة وتجنب الاختلاف:

(الخِلافُ يَهْدِمُ الرَّأيَ) [٣١].

تشير هذه الجملة إلى ظاهرة اجتماعية واخلاقية ونفسيّة مهمة، وهي ان الانسان بامكانه عندما يكون في حالته الطبيعية وفي أجواء الهدوء ان يختار الرأي الصحيح، ولكنه في الظروف غير الطبيعية وفي أجواء يسيطر عليها الاختلاف والنزاع فانه سيقع تحت تاثير تلك الظروف، وبالتالي ينحرف عن جادة الصواب ويختار الرأي غير الصحيح (ما أخْتَلَفتْ دعوتانِ الا كانت إحداهما ضلالةً) [٣٢].

وهذه الجملة الحكيمة تشسير إلى ان الحق والباطل لا يجتمعان وهما على الدوام في تضادّ وان الدعاية والادعاءات والاحزاب كذلك فمن بينها واحدٌ على الحق والآخرون على باطلٍ وضلال.

(قال له بعض اليهود: ما دفنتم نبيكم حتى أختلفتُم فيه، فقال عليه السلام له: إنَّما اختلفْنا عَنْهُ لا فيهِ، ولكِنَّكُمْ ما جفتْ ارجُلكمُ من البحر حتى قُلتم لِنبيِّكُم (أجعل لنا الهاً كما لهم آلهة فقال إنكم قومٌ تجهلون) [٣٣].

وعندما ندقق في النص اعلاه، نستخلص التالي:

١ــ ان اليهود في عصره (ع) كانوا يتتبعون عيوب المسلمين، وان أحد العيوب التي اخذوها عليهم، هو ظهور الاختلافات بينهم بعد وفاة الرسول الأكرم (ص) حول موضوع مهم ومصيري وهو موضوع الخلافة والامامة.

وهذا الأمر يمكن دراسته والتحقيق فيه، وهو ان اليهود في ذلك الحين كانوا يتدخلون في أمور المسلمين ويتحدثون عن وجهات نظرهم بل في تتبع العيوب، وكانوا على الاقل

يسعون لايجاد الاختلاف بين المسلمين، أو يضخمّون أختلافاتهم، وهذا الامر كان حربتهم الحادّة ضد الاسلام والمجتمع الاسلامي.

٢ــ ان اليهود كانوا احراراً الى هذا الحد بحيث يتحدثون مع خليفة المسلمين بلغة الشماتة، وعليٌّ (ع) كذلك يمنحهم الحرية للتحدث بمثل هذا الاسلوب .

٣ــ ان الامام (ع) يدرك روغان هؤلاء وانهم يريدون ايجاد الاختلاف بين المسلمين ولذلك فإنه (ع) يجيب على سؤال ذلك اليهودي المعتمد على المغالطة، فاليهودي كان يريد ان يظهر ان المسلمين كانوا ضعفاء العقيدة وانهم غير واعين إلى درجة أنهم اختلفوا حول نبيهم بمجرد وفاته (ص). ولكن الامام علي(ع) كشف أولاً الغطاء عن مغالطة اليهودي فقد تضمن الجواب اننا لم نختلف في نبيّنا وانه في نظر جميع المسلمين نبي، اي ليس هناك مسلم يشك في نبوتّه، بل ان اختلاف المسلمين هو في قول رسول اللّٰه (ص) فيما يتعلق بالخليفة بعده، حيث اختارت الاكثرية طريق الانتخابات، وكان الامام (ع) وانصاره يؤكدون على النص.

ثانياً: ان الامام استخدم في الجواب اسلوب النقض والمقابلة بالمثل، اي بمعنى انه مع كل ذلك التأكيد من قبِلِ موسى وهارون على عبادة اللّٰه الواحد فانهم اي اليهود وقبل ان تجف اقدامهم من البحر وبمجرد ان وقعت عيونهم على عبّاد الاصنام حتى قالوا لنبيهم اجعل لنا الهاً كما لهم آلهة).

أي انه يقول لهم انكم ضللتم وانحرفتم عن اصل الدين الذي هو توحيد الخالق وهذا الامر حصل في حياة نبيكم وليس بعد موته.

ثالثاً: ندرك ان الامام (ع) كان يتجنب تهويل اختلاف الناس حول امامته وهذهِ نفس النقطة التي تتضح بشكل كامل في موقفه تجاه الخلفاء ــ سواء في عهد خلافتهم أو بعد ذلك العهد في خلافته ــ وسوف نتحدث عن ذلك لاحقاً.

رابعاً وأخيراً: فإن الموضوع الجدير بالدراسة والتحقيق، هو ليس لليهود دورٌ في بعض القضايا مثل تحريف وتهويل الوقائع المتعلقة بالخلافة، ونشر الشائعات المتضاربة حول وقوع الاحداث في عهود الخلفاء قبل الامام علي(ع)، وخصوصاً في تصعيد الشائعات

المتعلقة بالاختلاف وتعدد الجبهات بين الصحابة، ومنها اختلاف الامام علي(ع) مع الخلفاء، وكذلك في نشر الاخبار في عهد عثمان التي أدت إلى قتل عثمان، والسعي لنشر الروايات المختلقة والمجعولة في باب تحريف القرآن، واختلاف الاحاديث، وسير أحداث التأريخ السياسي للاسلام ومسائل من هذا القبيل.

لقد قمت بدراسة بعض الشواهد والعلامات على دور اليهود وبقية الفرق المنحرفة واذا سنحت الفرصة للتحدث عن مثل هذه الأمور فسوف أقوم بنشرها.

وهناك أحاديث أخرى للامام علي(ع) حول الوحدة والاختلاف، منها:

(وعليكم بالتَّواصُلِ والتَّباذُلِ، وايا كُمْ والتدابُرَ والتَّقاطُعَ)(٣٤).

وهذه الجملة وردت في وصيّته (ع) للامامين الحسن والحسين عليهما السلام.

وقال أيضاً (فايّاكم والتَّلوُّنَ في دينِ اللّهِ، فإن جماعةً فيما تكرهون من الحقِّ خيرُ من فُرقَةٍ فيما تُحِبُّونَ من الباطلِ...)(٣٥).

وفي الجملة المارة يوصي الامام علي(ع) الناس بالاجتماع على الحق ولو كانوا له كارهين. فهو أفضل لهم من الفرقة في الباطل ولو أحبّوه.

(واجعلوا اللسان واحداً) (٣٦).

وفي هذه الخطبة قال الامام علي (ع) كثيراً عن الوحدة والتفرق وكذلك حول صيانة اللسان ووحدة القول:

(والظاهر أن ربنا واحد ونبينا واحد، ودعوتنا في الاسلام واحدة) (٣٧).

وهذه الجملة كتبها الامام علي(ع) في رسالة إلى الناس في بلاد الاسلام، وشكى من عصيان أهل الشام ففيها يقول اننا وهم لنا دين، ونبي، ورسالة ودعوةواحدة، ثم يقول في توضيح الأمر (ولا نستزيدهم في الايمان باللّه والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا، الامر واحد الا ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحن منه براء).

لقد كان الامام علي (ع) يؤكد كثيراً على تجنب التفرقة، ويدعو إلى وحدة الأمة في الدين والكتاب والرسول والدعوة، ومن جملة ذلك قوله (ع):

(والههم واحد، ونبيهم واحد، كتابهم واحد، أفأمرهم اللّه سبحانه بالاختلاف فأطاعوه، أم

نهاهم عنه فعصوه) (٣٨).

لقد قال الامام علي (ع) هذه العبارة في ذم القضاة المختلفين في قضائهم وفتاواهم في مسألة واحدة، انهم القضاة الذين يعرضون قضاءهم المتناقض على الخليفة الذي أختارهم للقضاء، والذي يرى ان كل ما قضوا به كان صحيحاً، مع ان المسلم به هو ان واحداً من اولئك كان على الحق والبقية على الباطل، فكيف يصادق الخليفة كل ذلك بالقبول ؟.

ان مسألة اختلاف الفتاوى من قبل المجتهدين والقضاة أمر طبيعي وبديهي، وهو امر شائع إلى اليوم في كل المذاهب الاسلامية ومنها بين علماء الشيعة، ولا يمكن منع مثل هذه الاختلافات، والا لما أعطوا أجازة الاجتهاد في المسائل المبهمة وغير المنصوص عليها، فقد قالوا (للمصيب أجران وللمخطيء أجر واحد).

ولكن المسألة التي يستنكرها الامام (ع) هي موافقة الخليفة على أحكام القضاة وآرائهم المتناقضة، وهذا العمل يتناسب أو يتلائم مع عقيدة بعض أهل السنة في مسألة التصويب الكلامية والتصويب، يعني ان الله في مثل هذه المسائل التي ليس له فيها حكم، أو كل الحكم فيها إلى المجتهدين، وعلى هذا الاساس فإن صدور أي فتوى منهم فهي حكم الله ولا مانع أن توجد في مثل هذه المسائل أحكاماً متعددة، والتصويب باطل باجماع علماء الامامية وكذلك عند بعض أهل المذاهب الأخرى.

(والزموا السواد الاعظم فإن يد الله مع الجماعة واياكم والفرقة) (٣٩).

وفي هذا الحديث والحديث الذي قبله، يمنع الامام علي(ع) الناس من التطرف فيه وأن يقولوا في مقامه ومنزلته خلاف ما يراه عموم الناس، ويقول قبل ذلك(سيهلك فيّ صنفان ...محب غال ومبغض قال).

ومن هذا الكلام نستنتج، ان الغلاة كانوا يغالون في فضائله، كما كان الخوارج، وأعداؤه ينكرون أبسط فضائله، ولذلك فإن الامام علي(ع) يحذر الاثنين معاً.

ويوجد احتمال آخر وهو ان بعض خواص الشيعة قاموا بافشاء بعض الاسرار وكان الامام (ع) غير راض عن ذلك، وعلى كل حال يجب الاذعان بأن الامام علي (ع) لم يكن

ليرضى أن يختلف المسلمون فرقاً من أجله ولكن مع الاسف حدث ذلك، حيث أن عدداً من محبيه غير الواعين سواء في ذلك الحين أو على طول التأريخ ولحد الآن يصرون على التفرقة، مع ان كبار علماء الدين، ومنهم عدد من العلماء المعروفين في عصرنا، مثل آية الله البروجردي، أية الله كاشف الغطاء، أية الله السيد محسن العاملي، وآية الله السيد شرف الدين، وامثالهم يؤكدون في مواقفهم السياسية والاجتماعية والعلمية على الوحدة في صفوف المسلمين، ويحتاج شرح هذا الأمر إلى تأليف عدة كتب، وقد جاء بعض هذه الأمور في الكتب المطبوعة لكاتب هذه السطور.

(فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة) (٤٠).

ان كلمة الامام علي(ع) هذه تذكر الانسان بنابغة الاسلام السيد جمال الدين أسد آبادي المعروف بالأفغاني، حين قال (المسلمون اتفقوا على ان لا يتفقوا) وهذا أفضل تعبير عن الاختلاف والتفرقة بين المسلمين وهو أمر له مصاديقه منذ زمان علي(ع) ولحد الآن.

(فياعجباً عجباً ــ والله ــ يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقوكم عن حقكم) (٤١).

لقد أورد الامام علي (ع) هذه الجملة ضمن خطبة جهادية افتتحها بالقول (فإن الجهاد باب من أبواب الجنة)، وقد ذكر السيد الرضي أنه قالها عندما أخبر بأن جيش معاوية دخل الأنبار.

لقد كانت كلمات الامام (ع) في هذه الخطبة معبرة عن غاية حزنه واسفه على أمرين، الأول هو الحادثة المؤلمة التي تمثلت بقيام الجنود بسلب الذهب والزينة من المرأة المسلمة والمرأة من أهل الذمة، وقد اعتبر الامام (ع) هذا العمل مؤلماً إلى حد ان الانسان المسلم لو مات أسفاً على ذلك لكان في موضع التقدير والاحترام وليس الملامة، والأمر الثاني هو التأثر والتألم من تفرق عسكره. وقد استخدم اتجاههم أشد كلمات التوبيخ.

ونجد مثل هذه الكلمات في أحاديث الامام علي(ع) وخطبه حول تفرق أهل الكوفة وجيشه، ونكتفي بما أوردناه في هذا القسم.

القسم الثاني: الاسلوب العملي في المحافظة على الوحدة عند الامام علي(ع).

ان البحث الوافي والكافي في شرح هذا الموضوع يستلزم تفصيل الحوادث والتحولات السياسية والاجتماعية في عهود الخلفاء منذ وفاة الرسول الأكرم (ص) حتى عهد خلافة الامام علي(ع)، ومن البديهي ان مثل هذه المقالة لاتتسع لذلك، ولكن يمكن استعراض بعض النماذج البارزة على ذلك.

وقبل ان ندخل في الاستنباط والاستنتاج من الحوادث المعنية، نرجح ان نبدأ هذا الموضوع بكلمة قالها قبل حدود نصف قرن أحد اساتذة الجامع الأزهر من أنصار التقريب بين المذاهب، فقد كان احد الحماة الصادقين للتقريب بين المذاهب، وقد كتب مجموعة من المقالات القيمة في مجلة (رسالة الاسلام) الصادرة عن (دار التقريب بين المذاهب الاسلامية) وهو الاستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدي.

وأرى من المناسب ان أنقل مختاراً من أحدى مقالاته المنشورة في المجلة المذكورة [٤٢] حيث يقول ما مفاده : انها لفضيلة كبرى للامام علي بن أبي طالب ــ عليه السلام ــ أن يكون أول من وضع اساس التقريب بين المذاهب حتى لا يجر الرأي الى تفرق الأمة واتقاد نار العداوات بين المذاهب المختلفة، وتبقى الأمة محافظة على وحدتها في نفس الوقت الذي يختلف فيه آراؤها كما تبقى الوحدة والمحبة والأخوة بين الأطراف المختلفة، بحيث يرى كُلّ واحد منهم الآخر أخا يملك رأياً مختلفاً فهو عنده واحد من اثنين أما مصيب مأجور أو مخطيء معذور.

واذا أراد أن يناقشه أو يحاوره بالتي هي أحسن فعليه أن لا يكون متعصباً وان يكون هدف المناقشة والبحث والحوار هو الوصول الى الحقيقة، وليس الغلبة علي الخصم .

نعم هذه الفضيلة هي فضيلة ابن عم رسول الله وهي لا تقل عن فضيلته في شرف الانتساب والقرابة الى صاحب الرسالة (ص) وفضيلة السبق الى الايمان بالرسول (ص) مع كونه حينذاك لم يبلغ الحلم.

كما ان هذه الفضيلة هي ليست باقل من فضيلة جمعه بين الجهاد بالرأي والجهاد بالمال والجهاد بالسيف.

ان الاختلاف في خليفة رسول الله (ص) كان أول اختلاف بين المسلمين فقد أجتمع الانصار بعد وفاة الرسول (ص) حول سعد بن عبادة كبير الخزرج وأرادوا ان يبايعوه خليفة، فثار الجدل وكان جدالاً صعباً حتى خشي أن تقع الحرب .

ثم ينقل الكاتب، قصة حباب بن المنذر، وسعد بن عبادة ومعارضتهم لابي بكر، والحوار الدائر بينهم، وكذلك معارضة بني هاشم وعدد من الصحابة لابي بكر وتأييداً للامام علي(ع) ثم يقول ما معناه : ان علياً عليه السلام بعد ذلك يذهب إلى بيت أبي بكر ويبايعه ويقول له نحن لا ننكر فضلك، ولكن نقول ان الحق لنا، ثم يقول الكاتب مستخلصاً النتيجة بما معناه (ان الامام علي عليه السلام يؤكد على حقه أثناء بيعته ولكنه بايع بسبب تقديره لمصلحة المسلمين ووحدة كلمتهم، ولكي لا يكون موقفه بذرة لتفرق المسلمين، وقد أظهر عمله هذا أعلى درجات التسامح والعفو عند الاختلاف، كما قدم النموذج في ترجيح المصالح العامة على المصلحة الشخصية، مع انه كان يعتقد انه وأهل بيته أقدر على حفظ مصالح المسلمين سيما وان هذه القرابة هي من العوامل الداخلية في رعاية العدل والانصاف (٤٣).

إذاً فقد بايع الامام علي (ع) أبا بكر، مع أنه حبس عقيدته بحقه في السر والعلن، وقدم الدليل على أخلاصه لأبي بكر ولم يكن في قلبه غيض أو حقد، ولم يكن يملك الرغبة في استخدام المناورة بل ان موقفه في الحرب ضد أهل الردة دليل على منتهى الأخلاص والمحبة.

وعندما اعترض المسلمون على أبي بكر في الحرب ضد أهل الردة أخذ أبوبكر سيفه وتوجه إلى ذي القصة، فلحق به الامام علي(ع) وأخذ زمام ناقته مخاطباً اياه إلى اين يا خليفة رسول الله، ويستمر الامام عليه السلام بالقول اننا اذا فجعنا فيك فلن تبقى للاسلام باقية، فيسمع أبو بكر من علي عليه السلام هذه النصيحة ويعود إلى المدينة.

لقد كان كلام الامام علي (ع) يعبر عن منتهى الاخلاص ورغبته في بقاء الخليفة على قيد الحياة، مع انه كان ما زال على عقيدته بان أبي بكر قد أغتصب منه الخلافة.

فلو كان الامام علي عليه السلام قد ترك أبي بكر ينفذ رغبته بالذهاب لكان ذلك أقرب

إلى تحقيق حقه، ولكن روح الامام كانت أكبر من ان تخطر في قلبه مثل هذه الخواطر، فقد بايع أبابكر ودفن في قلبه رأيه ووجهة نظره، وكان يعتقد بضرورة الاخلاص وحب الخير.

وهكذا كان أسلوب علي(ع) مع عمر الذي استخلفه أبوبكر للخلافة سيما وانه دفن عقيدته في قلبه وتصرف مع عمر مثلما تصرف مع أبي بكر.

وهكذا كان تعامله مع عثمان، فعندما وصل عثمان إلى الخلافة على أثر الشورى (التي أعتبرها الامام علي(ع) مؤامرة ضده) حبس علي عقيدته باحقيته في الخلافة في صدره، ولم يرض بالتفرقة والانفصال عن عثمان.

وعندما ثار الناس على عثمان، لم يحاول الامام علي(ع) الاستفادة من هذه الفرصة لصالحه، بل كان يعالج المشكلة والفتنة لصالح عثمان وفي سبيل مصلحة المسلمين، وعندما وصلت الأمور الى حد شعر معه بالخطر على حياة عثمان، ارسل ولديه الحسن والحسين (ع) ليدافعا عن عثمان، ومع ان القضاء على الاضطرابات كان على خلاف حقه ويقتضي ان يترك الثوار مع الخليفة، ولكنه كان مصمماً على الاستمرار في تقديم المثل الأعلى في التعامل مع قضايا الاختلاف.

وفي نهاية المطاف عندما طلب منه الناس ان يبايعوه لم يستعجل القبول بذلك و لم يغتنم ذلك كفرصة للوصول إلى تحقيق ما كان يعتقده، لأنه لم يكن يطلب الخلافة لمصلحته الشخصية بل لمصلحة المسلمين، ولهذا لم يوافق بداية الأمر على تولي الخلافة، ولكن بعد الاصرار عليه وافق على ذلك لكي لا تتفرق الامة، ولهذا استدعى طلحة والزبير وخيرهم بين البيعة له أو ان يبايع هو أحدهم، فقالا كلا بل نبايعك.

ثم يستعرض الاستاذ الصعيدي بالتفصيل موضوع امتناع سعد بن أبي وقاص و عبدالله بن عمر وغيرهما عن البيعة له ويذهب إلى القول بأن علي(ع) لم يكن يرغب ان يجبر أحداً على المبايعة له، بل كان يريد أن يبايعه الناس باختيارهم، ولذلك فقد ترك عليه السلام كل من رفض ان يبايعه.

ثم يتحدث الكاتب عن سلوك الامام علي (ع) مع معاوية بعزله عن ولايته عن الشام، وكان من حق الخليفة على معاوية وغيره ان يطيعوه، واذا لم يفعلوا ذلك فهذا لا يدخل في

باب اختلاف الرأي بل يدخل في باب العصيان والطغيان، وللعصيان حكماً يختلف عن حكم الاختلاف في الرأي، لان عدم الطاعة يؤدي إلى تفرق المسلمين، ومن اللازم اتخاذ الاجراء المناسب تجاهه بحيث يؤدي إلى وحدة المسلمين وان أدى ذلك إلى استخدام القوة.

ومثل ذلك كانت معاملة الامام علي (ع) مع الذين اعترضوا عليه في قضية قبوله التحكيم بينه وبين معاوية، مع ان عمل الامام (ع) في قبوله بذلك لا اشكال شرعي فيه، ولكن هؤلاء كانوا متطرفين في الدين، وعلى الرغم من كل ذلك وعلى الرغم من ان هؤلاء حكموا على الامام (ع) بالكفر فانه (ع) لم يحكم عليهم بمثل ذلك، ولكنه قال لهم ما دمتم تتحدثون معنا فلا نمنعكم من ثلاث : الحضور في مساجد الله، ولا نحرمكم من حظكم من بيت المال، ولا نقاتلكم الا ان تقاتلونا.

ولا يمكن ان نتصور أسمى من هذا الاسلوب في التسامح والعفو في باب اختلاف الرأي، بل هو المثل الأعلى في التسامح، ولكن علي (ع) كان يتعامل مع أناس متحجرين ومتطرفين لا يفهمون معنى التسامح والعفو في موارد الاختلاف بل كانوا يتخذون من ذلك وسيلة للتفرقة وعدم الطاعة وكانوا يصرون على ذلك واستمروا على العصيان.

وفي النهاية قتل عبدالرحمن بن ملجم الامام علي(ع) ولكن قبل ان تعرج روح الامام من بدنه جمع أولاده واوصاهم بتوفير الطعام الجيد والفراش الناعم لقاتله، وأوصاهم بانه اذا بقي حياً فهو الذي سيتخذ الاجراء تجاه ابن ملجم، اما ان يعفو أو يقتص، ولكنه اذا استشهد فلهم ان ينزلوا بالقاتل القصاص، ليكون حكم الله بينه وبين قاتله يوم القيام، ثم منعهم أن يضربوه باكثر من ضربة ومنعهم من المثلة به.

وهكذا يتعامل علي (ع) بمثل هذا الانصاف مع قاتله ويأمرهم بتوفير الطعام الجيد والفراش الناعم له ويمنعهم من المثلة به ليكون في حياته ومماته ــ المثل الأعلى للمسلمين والنموذج الكامل في الجمع بين الالتزام بالعقيدة وبين انصاف مخالفيه (فرحمه الله من امام للمصنفين في الخلاف وقدوة للمتسامحين في الدين).

والأن وبعد أن اطعلنا على كلام ورأي استاذ بارز من أهل السنة في الجامع الأزهر حول

أسلوب الامام علي (ع) في التزام العقيدة والشجاعة في بيان الرأي، مع التسامح وتجاوز مصلحته الشخصية في سبيل مصالح الاسلام) تنقل كلاما للمرحوم العلامة الشهيد المطهري المحقق الشهير واستاذ الحوزة والجامعة في ايران ومن الشيعة المخلصين لعلي (ع) :

يقول الشهيد مطهري في احد كتبه القيمة [٤٤]، ضمن فصل تحت عنوان (اتحاد الاسلام) "ان الجميع يود ان يعلم ما الّذي كان يفكر فيه علي، ماالّذي كان لا يريد له علي أن لا يتضرر، وما الذي كان يعتبره الامام علي مهما بحيث يتحمل من أجله كل تلك الآلام، وحدساً نقول : ان ذلك الشيء هو وحدة صفوف المسلمين وعدم سريان التفرقة فيهم، ان الفضل في وحدة والمسلمين وقدرتهم التي كانو يظهرونها تواً للعالم"ووحدة صفوفهم و كلمتهم والنجاحات المحيرة للعقول التي حققوها في السنوات التالية كلها من بركات وحدة الكلمة".

ولهذا فإن علي (ع) اختار السكوت والمداراة تقديراً لهذه المصلحة، وخصوصاً في عهد خلافته.

فعندما نقض طلحة والزبير بيعتهما له واوجدا الفتنة الداخلية، كان الامام علي (ع) يوضح كراراً الوضع الذي عاشه بعد رسول اللّٰه (ص) ويقارن بينه وبينهما فيقول :

(لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري، واللّٰه لاسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور الا علي خاصة، التماساً لاجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه) [٤٥].

لقد قال الامام علي (ع) هذا الكلام في شورى الستة التي عينها الخليفة الثاني عندما رأى انهم يريدون البيعة لعثمان وينتخبوه للخلافة.

اذاً فالامام علي (ع) مع تأكيده على احقيته، وان انتخاب غيره في مكانه انما هو تعد وظلم لحقه وهو جفاء وجور، فانه يعلن ان موافقته علي البيعة مشروطة بوحدة المسلمين والمحافظة على مصلحة الامة الاسلامية، ليسكت عن حقه المغتصب .

(فامسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام، يدعون الى محق دين

محمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فخشيت إن لم انصر الاسلام واهله ان أرى فيه ثلما أو هدماً، تكون المصيبة به علي اعظم من فوت ولايتكم .. فنهضت في تلك الاحداث حتى زاح الباطل و زهق، واطمأن الدين وتنهنه) (٤٦).

هذه الكلمات كتبها الامام علي (ع) يخاطب بها اهل مصر عند نصبه لمالك الاشتر والياً على مصر، وهذه الرسالة، هي رسالة مختصرة وهي غير العهد المطول الذي كتبه (ع) لمالك الاشتر والذي بين فيه بافضل صورة قواعد الحكم والحكومة.

وفي بداية هذه الرسالة يوضح الامام علي (ع) اختلاف الناس حول مسألة الخليفة لرسول الله، وبيعتهم لشخص آخر في وقت لم يكن يتصور فيه ان ينتخبوا غيره، فهو يقول لهم انني في البداية امتنعت عن البيعة ولكن عندما ارتد بعض الناس ورأيتهم يعملون ضد الدين عندها بايعت الخليفة حفاظاً على الأسلام ودفع الخطر عنه.

كما يشير الامام علي(ع) في هذه الرسالة الى ان اختلاف الناس في امر الخلافة لم يكن امراً صحيحاً فهم في الواقع ضيعوا حق آل الرسول (ص)، وكان من الطبيعي ان اقاوم من اجل احقاق الحق ولكن المحافظة على الاسلام كانت اهم بالنسبة لي من الخلافة. و في اماكن اخرى يتحدث الامام علي (ع) عن مسألة سكوته على غمط حقه وانها كانت تجنب الفرقة ومن اجل المحافظة على الاسلام.

ينقل ابن ابي الحديد في شرح الخطبة ١١٩ عن عبدالله بن جنادة ان علياً (ع) في احدى خطبه في مسجد المدينة في اول ايام خلافته تحدث عن انحراف الناس بعد وفاة الرسول (ص) واغتصاب حق أهل البيت، فقال (٤٧) : ألا وان بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم صلى الله عليه وآله. والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة. ولتغربلن غربلة. ولتساطن سوط القدر حتى يعود اسفلكم اعلاكم واعلاكم اسفلكم، وليسبقن سابقون كانوا قصروا. وليقصرن سباقون كانوا سبقوا. والله ما كتمت وشمة ولا كذبت كذبة ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم.

وكذلك نقل عن الكلبي (٤٨)، ان الامام علي (ع) قبل تحركه نحو البصرة قال في خطبة له :

والله ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم فأدخلناهم في حيزنا.

كما نقل ابن ابي الحديد في ذيل الخطبة ٦٥، ان احد ابناء ابي لهب انشد اشعاراً في فضائل الامام علي (ع) وذم معارضيه [٤٩]، مع ان الامام علي (ع) يقول بأن سلامة الدين وبقائه احب اليه من كل شيء.

وقد مر في بحث الفتنة، ان العباس وابا سفيان جاءا بعد بيعة الناس لابي بكر ليبايعاه، فحذرهما الامام (ع) من الفتنة [٥٠].

تساؤلات

وهنا تطرح اسئلة وشبهات تتعلق برد فعل الامام علي (ع) على غصب الخلافة.

فهو من جهة يؤكد بأن الخلافة هي من حقه وان الاخرون اغتصبوها وقد قال ذلك مراراً، ومن جهة ثانية فانه يتجنب التفرقة ويمنع الآخرين من طرح موضوع حقه في الخلافة واشعال نار الفتنة والفرقة، وهذان الامران لا ينسجمان مع بعضهما؟

فلو كان الامام علي (ع) يريد ان لا يظهر الخلاف بين المسلمين حول مسألة الخلافة ـــ التي كانت من حقه ـــ حيث لا تزال آثاره باقية لحد اليوم، كان يجب ان يسكت تماماً وان لا يتكلم بشيء حول حقه واهل بيته، وان لا يشتكي من الناس وعدم وفائهم وان لا يعتب على الخلفاء واتباعهم !

اليس حديث علي (ع) في الحقيقة هو منشأ وسبب لاختلاف وانشقاق المسلمين الى طائفتين شيعة وسنة، وسبب النزاع والتخاصم والجدل في القول والعمل، والحروب واراقة الدماء؟

ألم يكن باعثاً على طول التاريخ في وجود احزاب وجماعات تدعي اتباعه اختارت طريق التفرقة؟ وان تنشأ حكومات باسم التشيع في كل ارجاء العالم الاسلامي جاءت باسم الدفاع عن حقه واهل بيته ؟ لتقف في مواجهة الخلفاء الوارثيين الذين ساروا على خط الخلفاء الراشدين ؟

ألم يكن الاسلوب والطريقة والحديث وخطبه (ع) هي المنبع الذي استمد خط المعارضة هذا قوته منه ؟

فهل كان (ع) يريد وحدة المسلمين في زمانه فقط ولم يفكر بمستقبل الاسلام والمسلمين ؟

ألم يكن يعرف أَنَّ خطبه البليغة والمؤثرة في مسألة الخلافة ستكون في المستقبل سبباً للاختلافات؟

وفي الجواب على هذه الاسئلة وشرحها وتفصيلها، يمكن تأليف عدة كتب وتقديم تحليلات تاريخية، سياسية، اجتماعية، وكلامية، ولا توجد مثل هذه الفرصة في هذه المقالة.

لذلك فسوف نقدم بعض الاجوبة من اجل رفع بعض الشبهات الموجودة لدى حتى بعض المتنورين والشباب الشيعة، وكذلك عند اولئك الذين يشيعون دائماً التشكيك بشرعية خلفاء الاسلام، ويزرعون الفتنة ويفرقون بذلك بين صفوف المسلمين المتراصة.

الجواب

ان الاجابة على الاسئلة المتقدمة وهي واسعة وتشمل نواح عديدة وهي مثل النسيج المتشابك ولكن في بداية الامر، يجب التدقيق في تلك الشبهات، وفصلها عن بعضها، حيث يجب فتح ذلك النسيج المتشابك باصابع المعرفة والعلم مصحوباً بالهدوء والسيطرة على العواطف والاحاسيس الناشئة من المحبة لاهل لبيت ــ عليهم السلام ــ ولكن يجب ان نعلم بهذا الخصوص ، ان من المهم التعرض للمسائل التالية:

(١) ان علياً (ع) لم يشتكِ من خلال خطبه في نهج البلاغة فقط من اجل حقه الشخصي بعنوان أحقيته بالخلافة بسبب قرابته لرسول اللّٰه (ص) حتى يقال سبق السيف العذل فقد انتهى الامر، مثلما يحصل بين شخصين يتنافسان للوصول الى رئاسة الجمهورية ففاز احدهما على الآخر فيقولون لا ينبغي للآخر ان يبقى الى يوم القيامة يلوم الذي فاز عليه، فهذا العمل قد يصدر من الناس السذج الطالبين للرئاسة وليس من شخصية مثل الامام علي (ع).

كلا..فالامام علي (ع) في الحقيقة كان يدافع عن حق الهي كان يجب ان يبقى في أهل

البيت (ع) ولافراد معينين وبامتيازات خاصة.

فالامامة ركن من اركان الاسلام والمحافظة عليها في كل الابعاد السياسية والاجتماعية والثقافية المرتبطة بها امر واجب، وصرف الخلافة عن علي (ع) الى الخلفاء قبله لم تكن مجرد عملية انتقال الرئاسة من شخص الى شخص آخر، فهي عند الامام علي (ع) انحراف عن ركن من اركان الاسلام حيث تم ابدال الحق الالهي في ولاية أهل بيت النبي (ص) بالانتخاب ورأي الامة.

وهل ينتظر من علي (ع) في الوقت الذي يتغاضى فيه عن المطالبة بحقه الشخصي بسبب حرصه على وحدة المسلمين والمحافظة على الاسلام ان يسكت عن توضيح وبيان هذا الركن العظيم من اركان الاسلام الذي يضمن بقاء كيان الاسلام ايضا؟

وفي هذه الحالة اليس ذلك كتماناً لواحدة من حقائق الاسلام وهو ذنب كبير؟

لقد طرح الامام (ع) في حياة الخلفاء ولمرات عديدة هذا الموضوع بعنوان احتجاج في التجمعات والاجتماعات الخاصة مع الصحابة، ولم يطرح ذلك على عامة المسلمين خوف الفتنة و حتى لا يعتبر تحريضاً على الجهاز الحاكم.

ولذلك وحسب تشخيصي واعتراف بعض المحققين في قضية غدير خم ان الحق الالهي في ولاية أهل البيت مرت على عموم الناس بصمت، وما عدا القليل من الناس، فأن البقية منهم ماكانوا يعرفون شيئاً ويحتمل مع موت هؤلاء العدد القليل فأن موضوع الغدير نسي تماماً، ولذلك فأن الامام (ع) في بداية خلافته صمم على تعريف الناس بهذا الحق.

ان كاتب هذه السطور قد ذكر فيما تقدم خطبة الامام علي (ع) في مسجد المدينة (نقلا عن ابن ابي الحديد نقلا عن عبدالله بن جنادة) وكذلك رسالة علي (ع) الى اهل مصر (وفيها يطرح مسألة حق اهل لبيت) وايضاً خطبته قبل تحركه نحو البصرة (حول قريش بعد وفاة الرسول "ص " وكيف انها نقلت حق اهل بيته اليها).

ولكني في الوقت نفسه اؤكد بأن هذه الخطب يجب ان لا تحمل على الدفاع عن الحق الشخصي ورواية حدث تاريخي، بل يجب فهمها على انها تنطوي على رسالة الهية والكشف عن حق مضيع ليبقى على طول التاريخ.

ب) ان القضية ليست فقط قضية الحكم والرئاسة لاهل البيت (ع)، بل هي الى جانب ذلك موضوع امامة ومرجعية اهل البيت وهدايتهم، وهي بذرة اصيلة للحكومة، اي ان ادارة المسلمين عند الامام علي (ع) واتباعه لا تختزل في الحكومة والرئاسة على المسلمين، بمعنى ان الامامة، هي استمرار للرسالة، وهي الحاملة لنفس المبادىء والوظائف وهذه كلها تحتاج الى العلم والتقوى والعصمة وقضايا من هذا القبيل.

وقد اوضح الامام علي (ع) هذه الحقيقة المخفية عدة مرات في عهد خلافته، وان احاديثه بهذا الخصوص (ع) في نهج البلاغة ــ الذي هو قطعاً مختارات من كلامه ــ كثيرة، وقد قام بعض المحققين بجمع هذه الاحاديث وشرحها [٥١]، وكمثال على ذلك، ما قام به الدكتور صبحي الصالح في فهرست موضوعات نهج البلاغة، تحت عنوان (آل البيت المطهرون) [٥٢]، فقد جمع بعضها، ولكل واحد منها تتمة او جملة قبلها ولذلك ومن اجل الدراسة الدقيقة يجب العودة والرجوع الى نهج البلاغة ، وعلى كل حال ننقل بعض الفقرات من تلك الاحاديث :

(آل النبي"ص "هم موضع سره، ولجأ امره "الخطبة ٢، ص ٤٧ ".

(هم اساس الدين، وعماد اليقين، اليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي...) "الخطبة ٢، ص ٤٧ ".

(ازمة الحق ، واعلام الدين والسنة الصدق)"الخطبة ٨٧، ص ١٢٠".

(نحن اهل البيت منها بمنجاة، ولسنا فيها بدعاة) "الخطبة ٩٤، ص ١٣٩ ".

(عترته خير العتر، واسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر) "الخطبة ٩٤، ص ١٣٩".

(ألا إن مثل آل محمد، صلى الله عليه وآله كمثل نجوم السماء، اذا خوى نجم طلع نجم "الخطبة ١٠٠، ص ١٤٦ ".

(نحن شجرة النبوة، ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم "الخطبة ١٠٩، ص ١٦٢ ".

(وعندنا ــ اهل البيت ــ ابواب الحكم وضياء الأمر "الخطبة ١٢٠، ص ١٧٦ ".

(فيهم كرائم القرآن، وهم كنوز الرحمن، ان نطقوا صدقوا، وان صمتوا لم يسبقوا "الخطبة

١٥٤، ص ٢١٥".

(هم عيش العلم، وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الاسلام، وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق الى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه) "الخطبة ٢٣٩، ص ٣٥٧".

ومثلما قلنا سابقاً يجب ان تدرس كل هذه الخطب وامثالها، حتى نكتشف ان علياً (ع) كان يعتبر ان من واجبه الاستفادة من الفرص المتاحة في عهد خلافته في توضيح الموقع المعنوي لاهل البيت وهو موقع خاص بهم ويذكر ذلك تباعاً في خطبه وحتى بدون ارتباط بين اول الخطبة وآخرها.

ان النقطة الجديرة بالتدقيق في مثل هذه الخطب هي ان الامام (ع) بدلاً من التأكيد على خلافة أهل البيت (ع)، فانه يؤكد على علمهم ومعرفتهم ومحوريتهم العلمية والمعنوية ولعل هذا هو السبب الذي جعل مثل هذه الاحاديث لا تواجه برد فعل سلبي من الناس، لأن الحديث لم يكن عن الرئاسة السياسية حتى يرفض عامة الناس سماع وقبول حديثه (ع) فقد كان الناس اعتادوا على الخلفاء قبل الامام علي (ع) وكانوا يحترمونهم، وبعبارة اخرى فأن الامام علي (ع) ومن اجل المحافظة على وحدة المسلمين من الناحية السياسية، اعتمد في احاديثه على جانب المرجعية العلمية لاهل البيت (ع) وهذا هو نفس طريق الحل الذي اقترحه الاستاذ الكبير آية الله البروجردي (رضوان الله تعالى عليه) للوحدة الاسلامية والتقريب بين المذاهب، و سوف نتعرض له فيما بعد.

وما ذكرته من ان الامام علي(ع) في زمان خلافته اكد اكثر على المرجعية العلمية والمعنوية لاهل بيت النبي (ص) ــ مع ان القضية هي انحراف الخلافة ــ هو نوع من تقدير المصلحة ورعاية وحدة المسلمين، وهو امر له واقعه، وفي نفس الوقت يمكن ان ينطوي على مسألة اخرى، وهي ان القبول بالمواقع المعنوية للائمة يحتاج الى زمان طويل وبعد مراحل من العلم والمعرفة.

لقد طرح الامام علي (ع) في اول وهلة قبل خلافته وبعدها مسألة الخلافة، ولما لم ير في الناس الاستعداد والنضج اللازم لاشاعة سر الولاية بين الناس، عمد بالتدريج بعد ان استقر في الكوفة وتجمع حوله اصحابه الخاصين واصحاب السر الى كشف هذا الامر المكتوم.

اي ان مثل هذه الاحاديث اغلبها قالها في الكوفة وللشيعة ولم يكن هناك من قبل من يعرف هذا السر سوى اشخاص هم بعدد اصابع اليد من مثل سلمان وابي ذر وعمار والمقداد، ولم يكن الآخرون يعرفون هذا السر وان كانوا من مُحبي علي (ع) ومن مؤيديه الساسيين ولم يكن عددهم قليل .

وعلى كل حال فقد كان عدد اصحاب السر قليلون قبل خلافته وكانوا مأمورين بالكتمان.

وقد قال الشاعر "مولانا جلال الدين الرومي" هذا البيت واصفاً حالهم :

هركه را اسرار حق آموختند　　مهر كردند وزبانش دوختند

ومعناه :

من عرف السر بذاك الزمان　　قد أقفل الصدر وخاط اللسان

ويجب الالتفات الى ان الاصحاب القدماء المعدودين لعلي (ع) واصحاب سره الجدد الذين كان عددهم اكثر، لم يكونوا جميعاً بمستوى واحد من العلم والمعرفة ولن يكونوا في المستقبل كذلك.

والروايات ايضاً تشهد بذلك، ويبدو ان رؤية الكبار الماضيين لموقع اهل البيت ومقاماتهم تختلف، وانقل بهذا الخصوص نموذجين لاستاذين كبيرين من اساتذة العصر افتخر انني تتلمذت عليهما.

فالمرحوم آية الله العظمى البروجردي الذي سأنقل تباعاً نظريته في باب حل مشكلة الاختلاف بين الشيعة والسنة في مسألة الخلافة، كان يؤكد على الدوام على المقام العلمي لائمة اهل البيت ــ عليهم السلام ــ في بعد الاحكام، وكان يعتبر حديث الثقلين دليلاً على مرجعية أهل البيت (ع) العلمية دون ان يتحدث عن الابعاد الاخرى او ينكرها.

اما الامام الراحل ــ مؤسس الجمهورية الاسلامية ــ فقد كان في محاضراته واحاديثه

وكتاباته وبشكل دائم ومتواصل يتحدث عن البعد العرفاني لاهل البيت (ع) ويعتبر ان الحرمان الحقيقي هو عدم معرفة تلك المقامات وذلك البعد.

ج)فيما يتعلق بالمسائل المرتبطة بالخلافة نقل عن الامام علي (ع) في كتب التاريخ والاحاديث قضايا كثيرة، ولكن لم يتم في اي وقت تقييمها وفق ميزان ومعيار علمي يتناسب ويتلائم مع هدف واسلوب الامام (ع) في طرح هذه المسألة، وسنجد عندما يتم ايجاد هذا التقييم ان الكثير من هذه الاقوال لا يتناسب مع اسلوب تعامل الامام علي (ع) مع الخلفاء.

ومما تقدم نصل الى هذه النتيجة وهي ان الامام علي (ع) تعامل مع القضية المارة اعلاه مثلما تعامل مع القضايا الاخرى بحكمة ورغبة في الاصلاح، وليس باسلوب العوام، او بروحية ممتلئة بالحسرة او بلغة الانتقام وعدم المسؤولية.

لقد كان الامام علي (ع) وبناء على مسؤوليته الالهية يريد ان يعلن للناس ركناً من اركان الاسلام وهو ركن مصيري للاسلام والمسلمين، وهو حق من الحقوق الالهية الضائعة والمنسية وان يتخلص من جريرة كتمان ذلك الحق الكبير، وبدون ان يلحق الخسارة بالاسلام او ايجاد التفرقة في صفوف المسلمين .

فاذا وضعنا هذا الامر معياراً في تحديد صحة وسقم المنقولات المروية عن الامام علي (ع) في موضوع الخلافة، سنرى ان قسماً مهماً من استنتاجات المحققين في هذا الباب، ومنها فقرات من الكتاب المعروف باسم سليم بن قيس لا تتناسب مع المعيار المذكور، ونحن هنا لسنا بصدد رفض أو قبول هذا الكتاب ، ولكن يجب معرفة ان كبار الرجال امثال الشيخ النجاشي والعلامة الحلي يختلفون في هذا الموضوع ويعتقدون ان تصحيفات حدثت في ذلك الكتاب وحدث زيادة أو نقصان في مطالبه.

ولكن الامر المسلم به هو ان الكتاب كان في متداول ايدي العلماء في اواخر القرن الثالث الهجري، وقد نقل عنه البعض مثل النعماني في كتاب الغيبة، والكليني في الكافي، وعلى كل حال فانني اذا اردت ان اكتب الملاحظات والمعلومات التي امتلكها حول الكتاب المذكور فانها ستكون كتاباً بنفس الحجم .

ان قارىء كتاب سليم بن قيس الهلالي يجد نفسه امام شخص ليس فقط لا يراعي المصالح السياسية والاجتماعية للاسلام والمسلمين، بل يجده يرمي صخور الفرقة وسهام الفناء نحو الاسلام والمسلمين.

كما يجد القارىء نفسه امام متحدث عار عن الحس بالمسؤولية، والحكمة وحب الخير، والاطلاع على وقائع واحداث التاريخ واخيراً فهو شخص لا هدف له سوى اثارة العواطف وتحطيم الطرف المقابل والانتقام من الخصم.

واذا كانت هذه "اسرار آل محمد" كما يقولون فيجب اذا كتمانها وعدم اذاعتها، ولكن بدلاً من انتخاب الامور المعقولة من ذلك الكتاب وكما يقول السيد الرضي في نهج البلاغة [٥٣] ان سبب اختلاف احاديث رسول الله (ص) اخذت من ذلك الكتاب حسب الظاهر ــ فانه في بعض الاحيان ومن اجل ايجاد الفرقة بين الشيعة والسنة، وفي اللحظات الحساسة، يستفاد من ذلك الكتاب.

وسأذكر هنا نموذجين: في عام ١٣٥٢ هـ ذهبت الى لبنان بمهمة علمية موفداً من جامعة مشهد وبقيت هناك حوالي خمسين يوما، وكانت تلك الايام تشهد الحرب بين الفلسطينيين والدولة اللبنانية على اثر المذبحة التي نفذتها اسرائيل ضد ثلاثة من قادتهم في الفندق الذي كانوا يسكنون فيه، وطالت الحرب عدة سنوات حيث حملت لبنان خسائر كبيرة.

وكان على المسلمين في ذلك الوقت ان يحافظوا على وحدتهم من اجل ان يقدموا الحماية والدعم لهؤلاء المظلومين خصوصاً وان موقف بعض المسيحيين كان مشكوكاً فيه.

في مثل هذه الاجواء والاوضاع رأيت في احد الايام رجلاً يقف قريباً من ساحة الشهداء امام الكنيسة الكبيرة للمدينة يضع امامه عربة يدوية مليئة بكتاب سليم بن قيس مطبوع بورق اسمر تجاري كان يبيعه بثمن بخس وقد اشتريت نسخة من ذلك الكتاب. فما معنى توزيع هذا الكتاب في تلك اللحظات الحساسة المسبوقة بالمعارك المستفرقة والعداء القديم بين شيعة لبنان وسنته؟ حتماً ان اي شخص سني أو شيعي عندما يقرأ ذلك

الكتاب سيكون من المستحيل عليه ان يشعر بالحب للآخر أو يقفان في مواجهة العدو. ويشبه ذلك، ما شاهدته في احدى المسيرات المهمة في طهران في ظرف حساس كان يحتاج الى الوحدة حين شاهدت طفلا لم يبلغ الحلم يوزع كتاب سليم بن قيس بطبعة جميلة مرغوبة على الناس بسعر زهيد. نعم ، سيسأل القارىء : ماذا تقول حول الخطبة الشقشقية الواردة في نهج البلاغة والتي رآها ابن ابي الحديد في مصدر يسبق الشريف الرضي بمائتي عام ؟

والجواب على ذلك نقول، انه بصرف النظر عن المصدر والسند، يبدو من كتاب الغارات للثقفي (٥٤) ان من المحتمل ان الامام علي (ع) لم يتحدث بهذه الخطبة لعموم الناس، بل ان الامام (ع) كان يوماً جالساً في مكان ما وكان يتحدث للخواص فجاءه شخص وسلمه رسالة فانشغل الامام بقراءتها ولم يتم حديثه، وقد طلب منه ابن عباس الذي كان حاضراًفي ذلك المكان اتمام الحديث ولكن الامام (ع) لم يفعل .

ويمكن ايراد عدة شواهد على خصوصية هذا الحديث ، واولها ما نقله في كتاب الغارات، والثاني انه لم يكن من الاصول المعمول بها ان تسلم الرسائل الى الامام علي (ع) اثناء الخطبة العامة أو ينشغل هو (ع) اثناء الخطبة بقراءة الرسائل .

والشاهد الآخر هو كيف يكون ابن عباس ابن عم الامام علي (ع) ومن اقرب المقربين اليه ومن اكثر المطلعين على حوادث ووقائع خلافته، حتى ذلك الوقت غير مطلع على الامور التي سمعها من الامام (ع) في ذلك الاجتماع ؟ حتى انه يتحسر على ان لا يكون الامام (ع) قد اكمل حديثه، فاذا كان هذا الامر لا يدل على ضعف الرواية، فهو لا اقل يشهد على ان الإمام (ع) اخفى مثل هذه الاحاسيس حتى عن اقرب المقربين اليه مثل ابن عباس، وانه الآن ولاول مرة وبصورة خاصة ذكر منها شيئاً قليلا، وابن عباس يعبر بـ "الكلام" ولا يقول عنها "خطبة ".

واخيرا فهذا شاهد على خصوصية وسرية ذلك الحديث، وهو ما اجاب به الامام (ع) ابن عباس :

هيهات يابن عباس، تلك شقشقة هدرت ثم قرت .

نعم، انا لا انكر ان في قلب علي (ع) اسراراً لا يرى من المصلحة اعلانها، واذا ما كشف عنها بشكل خصوصي فعلينا ان نتبع المولى (ع) فنحفظ اسراره وان نتجنب افشاء اسراره وما اخفاه هو (ع) عن اقرب اقاربه واصحابه يجب ان لا ننشره في كل مكان وعند العدو والصديق.

ولهذا السبب اؤكد، اننا وبالالتفات الى مثل هذه المطالب المحركة والمثيرة للحساسية التي جاءت في الكتب يجب ان نضع فرقاً بين مواقف الامام علي (ع) وبين مواقف اتباعه، فقد كان (ع) حافظاً للسر ومسيطراً على عواطفه واحاسيسه، ولكن شيعته لم يكونوا كذلك في بعض الاحيان، ولذلك فأنه ليس الشيعي العادي بل في كثير من الاوقات مع الاسف يتجاوز محاضرونا وكتابنا المصلحة وحدود الحكمة حين يضعون القلم وعنان اللسان تحت تأثير الاحاسيس والعواطف.

ان اصحاب الامام (ع) الخاصين في هذا الجانب كانوا يتبعون مولاهم في القول والعمل، وقد تعاملوا مثل ما تعامل هو مع الخلفاء الذين سبقوه سواء في اثناء خلافتهم او بعدها، فقد نصب سلمان الفارسي من قبل الخليفة الثاني والياً على المدائن، وعمار بن ياسر على الكوفة وذهب الآخرون بأمر الخليفة الى ميادين الحرب، وعلي (ع) يمنع الخليفة من الاشتراك في حرب فارس [٥٥] والروم [٥٦] ومن اجل المحافظة على الاسلام، وقبل ذلك يمنع الخليفة الاول من الحضور في حروب الردة، حيث يمكن تأليف كتاب حول هذا الموضوع.

وعلاوة على كل ما تقدم، فاننا غالباً ما نغفل عن قضية تاريخية تتعلق باصحاب علي (ع) وخلافته، فالتصور العام هو ان الامام (ع) وصل الى الخلافة بعنوان الامام المنصوص عليه من قبل رسول الله (ص) ووصوله الى الخلافة هو في الحقيقة احراز للمنصب الالهي الذي فوض اليه في غدير خم.

ولكن التفحص في التاريخ ومطالعة نهج البلاغة، لا يبقى معه شك انه (ع) بعد قتل عثمان واصرار الناس وانتخابه بعنوان الخليفة الرابع جلس على كرسي الخلافة المتزلزل والمضطرب، وان الذين بايعوه "بصرف النظر عن عدد من الافراد بعدد الاصابع من

الاصحاب والانصار الخاصين العارفين بحقه الالهي "كانوا قد بايعوا الخلفاء الذين سبقوه بنفس الرؤية.

وبناء على ذلك، فأن الامام علي (ع) كان من وجهة نظر عموم الناس خليفة مثل الخلفاء السابقين وليس اماماً واجب الطاعة منصوباً من قبل الله، والناس سموا بالشيعة في مقابل التجمعات المعارضة له وخصوصاً اهل الشام ومؤيدي آل أبي سفيان، ولكن ليس الشيعة العارفين لحقه، وهؤلاء بحسابات اليوم يعتبرون سنة فهم يحترمون الخلفاء الذين سبقوه اكثر منه احياناً.

وقد اشار الامام علي (ع) كراراً الى هذه المسألة ولكنه في نفس الوقت راعى احساسات الناس ومشاعرهم وليس هنا في هذه المقالة مجال للتفصيل في هذا الجانب.

والموضوع الآخر الذي يحتاج الى تأليف رسالة أو كتاب منفصل هو ان محبي علي (ع) كانوا على قسمين :

الاكثرية المطلقة والاقلية التي تعد بالاصابع التي اخذت تدريجياً تتسع واصبحت كثيرة في أواخر حياة الامام علي (ع) وفي عصر ائمة اهل البيت (ع).

ولذلك فأن ايراد مثل هذه الاحاديث المهينة للخلفاء والصحابة، امام الملأ هي خلاف مصلحة الاسلام وخلاف سياسة الامام علي(ع) وقد ادى ذلك ايضاً الى تفرق الناس من حولهم، وخصوصاً فيما يتعلق بالخليفة الثاني الذي هو بالحساب البسيط كان سبباً في توسع الاسلام وقدرته وعظمته ، والذي ترك انطباعاً بانه الواقف الى جانب الحق والزاهد والعادل [٥٧]، نعم، الخليفة الثالث كان هكذا قبل وقوع الحوادث المؤسفة، ولكن بعد الاضطرابات والفتنة الكبرى (التي انتهت بقتله) لم يكن يمتلك هذا الموقع عند العموم وقد اختلفت الاحكام حوله وتناقضت، وقد بحثنا ذلك قبل هذا.

د) ان الامام علي (ع) لم يتعامل مع الخلفاء الذين سبقوه في الاجتماعات العامة بمثل هذه الخشونة والاهانة، وحتى في احاديثه مع الصحابة الذين جاءوا بهؤلاء الخلفاء كان يستخدم اللين والاحتياط.

ففي خطبة له (ع) يحتمل انه قالها في بداية خلافته [٥٨] وبعد قتل عثمان، قال [٥٩]:

وقد كانت أمور مضت ملتم فيها ميلة كنتم فيها عندي غير محمودين، ولئن رد عـليكم امركم انكم لسعداء، وما علي الا الجهد، ولو شاء ان اقول لقلت : عفا اللّٰه عما سلف .

ويبدو ان الامام علي (ع) كان يريد ان يعتب على الناس بسبب سلوكهم السابق، ولكنه يمتنع عن قول شيء سوى "عفا اللّٰه عما سلف " ويبدو ايضا ان وقت ايراد الخطبة كانت فيه الخلافة لم تستقر بعد له ولكنها على ابواب الاستقرار ولهذا فأنه (ع) يقول : "لئن رد عليكم أمركم".

هـ) ارجو من المحققين والكتاب مع الاخذ بالنقاط "ح "و"د"، الامور التالية:

اولا: الاحتياط في مقابل النصوص الحادة المنقولة عن الامام علي (ع)و بقية الائمة في الكتب المختلفة وان يقيومها على اساس المعايير التي ذكرتها، وعلى فرض انهم يرونها قطعية فعليهم ان يهتموا بمصالح الاسلام ووحدة المسلمين عند نقلهم لمثل هذه النصوص وان يعملوا بمسؤوليتهم امام اللّٰه سبحانه وتعالى .

ثانيا: ان يطالعوابدقة وتفحص تاريخ الاسلام واحداثه بعد وفاة الرسول الاكرم (ص) الى عهد خلافة الامام علي (ع)، وكذلك حياة الصحابة المعروفين وخدماتهم في هذا المقطع من تاريخ الاسلام وكل ذلك مذكور في كتب التاريخ والتراجم والمعتبرة، وان لا يكتفوا بروايا تنا وكتبنا، وليس من شك من وجوب تقييم ومقارنة كل الوثائق مع بعضها.

ثالثا: ان يهتموا بما ورد عن الائمة (ع) حول الخلفاء وخصوصاً ما ورد عن الامام الصادق (ع) في كتب اهل السنة، سيما وان هذه الاحاديث اذا جمعت فانها ستوضح الكثير من الحقائق، وقد قمت قبل هذا بجمع اكثرها تحت اشراف آية اللّٰه ميانجي وآية اللّٰه روحاني (رحمة اللّٰه عليهما) وقد طبعت او قيد الطبع بقم.

رابعاً: ان يأخذوا بنظر الاعتبار علاقة الائـمة ومـعاشرتهم لابـناء الصـحابة والتـابعين المعروفين وائمة المذاهب المعاصرين لهم، مثل أبي حنيفة، ومالك بن انس والتـي ورد الحديث عنها في المصادر المعتبرة عند اهل السنة، وكذلك الزواج بين عوائل آل النبي (ص) والصحابة.

فمن خلال مجموع هذه المعلومات سوف نفهم ان البغضاء والعداواة في البداية لم تكن

كبيرة الى هذا الحد الذي نشهده في السنوات والقرون اللاحقة التى اخـذت بـالتدريج تتصاعد في الروايات وتصبح مثل النار المتقدة، ولذلك فأن من المناسب واللائق ان يتم تأليف كتاب بهذا الخصوص.

خامساً: مطالعة روايات التقية بدقة، لأن هدف التقية الاساسي هو المحافظة على الوحدة وليس الخوف من الآخرين .

سادساً : لقد قطعت خطوات على صعيد التقريب بين المذاهب التشيع والتسنن من قبل المصلحين والعلماء الكبار في القرن الأخير، وكتبت المقالات القيمة بـهذا الخـصوص يمكن مطالعتها في مجلة "رسالة الاسلام "المطبوعة من قبل "دار التقريب بين المذاهب الاسلامية" في القاهرة ومجلة رسالة التقريب، تحت اشراف "المجمع العالمي للـتقريب بين المذاهب الاسلامية "في طهران، والكتب الصادرة عن هاتين المؤسستين .

وقد قمت بجمع هذه الآراء في كتاب "نداء الوحدة "[٦٠] وهو يشتمل على مجموعات الخطابات التي القيتها قبل صلاة الجمعة في جامعة طهران.

وفي خاتمة هذه المقالة انقل وجهة نظر اثنين من كبار العلماء تتعلق بتقريب الرؤية حول خلافة الامام علي (ع).

الف) يقول المرحوم آية اللّٰه العظمى السيد البروجردي وهو من الحماة الحقيقين لفكرة التقريب ومن مساعدي "دارالتقريب "[٦١]: نحن الشيعة نختلف مع اهل السنة في اساسين مرتطبين باهل البيت (ع)، الاول يتعلق بخلافة الامام علي (ع) واهل بيته، والثاني حول مرجعية اهل البيت العلمية وفي الوقت الحاضر فأن مسألة الخلافة ليست مورداً لحاجة المسلمين، سيما وان الخلافة ليست موجودة الآن حتى نختلف عليها فهي مسألة تاريخية ترتبط بالماضي، ويقول البروجردي في بعض الاحيان : ليس من الضروري الآن ان يفهم الناس من الذي كان خليفة ومن الذي لمْ يكن خليفة، بل ان الذي يحتاجه المسلمون اليوم هو ان يعلموا المصدر الذي يأخذون منه الاحكام، فالقرآن يتفق عليه الجميع، وفي باب السنة ليس هناك اختلاف في اصل حجية سنة الرسول الاكرم، بل الاختلاف في ان اهل السنة يأخذون السنة من طريق الصحابة والشيعة يأخذونها عن طريق اهل البـيت (ع)

ويستندون الى حديث الثقلين المعروف حيث قال النبي (ص) : "اني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّٰه وعترتي" وهذه الرواية وردت بطرق كثيرة من اهل السنة والشيعة، وقد قام المرحوم الشيخ قوام الدين قمي وشنوي وبأشارة من المرحوم آية اللّٰه السيد البروجردي بجمعها برسالة تم طبعها من قبل "دار التقريب "في مصر، وفي طهران مذيلة من قبلي، من قبل "المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية ".

وقد قام المرحوم آية اللّٰه البروجردي في مقدمته لكتاب جامع الاحاديث الذي تم تأليفه تحت اشرافه بشرح هذا الموضوع بصورة مفصلة .

وخلاصة رأي آية اللّٰه البروجردي في هذا المجال هو تفكيك الخلافة عن المرجعية العلمية، حيث يجب على الشيعة ان يؤكدوا على الموضوع الثاني أي مرجعية اهل البيت (ع) العلمية وان يسكتوا عن الموضوع الاول.

ب) اما آية اللّٰه العلامة السمناني وهو من العلماء والمحققين الكبار في عصرنا، ففي رسالته الموسعة التي كتبها الى مجلة "رسالة الاسلام "والتي نشرت في العدد الثاني عشر من المجلة، ونشرت في كتاب الوحدة الاسلامية او التقريب بين المذاهب وطبعهاالدكتور عبدالكريم بي آزار شيرازي [٦٢] تحت عنوان (منهاج علمي للتقريب الى اخواننا المسلمين) فأنه يضع فرقاً بين الامامة والخلافة [٦٣]، بمعنى ان الامامة منصب الهي خاص بعلي (ع) والائمة (ع)، وان الخلافة هي رئاسة وادارة امور المسلمين قام بها خلفاء المسلمين وليس بين الامامة والخلافة تضاد فلم يدع الخلفاء في أي وقت هذا المنصب الالهي ولم يصروا على انكاره، كما ان علي (ع) لم ينكر خلافة الخلفاء بل تعاون معهم ، واساساً فأن شرط امامة الامام ليس التصدي للخلافة ولا يمنع من صحة خلافة الآخرين، وحديث المرحوم العلامة السمناني طويل وقد قمت في كتاب "نداء الوحدة" (ص ٣٧٥ ـ ٢٨٠)بمقارنة هذه النظرية مع نظرية المرحوم آية اللّٰه البروجردي، ومن المسلم به ان كلا النظريتين لهاتين الشخصيتين الكبريتين تمثلان ابتكاراً لا سابقة له.

وآخر دعوانا ان الحمد للّٰه رب العالمين، وسلام على المرسلين.*

الهوامش والمصادر

١. القرآن الكريم،سورة الانبياء، الآية ٩٢، وجاءت آية اخرى بنفس المعنى (وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون) "المؤمنون / ٥٢ "ولكن بعض المفسرين يعتقدون بأن خطاب هاتين الآيتين عام بسبب ان الحديث الذي يسبقهما كان حول اتباع كل الانبياء، وانه لا يختص بالامة الاسلامية.

٢. القرآن الكريم : آل عمران / ١١.

٣. القرآن الكريم: البقرة / ١٤٣.

٤. ابن هشام، عبدالملك بن هشام ١٣٤٦هـ.ق. سيرة النبي، القاهرة، دار احياء التراث العربي، ج ٢ ، ص ١١٥.

٥. القرآن الكريم: آل عمران / ١٠٣.

٦. القرآن الكريم: الشورى / ١٣.

٧. القرآن الكريم: آل عمران / ١٠٥.

٨. الشريف الرضي، محمد بن الحسين، ١٣٧٨هـق نهج البلاغة، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية صبحي الصالح، بيروت ـ "الخطبة ١٦ ص ٥٧ ".

٩. نفس المصدر : "الخطبة ٢٤٠ ص ٣٥٨ ".

١٠. نفس المصدر: ص ٧٥٦.

١١. نفس المصدر : "الخطبة ٥٥ "، ص ٥٢.

١٢. نفس المصدر: "الخطبة ٩٣ " ص ٨٨.

١٣. نفس المصدر : "الخطبة ٩٣ " ص ١٣٧.

١٤. نفس المصدر : "الخطبة ١٠٢ " ص ١٤٨.

١٥. نفس المصدر: ص ٢١٠.

١٦. نفس المصدر : ص ٢٢٠.

١٧. نفس المصدر: "الخطبة ٩٦ " ص ١٤١.

١٨. نفس المصدر: "الخطبة ٢٣١ "ص ٣٥٣.

١٩. نفس المصدر : "الخطبة ١ " ص ٤٤.

٢٠. نفس المصدر : "الحكمة ٥٠ "ص ٤٤٧.

٢١. نفس المصدر: "الحكمة ١٢" ص ٤٧٠.

٢٢. نفس المصدر:"الحكمة ١٠ " ص ٤٧٠.

٢٣. نفس المصدر:"الرسالة ٣١ "ص ٤٠٤.

٢٤. نفس المصدر:"الحكمة ٦٥ "ص ٤٧٩.

٢٥. نفس المصدر:"الحكمة ١١١ "ص ٥٠٦.

٢٦. نفس المصدر:"الحكمة ٢١١ "ص ٤٩٥.

٢٧. نفس المصدر:"الرسالة ٣١ ".

٢٨. نفس المصدر:"الحكمة ٢٣٩ "ص ٥٣٩.

٢٩. نفس المصدر:"الحكمة ١٤١ ".

٣٠. محمد،اويس كريم، ١٣٧٤، هـ. ق، المعجم الموضوعي لنهج البلاغة، مشهد مؤسسة التحقيقات الاسلامية ص ٣٧٠ــ ٣٧٢.

٣١. نهج البلاغة : "الحكمة ٢١٥" ص ٥٠٧.

٣٢. نفس المصدر:"الحكمة ١٨٣ " ص ٥٠٢.

٣٣. نفس المصدر:"الحكمة ٣٢٧ " ص ٥٣١.

٣٤. نفس المصدر:"الرسالة ٤٧ ".

٣٥. نفس المصدر:"الخطبة ١٧٦ " ٢٢٥.

٣٦. نفس المصدر:"الخطبة ١٧٦ "ص ٢٥٣.

٣٧. نفس المصدر:"الرسالة ٥٨ ".

٣٨. نفس المصدر:"الخطبة ١٨ "ص ٦٠.

٣٩. نفس المصدر:"الخطبة ١٢٧ "ص ١٨٤.

٤٠. نفس المصدر:"الخطبة ١٤٧ "ص ٢٠٥.

٤١. نفس المصدر:"الخطبة ٢٧ "ص ٧٠.

٤٢. الصعيدي : عبدالمتعال : ذي الحجة ١٣٧٠هـ "علي بن ابي طالب والتقريب بين المذاهب " مجلة رسالة الاسلام، ج ٣، العدد ١٢، ص ٤٣٤" من منشورات المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية ".

٤٣. يرى الاستاذالصعيدي هنا ان الامام علي يستحق الخلافة فقط بسبب قرابته من الرسول (ص) ولا يقول شيئا عن نص رسول الله (ص) عليه، وهذا هو الفرق بين رؤيته والرؤية الشيعية، ولم يذكر حتى مصدره، ولعله ايضا في بعض الموارد لا يتفق مع رأي الشيعة.

٤٤. المطهري، مرتضى: ١٣٥٤، نظرة في نهج البلاغة، قم، صدرا، ص ١٧٨.

٤٥. نهج البلاغة :"الخطبة ٧٤" ص ١٠٢.

٤٦. نفس المصدر: "الرسالة ٦٢ "ص ٤٥١.

٤٧. نظرة في نهج البلاغة، ص ١٧٩.

٤٨. نهج البلاغة، الخطبة ٣٣.

٤٩. نفس المصدر: ص ١٨١.

٥٠. نهج البلاغة : ص ٥٢.

٥١. ومنهم المرحوم الاستاذ محمد تقي شريعتي في كتاب باسم اهل البيت في نهج البلاغة.

٥٢. نهج البلاغة : ٧٣٣.

٥٣. نفس المصدر: "الخطبة ٣١٠ " ص ٣٢٥.

٥٤. هذا الكتاب من تأليف ابو اسحاق ابراهيم بن محمد تقي الكوفي الاصفهاني (توفي ٢٨٢هـ .ق)بتصحيح وتعليق مير جلال الدين حسيني المعروف بـ "المحدث"طبع عام ١٣٥٤هـ. ش من قبل لجنة التراث الوطني، ويعتبر من المصادر المهمة لخطب الامام علي (ع) وتاريخ حياته .

٥٥. نهج البلاغة :"الكلام ١٤٦ "ص ٣٠٢.

٥٦. نفس المصدر :"الخطبة ١٣٤ "ص ١٩٢.

٥٧. صاحب كتاب الغارات "ص ٣٠٧ " ينقل عن الامام علي (ع) قوله حول عمر "فسمعنا واطعنا وناصحنا وتولى الامر وكان مرضي السيرة ميمون النقيبة ".

٥٨. نهج البلاغة: "الخطبة ١٧٨ "ص ٢٥١.

٥٩. نفس المصدر: ص ٢٥٧.

٦٠. واعظ زاده خراساني: محمد، مرداد ١٣٧٤ هـ. ش، نداء الوحدة، مجموعة محاضرات في صلاة الجمعة بطهران، طهران / المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية ص ٢٥١.

٦١. نفس المصدر : ص ٢٧٥ و ٢٨٠.

٦٢. بي آزار شيرازي، عبدالكريم "اهتمام " ١٤٢١هـ. ق، الوحدة الاسلامية او التقريب بين المذاهب / طهران المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، ص ٢١٦.

٦٣. نهج البلاغة، ص ٣٣٢ (خطبة الامام علي (ع) حول الخلافة)، ص ٧٣٦، خطبة الامام علي (ع) حول الامامة.

ترجمة محمد هادي ـ صحح المقالة وراجعها : قيس آل قيس

١٤ / ١١/ ١٣٨٠

أفكار في الوحدة

مقدمة لقراءة في نصوص نهج البلاغة

هاني فحص

ليس هناك من داع للخوف من اختلاف العلماء والفقهاء وأهل الأديان وأهل الدين الواحد أو المذهب الواحد.. الخ، لأن استقطاب الوحدة قائم، وما علينا إلا أن نواكبه بعقلانية وواقعية،لا تصل إلىٰ حد اعتبار الخلاف أو الاختلاف عائقاً،فنقع في مثالية مستحيلة كالتي وقعت فيها أفكار وفلسفات ومناهج مادية (كالماركسية مثلاً) عندما حاولت مستحيلاً فانحلّت وتاحللت . بينما كانت الرؤية القرآنية لمسألة الوحدة علىٰ قاعدة الاختلاف وموضوعيته أشد ملاءمة للتكوين والإمكان والطموح، تقول الآية الكريمة:

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم...﴾.

بهذه المعيارية (التقوىٰ) أفسحت الآية مجالاً للتنافس علىٰ الخير تتجلىٰ فيه وعليه ومن خلاله حالات التوحيد التي تتقدم وتتراجع وتبقى هاجساً دائماً وسعياً مفتوحاً علىٰ الإنسان والمكان والزمان والوجدان والوعي والتاريخ، ولا يلتزم القرآن ولا يلزم بمفهوم حصري للوحدة

﴿إنَّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾.

وفي آية أخرىٰ

﴿فاتقون﴾.

وعندما يقرأ المفسرون هذه الآية يتفقون علىٰ أنَّ، وإنْ كانت المعيار والمناط هو الإنسان وإن المقصود هو النوع الإنساني، إذن فالوحدة لا تتحيز، تأخذ حيّزاً فلكي تهيء

نفسها بمقتضىٰ نظام قيم وأفكار وغايات محددة وفسيحة،لتنطلق نحو مداها الإنساني الأرحب.

واللافت أن الترتيب القرآني لعناصر الآيتين اللتين جعلتا الربوبية وما تقتضيه من عبادة هادفة (للواحد) مترتبة أو تابعة في السياق، للمؤكد واقعياً من وحدة البشر أو النوع الإنساني. ما اقتضى توسيع مفهوم الأمة والخروج به عن الحصر والاختيار المحكوم بنزوع محدود،عرقي أو لوني أو جغرافي .. الخ، من دون أن يعني ذلك أي لون من ألوان الدعوة للاستقالة من الهموم الخاصة أو الأشد خصوصية في سبيل الهم العام، بل هي دعوة دائمة إلىٰ اكتشاف النسق التواصلي بين الخاص والعام، بين الخاص الشخصي والعام الغيري في المطلق، بين الخاص الوطني والعام القومي، بين الخاص الوطني والقومي والعام الإسلامي، وبين هذا العام وبين العام الإنساني إلىٰ آخر المكونات العامة والخاصة، التي تحكمها نسبيّة العموم والخصوص وتنأى بها عن الإطلاق حذراً من إغلاقها وإغلاق الذات علىٰ الذات، ما يضعها علىٰ شفا التنصل من أواصرها ووشائجها العامة ويضعها علىٰ طريق النبذ والالغاء والعنف.

كأننا مدعوون إلىٰ الكف عن القبول التسامحي، الاستعلائي الهروبي بالتعدد.. والأقسىٰ منه هو القبول الاستيعابي الذي يعكس قدراً عالياً من الغرور يتمثل شفقة في غير محلها، علىٰ المختلف أياًكان ... ومدعون إلىٰ رفع التعدد أطروحة حضارية تجعل من الوحدة شرطاً غائياً للتعدد، ومن التعدد شرطاً واقعياً عملياً للوحدة، وشرطاً موضوعياً للحركة والإبداع، من هنانحمل الوحدة شعاراً وهماً ومشروعاً علىٰ حذر من الوقوع في ظلم النفس والغير معاً.

بالتأكيد بأننا لا نحاول محالاً، أو نستهل صعباً، فالوحدة شأن صعب، في المطلق، وهي شأن أصعب بلحاظ المعطيات والشروط الملموسة فماذا نفعل ؟

إن هذا الكلام يبقى وجيهاً لو كانت الوحدة التي نتكلم عنها وندعو إليها مشروعاً ينتظم الشعوب الإسلامية كلها من طنجة إلىٰ جاكرتا، في وحدة سياسية واحدة، دولة تحت ظل خليفة أو رئيس !.

إن ذلك يعني في المنظور كما يعني في المدىٰ البعيد، الجاءً واكراهاً وقسراً يحتاج إلىٰ عقود من العنف ويؤسس لعنف يمتد مدىٰ الحياة، إلا أن تعود الأمور بانقلاب أو انفصال أو انشقاق عنيف، إلىٰ نصابها في التجزئة، أي إلىٰ منحدر أشد انحداراً تصبح فيه التجزئة أشد عمقاً وبعداً ورسوخاً (ما انتهت إليه حال المنظومة الاشتراكية عموماً والاتحاد السوفياتي خصوصاً) فتتضاعف وتتفاقم خسائر وتبعات العنف المعاد تأسيسه، إلىٰ حد إغراء شعوب أو أقوام أو دول أو أحلاف طامعة بالعدوان الشامل الساحق الذي يدوم طويلاً ويكلف الخلاص منه غالياً.

حروب الفرنجة

ونستذكر الحروب الصليبية مثلاً، حروب الفرنجة حسب التزام المؤرخين العرب، هؤلاء الفرنجة قدموا بكل عصبيتهم وخلافاتهم وصراعاتهم إلىٰ هذا المشرق فاحتلوه واضطهدوه وعبثوا بأفكاره وقيمه وتراثه ومدخراته وأحلامه وتطلعاته، قدموا مختلفين علىٰ حالة من الخلاف أشد عندما (اختلف السلاطين) حكام التجزئة (كما في تلخيص ابن الأثير لأهم الأسباب المؤاتية الموجبة).

وظلوا مقيمين ما بقيت التجزئة مقيمة مستشرية، يرسخونها ويثمرونها ويفتحونها علىٰ أمداء أخرىٰ، قتالاً داخلياً واقتتالاً وغيلة وغدراً وبيعاً وشراء وفتناً بين الأمراء والحكام ليوسعوا نفوذهم ويعمقوه، حتىٰ أتيح لعماد الدين زنكي أن يؤسس حالة وحدوية بهدف التحرير لم يلبث ولده نورالدين محمود أن أنجزها ووضعها علىٰ طريق التحرير الفعلي ليأتي من بعده صلاح الدين الأيوبي قاطفاً ثمرتها السائغة في حطين والقدس، التي لم يلبث بعد أن حررها أن توفي تاركاً مقاليد الأمور في أيدي أعضاء أسرته، الذين ورثوا من نسب ومن غير تعب أو نصب، فعادوا إلىٰ سيرة الحكام في التجزئة والصراعات الداخلية والتنازل للعدو من أجل التفرغ للقريب، أو ابن عم، حتىٰ أعيدت القدس علىٰ يد الكامل إلىٰ قبضة المحتل.

ونستذكر في المناسبة أن التجزئة عادت لتستشري في مرحلة متقدمة من مراحل

الاحتلال الفرنجي، إلىٰ حد أنها أغرت التتار بالزحف في عرض الفرنجة، ومرة أخرىٰ كان الرد هو الوحدة التي أمنت الشرط الموضوعي للتحرير ليعود التحرير فيشكل شرطاً موضوعياً لها، من هنا أتىٰ الظاهر بيبرس والمنصور بن قلاوون والأشرف خليل بن قلاوون الذي في عهده ورعايته استكملت عملية التحرير في عكا.. وكانت معركة دمياط والمنصورة في مصر رافعة جهادية وحدوية.

الفقهاء والحكام

وفي حالات التجزئة والهزيمة والتراجع والخيانة والتواطؤ مع الخارج ضد الداخل، كما في حالات الوحدة والتفاهم والتقدم، كان لا بد من غطاء فكري وفقهي يبرز ويسوّغ علىٰ المعهود من علاقة التكامل بين الحاكم الصالح والعالم الصالح والتطواطؤ بين الحاكم الفاسد والعالم التابع.

ولم تخل بعض الفترات من تميز بعض الحكام عمن حولهم من علماء وأدباء وفقهاء ومستشارين، كان الحاكم أحياناً يضع سلم أولوياته ويعطي الأولوية لسلامة الوجود والأصل، فيتنازل عن الخاص من أجل أن يحفظ العام، مثل ما أثر عن المعتمد بن عباد حاكم قرطبة عندما أصبحت جيوش الفرنجة علىٰ وشك الهجوم عليها بعد احتلال طليطلة (٨٧٤ هجرية) فجمع مستشاريه من أهل الفقه والرأي وانتهىٰ إلىٰ ضرورة الاستعانة بيوسف بن تاشفين زعيم المرابطين فحذره المستشارون من أنه إذا انتصر يوسف ونجح في رد غائلة الفرنجة فسوف يصبح راعياً لإبله، فأجابهم بأنه خير له أن يصبح راعياً لإبل ابن تاشفين من أن يصبح راعياً لخنازير الفونسو زعيم الفرنجة وقائدهم (الأذفوش).

ويؤثر أن نورالدين محمود أرسل في لحظة حرجة من تاريخ حروب الفرنجة إلىٰ أمراء الأطراف بالتعبئة والتجهيز لرد حملات الفرنجة في شمال فلسطين، ولكن أمراء الأطراف كانوا قد أخلدوا إلىٰ الدعة علىٰ طمأنينة إلىٰ حالهم، واستعدادهم إذا ما داهمهم خطر أن يمالئوا المغير ويواطئوه كما حدث أكثر من مرة، ولكن نورالدين عاد فالتف عليهم فأرسل الرسائل بالشكوى والتحريض إلىٰ العلماء والفقهاء والزهاد وشيوخ الزوايا والطرق من

أهل العرفان وأهل الصلاح من إمارات الأطراف فقرئت رسائله في المساجد والزوايا والتكايا علىٰ الملأ فثارت ثائرة الناس ونادوا بالويل والثبور وعظائم الأمور واضطروا أمراءهم إلىٰ التعبئة والتجهيز.

ولو لم تكن حالة الوحدة راسخة ومنتشرة ومستندة إلىٰ قناعة الحاكم والمحكوم واستقلالية العلماء وذوي الرأي والشأن ووحدويتهم وتوحيدهم لكان المآل مختلفاً، لما بكىٰ أهل حلب وهم يستمعون إلىٰ شكوىٰ نورالدين وترجموا حزنهم غضباً علىٰ أمرائهم.

في هذا المجال يطل الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين علىٰ إشكالية علاقة الفقيه بالحاكم بعد انقضاء عهد الراشدين، وبدء الدولة تشكيل جهازها الديني، فيقسم الفقهاء في هذا الصدد إلىٰ ثلاث أقسام.

القسم الأول الأعظم آثر أن يبقى علىٰ علاقة بالأمة بعيداً عن الارتباط بالدولة مِمَّا عرّض كثيراً منهم للاضطهاد والتنكيل.

والقسم الثاني تواصل مع الدولة علىٰ قاعدة حفظ النظام العام، فساعدها في الحق وتبرأ منها في الباطل.

والقسم الثالث: يسمون فقهاء السلاطين وهم الذين استحوذت عليهم الدولة فأصبحوا الجزء الوحيد من نجاح الدولة في مشروع وضع اليد علىٰ الشرع وعلىٰ الإسلام.

ان هذا يحدد لنا مساحتين للعمل الوحدوي أو ثلاثاً.

المساحة الأولىٰ: هي مساحة الحكام، والثانية: هي مساحة الأمة والجمهور، والمساحة الثالثة الأشد اتصالاً بشأننا كأهل علم ودين هي مساحتنا، مساحة العلماء والفقهاء لأن انقسام المجتمع لأسباب داخلة أو خارجية وانقسام الحكم يبقى أقل خطراً إذا ما ظلت قيم الوحدة وأفكارها محفوظة في نصابها العلمي والفقهي وحركة الفقه والفقهاء.

موقع الوحدة في نظام الاعتقاد

إذن تصبح الوحدة عقيدة، أو يجب أن تكون كذلك لدىٰ المسلم بمقتضىٰ ظواهر الكتاب

والسنة المعروفة.

إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء، وهذا لا يخرج الوحدة من التاريخ، يعني أنها في فترات الأزمات والتراجع، وحتىٰ في فترات التقدم قد تتراجع كمشروع سياسي، ولكنها لا تترك موقعها في نظام الاعتقاد، لأن ذلك من شأنه أن يمس عقيدة التوحيد والإيمان بسوء واهتزاز، ويبقى المسلم ملزماً بقيمها وأفكارها وتجسيدها في الحدود المتاحة مع الطموح الدائم إلىٰ الارتقاء، أما إذا أردنا أن نرفع المعتقد الفكري والديني والسياسي الوحدوي في لحظة التراجع من المستوىٰ الاعتقادي إلىٰ المستوىٰ العملي والحركي، فأنها تصبح أقرب إلىٰ الافتعال الذي يقيمها تعسفاً وقسراً علىٰ معطيات غير مؤاتية مما ينتهي إلىٰ انتكاسات كبرىٰ.

لقد كان المخلصون في سورية ومصر وحولهما يرتاحون إلىٰ الإرادة الوحدوية والاتجاه الوحدوي لدىٰ الحكام والمحكومين.

ووافق الجميع علىٰ الوحدة الاندماجية حذراً من أن تكون المعارضة مساً بالفكرة الأساس، لكن النتيجة سرعان ما تحولت إلىٰ السلب فأثر النمو التاريخي في إطار المستعمر وآليات الاستعمار، أي النمو غير المتكافىء و غير المتناظر في تسريع حدوث الانفصال الحاد الذي دفع الجميع ثمنه.

إذن انتجت التجزئة وتنتج خصوصيات ومعطيات وعوائق لا بد من أخذها بعين الاعتبار والالتفاف عليها او التعامل معها علىٰ أساس وحدوي، يفترض أنه يبقى راسخاً مهماً تكن الظروف وإن كان التعبير عنه يتقدم ويتراجع تبعاً للظروف والأحداث.

وإذن فالوحدة، أي وحدة بين أي طرفين تستدعي أنظمتهما الفكرية أو الدينية أو الاجتماعية أو السياسية، وحدة بينهما إذا قامت في أوآنها وعلىٰ غير مثالها المتاح والممكن والواقعي والقابل للحياة، تسهم في اتساع نطاق التجزئة حتىٰ تطال المتحدات الأكثر تقارباً وحينئذ يصبح الدين علىٰ خطر أَنْ يصبحَ أدياناً والمذاهب والطائفة طوائف والوطن أوطاناً.

هنا نصل إلىٰ تحديد المطروح والمنشود والمقصود بالوحدة الإسلامية، أي وحدة

المسلمين، علىٰ اختلاف مذاهبهم وقومياتهم وأوطانهم، مع دفع سريع للوهم أو التوهم بإمكان أن نغامر الآن حتىٰ أجل غير محدد بطرح مشروع سياسي يطابق بين الدولة والأمة الإسلامية من دون مصادرة علىٰ من يطرحون هذا الأمر أو يعملون له، وإن كانوا قد اصبحوا قلة، لأن الحركة الإسلامية (التنظيمات والمظمات) أصبحت من الواقعية بحيث صارت ترىٰ إلىٰ أيِّ مدىٰ أصبح هذا الموضوع مؤجلاً، وأن كان بعضها قد استغرق في مذهبيته مرة وفي أقليميته مرة بحيث صار أمر الوحدة بهذا المعنىٰ مستبعداً وأخذ التبشير بالمذهب لدىٰ أهل المذهب الآخر ينتشر وكأن المذهب الآخر علىٰ النقيض من الدين والعياذ بالله !!!.

إن الوحدة المطروحة هي وحدة تطال المستوىٰ المعرفي والمنهجي العام، والذي يجد في الفقه أوسع مجال لتجسده وتجسيده، لأن الفقه يطل علىٰ يوميات الناس وسلوكياتهم وعلائقهم وعوائدهم.

المنهج الإيماني يتسع لحركة متنوعة

فهل في النية أن تكون هذه الوحدة مفتوحة علىٰ الاحتمال الأبعد، وهل يمكن توحيد المذاهب الفقهية بكل تفرعاتها وشعابها في مذهب واحد؟ علماً بأن هناك إسلاماً، علىٰ مستوى النص التأسيسي، كتاباً وسنة، وهناك تراث إنساني تكون عليهما وعلىٰ وقائع الحياة والتاريخ، وهما لا غيرهما مصدرا الرؤيا والمعرفة ولكن هناك خلافاً في المباني، وفي التعاطي معهما وفي طريق تحصيل المعرفة منهما، علىٰ المشترك من المباني داخل الفرقة الواحدة أو المذهب الواحد تتفرع مبان تصل من الاختلاف داخل المذهب الواحد إلىٰ مستوىٰ نوعي يعادل ويضاهي الخلاف بين مذهب ومذهب آخر، الحنفي والحنبلي مثلاً، والأصولية والأخبارية لدىٰ الشيعة الأمامية مثلاً آخر، وهكذا.

إذن تتعدد المعرفة، من دون المعروف واقعاً، ولكنه يتعدد اعتباراً أي بلحاظ تعدد العارف، الذي يقترب مرة ويبتعد مرة ويلتقي مع غيره هنا ويفترق هناك ثم يعود ليلتقي هناك ويفترق هنا.

والفقهاء عندما يعرفون الاجتهاد، المسلك المعروف في النظر في الأدلة وإعادة قراءتها وعرضها على المستجد من عناوين وحاجات ومعارف واعتبارات، يقولون بأنه بذلك الجهد من أجل تحصيل العلم أو الظن بالحكم الشرعي، وحتى العلم هنا المقصود به هو الظن المعتبر شرعاً، من دون استعباد لليقين .

إذن مساحة التنوع والاختلاف على قاعدة الظن الذي قد يتعدد بتعدد المجتهدين واسعة، وكذلك اليقين، لأن اليقين هو يقيني ويقينك ويقينه .

فما هي المعرفة الملزمة؟

إن الملزم هو النهج الإيماني والتوحيدي العام، الذي يتسع لحركة متنوعة فيه و عليه ومنه وإليه، تكون مصدر غني وتجديد وحوار مستمر.

إذن فالمتوخى والمرتجى والمنسجم والمطلوب والممكن والواجب هو التقارب والاقتراب والتقريب الدائم، وهو حقل منزوع الأوهام والألغام التي لا تلبث أن تتفجر في حقولها الصعبة (الوحدة بالمعنى المطلق) لتعود العلاقة والحوار إلى انتكاس وارتكاس تترتب عليها مظالم كثيرة ليس الدم الذي جرى في تاريخنا أقلها، وسيبقى هذا الدم (الهابيلي) صارخاً في البرية لا تشربه الأرض لأنها تضيق به، لأنه عقم ودليل عقم وضيق،

والأرض واسعة فسيحة ومظنة خصب دائم تلائم بين مختلف البذور التي تنبت فيها وتطلع منها صنوان وغير صنوان يلذ الناظر ويمعن في الروح حياة وإحياء لمقتضيات الألفة وأسباب الجمال والانسجام الذي قد تفسده الوحدة إذا لم ترسُ على نصاب وأطروحة ميسورة لا يتركها العقلاء والمؤمنون سعياً وراء المعسور أو المستحيل إلا في لحظة ليست هي في كل حال شأن الإنسان بل هي شأن الرحمن الذي خلقنا مختلفين ليكون ذلك تجلياً لحكمة من حكمته.. وإلا فقد كان من المقدر أن يسود الثبات القاتل واليباس والجفاف مقدمة لنهاية محتومة.. أو أنها ليست نهاية، ولكنه يتعطل إذا ما رصدته نهايات توضع له ولا يحتملها على هذا النهج الطامح غير المتعسف، تضييق المسافات وتتسع المساحات وتتحرر من قيودها وأوابدها والموانع المصطنعة فيما بينها، فيما تبقى

الفواصل الضرورية للحيوية والإبداع قائمة عاملة علىٰ الوصل، إلا عندما يراها الرائي بعين واحدة علىٰ حرف واحد، ويوظفها في توسيع الفواصل وتحويلها إلىٰ موانع وعوائق.

إن قراءة متأنية لأفكار وسلوك الأئمة ﴿عليهم السلام﴾ من أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ والتابعين لهم والسائرين علىٰ نهجهم، تكشف إلىٰ أي حد كان توحيدهم الصافي والمطلق متجسداً في سلوكهم الوحدوي الذي يعطي الأولوية المطلقة لسلامة ووحدة الأمة في جسدها وروحها وعقيدتها، و من هنا جاء ما يمكن اعتباره تنازلاً أو إعفاء عن استحقاقاتهم في سبيل الهدف الأعظم، أي الوحدة باعتبارها الشرط الأول لقوة الأمة واستمرارها علىٰ وظيفتها في الشهادة للحق والحقيقة.

وقراءة وحدوية لنهج البلاغة، تبين لنا كم كان الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ رائداً وكان نصه تأسيساً لهذا السلوك التوحيدي الوحدوي، والعبرة في سلوك الإمام ونصوصه واضحة ساطعة، خاصة أن التفجرات والألغام التجزيئية، التي كادت شظاياها أن تصيب الناظم أو النصاب العقائدي للأمة، قد ذرت قرنها في عهده وتحت عينيه، ولكن كان ممعناً في توحيده، فلم تؤثر التصدعات والإرتجاجات الكبرىٰ في إرادته وتفانيه في ترجيح الوحدة علىٰ التجزئة، وصيانة أسس التوحيد من عوادي الشرك التجزيئي، وقد أرسىٰ لنا منهجاً فيصلاً في رؤيته النسبية للحق الخاص علىٰ صفحة الحق العام أو إن كان حقه الخاص هو استحقاقه واستحقاق الأمة معه، أي أن حقه الخاص لم يكن منفصلاً واقعاً عن حق الأمة والإسلام، لكن الضرورة كانت تقضي بالتجاوز لأن هذه المسألة لم تكن قد رقيت في وعي الأمة إلىٰ المستوىٰ المطلوب، فكان لابد من مراعاة مستوىٰ وعي الأمة ولو علىٰ مضض، وهكذا قالها صريحة فاضلة:

«لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلّا عليَّ إلا خاصة».

علىٰ هذه الرؤية ندعو إلىٰ قراءة نصوص الوحدة والتجزئة في نهج البلاغة، باعتبارها نصوصاً كاشفة عن عقيدة توحيدية وحدوية وباعتبارها مقدمات أو ثمرات سلوك يرقى إلىٰ مستوىٰ النص في عمقه وَوضوحه وأحكامه.

من يقرأ نصوص نهج البلاغة يلمس قدراً كبيراً من العناء والمعاناة من الفتنة والتجزئة التي يرىٰ الإمام علي بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ أن ليس من سبب لها سوى الاختلال في عقيدة التوحيد أو سطحيتها و عدم عمقها، وعندما نتابع النصوص، التي تدور حول الوحدة والتجزئة نكتشف كثرة هذه النصوص، مما يؤكد أن المعاناة كانت شديدة وأن الإمام علي يرىٰ أنها القضية الفصل وأنه دون الوحدة وتلافي الفتنة سيكون الخطر المحتم علىٰ التوحيد والشريعة والعدل الذي كان هاجسه يسكنه ويتغلل فيه عمقاً جعله يراه مستحيلاً دون الوحدة .

نحاول أن نقرأ هذه النصوص الآن لنستعيد بها نفسنا الوحدوي وإذا ما كان هناك ما يوحدنا وكنا في غياب عنه وفي انجراف وراء شعارات التجزئة وأفعال التجزئيين، ونحن نعلم ما يريدون وإلىٰ ماذا يسعون فإن التاريخ ونصوص التاريخ وقراءتها بصفاء ومسؤولية وشعور بالأزمة، من شأنه أن يعيد لنا وعينا الوحدوي ويحفظ لنا عقيدتنا التوحيدية التي لا يمكن أن تسلم عندما يصيبها رشاش الدم ويجرفها سيله ويدخل في جذعها سوس الحقد والضغينة والجهالة، ويبقىٰ حب الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وأهل بيته ﴿عليهم السلام﴾ مساحة حب و رقعة خضراء وافرة الظلال، تصفو في ظلالها ضمائرنا وتستيقظ إرادة الوحدة فينا نرويها بالحب ونحصلها بالشرع .

النصوص

١. «وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة وأهواء منتشرة وطرائق متشتتة، بين مشبه للّٰهِ بخلقه،

أو ملحد في اسمه، أو مشير إلىٰ غيره فهداهم به من الضلالة وأنقذهم بمكانه من الجهالة» (الخطبة رقم ١)، كأنه اعتبر الضلالة هي التفرق والأهواء والتشتت الآتية من الجهالة من تشبيه أو إلحاد أو شرك، فكان الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ الداعي إلىٰ عبادة الواحد، داعياً إلىٰ الوحدة في الوقت نفسه ورمزاً لها، توحدت بدعوته وحوله الأمة وحملت مشروع التوحيد والوحدة لسائر الأمم من أهل الأرض الذين يشكون من المظاهر نفسها

والأعماق الإنفصالية والتجزيئية نفسها.

٢. بعد انصرافه من صفين :

«والناس في فتن انجذم فيها حبل الدين، وتزعزعت سواري اليقين، واختلف النجر وتشتت الأمر، وضاق المخرج و عمي المصدر، فالهدىٰ خامل والعمي شامل، وعصي الرحمان ونُصر الشيطان وخذل الإيمان... اطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله، بهم سارت اعلامه وقام لواؤه، في فتن داستهم باخفافها ووطئتهم بأظلافها وقامت علىٰ سنابكها، فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون، في خير دار و شر جيران، نومهم سهود وكحلهم دموع» (الخطبة رقم ٢). في عنوان الخطبة أنها في حال الناس قبل البعثة ولدىٰ انصراف الإمام مع صحبه من صفين، وكونها أنها في حال الناس قبل البعثة ولدىٰ انصراف الإمام مع صحبه من صفين، وكونها في صفين جعلها يختلط فيها الماضي بالحاضر.. فهي عودة بأذهان الناس إلىٰ ماض بعيد ليطابقوا بينه وبين حاضر يجري بين أيديهم وتجري فيه الفتنة وتعود إلىٰ حالها الأولىٰ تحت لواء الشيطان ـ التجزئة ـ بعيداً عن الرحمن وراية الرحمان راية الوحدة، وفي الخطبة نفسها يعود فيؤكد أن رموز الدين وقيادته هم معقد الوحدة بما يحملون من فكر و عقيدة وبما يمثلون ويجسدون من سلوك ومنهج يقول :

« هم موضع سره وملجأ أمره .. حيال دينه ، بهم أقام انحناء ظهره ..الخ ».

٣. لما بويع بالمدينة

«ألا وأن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه ﷺ والّذي بعثه بالحق لَتُبَلْبَلُنَّ بلبلة ولتُغربلُنَّ غربلة ولَتُسَاطُنَّ سوط القدر حتىٰ يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم وليسبقن سابقون كانوا قصرّوا وليُقصرن سباقون كانوا سبقوا».(الخطبة رقم ١٦).

إذن هنا ملامح وعلامات فتنة قائمة والحق حق تختلف مظاهره فالوحدة الحقّ، التوحيد الحقّ، في التاريخ واحد، والتجزئة الفتنة الباطل، والشرك الباطل موصول بما كان قبل البعثة ومفضٍ إلىٰ ما هو أدهىٰ ، إلىٰ امتحان لأهل الحق في ثباتهم علىٰ حقهم و عدم اختلاطهم بأهل الباطل وتميزهم عنهم .

٤. «بعثه والناس ضلال في حيرة وحاطبون في فتنة، استهوتهم الأهواء واستزلتهم الكبرياء واستخفتهم الجاهلية الجهلاء « (الخطبة رقم ٩٥). عودة إلىٰ التذكير سلباً»

الضلال والحيرة والفتنة والأهواء والجهل، التجزئة والشرك المتصلان اتصال السبب بالمسبب، تلك كانت حال الأمم جميعاً وكان هذا الأمر في الروم والفرس أظهر وقد تحولت حضارتهما عن طريق التوحيد إلىٰ طريق الانفصال ، فشاعت التجزئة وانفصمت العرىٰ وعم الظلم ، وكان ذلك أيضاً حال العرب الذين لم يكن لديهم ضمان من عقيدة يمنع عنهم مخاطر التجزئة حتىٰ جاء الرسول والرسالة ضمانة وحصانة

«دفن اللّٰه به الضغائن وأطفأ به النوائر، ألف به اخواناً وفرق به أقراناً» (الخطبة رقم ٩٦).

قد يحلم البعض أو يتوهم أن الوحدة لا كلفة فيها ولا ثمن بلىٰ لها ثمن وبعض من ثمنها لون من ألوان الفرقة، الانفصال، انفصال الوحدوي عن التجزيئي باتجاه الكل، انفصال عن مجموعة أو أفراد منفصلين للالتحام بالكل بالجماعة علىٰ أساس من العقيدة عقيدة الوحدة التي تتسع لتشمل وتعم. يقول علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ في الدعاء الثاني من أدعية الصحيفة السجادية عن الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ «وكاشف في الدعاء إليك حامته (أي أظهر العداوة في الدعوة إليك لخاصته وعشيرته) وحارب في رضاك أسرته وقطع في إحياء دينك رحمه وأقصىٰ الأدنين علىٰ جحودهم، وقرّب الأقصين علىٰ استجابتهم لك، ووالى فيك الأبعدين وعادى فيك الأقربين»، ويقول في الدعاء الرابع عمن استجابوا للدعوة المحمدية والرسالة الإلهية» وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته وانتصروا به.. والذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته وانتفت منهم القرابات إذ سكنوا في ظل قرابته». كان الرسول الداعي إلىٰ عبادة الواحد، داعياً إلىٰ الوحدة في الوقت نفسه .

٥. «فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأحلام مجتمعة والأهواء مؤتلفة والقلوب معتدلة والأيدي مترادفة والسيوف متناصرة والبصائر نافذة والعزائم واحدة، ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين.. فانظروا إلىٰ ما صاروا إليه في آخر أمورهم، حين وقعت الفرقة، وتشتت الألفة واختلفت الكلمة والأفئدة وتشعّبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلع اللّٰه عنهم

لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين» (الخطبة القاصعة رقم ١٩٢). عودة إلىٰ الاعتبار بالماضي الذي يتكرر كثيراً وتتكرر معه المبادىء الأساسية والقوانين العامة.

٦. في الخطبة نفسها يسمىٰ الأمم فيقول:

«فاعتبروا بحال ولد اسماعيل وبني اسحاق وبني إسرائيل ﴿عليهم السلام﴾ فما أشد اعتدال الأحوال وأقرب اشتباه الأمثال.. تأملوا أمرهم في حال تشتتهم وتفرقهم، ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم يختازونهم عن ريف الآفاق وبحر العراق وخضرة الدنيا إلىٰ منابت الشيح ومهاوي الريح ونكد المعاش، فتركوهم عالة مساكين إخوان دبر ووبر إلىٰ أذل الأمم داراً وأجدبهم قراراً لا يأوون إلىٰ جباع دعوة يعتصمون بها ولا إلىٰ ظل أُلفة يعتمدون علىٰ عزها، فالأحوال مضطربة والأيدي مختلفة والكثرة متفرقة». إذن وطبقاً للرؤية القرآنية هناك سنن تاريخية تتكرر إذا ما تكررت ظروفها أو مشابهات ظروفها في فكر الأمة وأخلاقها وسلوكها وعلاقاتها الداخلية فمع الإيمان يكون الإنسجام والألفة والوحدة والعزة والغنى وإذا ما تزعزع هذا الإيمان فقدت الأمة تماسكها وتحولت إلىٰ أداة طيعة في يد من يستقوي عليها، قليل من الفرقة، وتهاون يسير في القيم الأصلية، يفتح ثغرة في جسم الأمة تدلف الفتنة منها إلىٰ الداخل لمزيد من التجزئة والشتات والضعف الذي يبقىٰ سائراً مستمراً مستهلكاً لطاقات الأُمة وكرامتها إلىٰ أن يحدث الانعطاف بالتوجه نحو الواحد والدخول في سلوكيات الوحدة وفكرها، حينئذ تعود الأمة إلىٰ الاتساق ويمسي المزيد من الوحدة ينتج نصراً علىٰ الأوضاع في الداخل والخارج، والمزيد من النصر يفضي إلىٰ مزيد من الوحدة ويعود المجد والعزة.

٧. «وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة والآثام بكم معصوبة» (عن العرب قبل البعثة من الخطبة رقم ٢٦)، يعود إلىٰ الأسس، الأصنام، والانفصال، ليست قيماً فكرية سلبية معلقة في الهواء، بل لها آثارها الموضوعية وانعكاسها المادي علىٰ الأرض، منها يأتي سفك الدماء وتقطيع الأرحام، وطالما أن الأمة مشدودة إليها فالآثام التي تتبع منها تبقى معصوبة بالأمة مشدودة بها واليها متغلغلة حتىٰ يأتي من يفكّ

لحمتها وما يفك لحمتها، حتىٰ يأتي الرسول والرسالة.

٨. «أنبتت بُسراً اطلع اليمن، وأني والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم علىٰ باطلهم وتفرقكم عن حقكم، وبمعصيتكم إمامكم بالحق، وطاعتهم إمامهم بالباطل، وبأدائهم الأمانة إلىٰ صاحبهم وخيانتكم (الخطبة رقم ٢٥ بعد اعتداءات وجرائم بُسر بن أَرطأة في اليمن). قد يتعب أهل الحق من متابعة حقهم، قد يتسرب إلىٰ صفوفهم الوهن فيتحولون إلىٰ مثبطين عن متابعة الحق، هذا ما عاناه من أصحابه ولكنه لم يبدل قناعته بالحق، ولو بدلها لهان الباطل الذي قد تواتيه الفرصة من الدنيا في غفلة من الأمة أو جهل، فيقلب القيم ويصور الحق باطلاً ويحافظ علىٰ إبقاء أتباعه جهالاً كيما يصفوا له الجو، ويثير أضغاناً وضغائن وعصبيات قبليّة وجغرافية وعنصرية تعمي أهل الحق عن حقهم وترغب أهل الباطل بباطلهم، وكل ذلك مؤلم للإمام، لا عن يأس، بل لأن التهاون في طلب الحق يستلزم حدوث مظالم هو مكلف بالسعي للحد منها أو منعها، والأمة مكلفة ولكنها لا تنهض، ويعلن الإمام ألمه يقول:

٩. «فيا عجباً! عجبا ـ والله ـ يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم علىٰ باطلهم وتفرقكم عن حقكم» (خطبة رقم ٢٩ بعد غارة الضحاك علىٰ الحجيج).

١٠. «أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصم الصلاب وفعلكم يُطمع فيكم الأعداء» (خطبة رقم ٢٩ بعد غارة الضحاك علىٰ الحجيج). إذن فالفتنة تستلزم ازدواجية في شخصية الفرد والأمة بين القول والفعل حيث تفتقد عوامل الوحدة ومظاهرها.. وتبلغ معاناته درجة حادة من الشعور بالخيبة فيخاطب أصحابه الذين يفرون من حقهم في كل اتجاه يقول:

١١. «وما أنتم إلا كأبل ضلّ رعاتها فكلما جمعت من جانب نتشرت من آخر (خطبة رقم ٣٤).

١٢. لكنه الراعي وهو لم يضل فما الذي حصل؟ يقول:

«إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله، ويتولىٰ عليها رجال رجالا علىٰ غير دين الله، فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف علىٰ المرتابين، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن

المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان علىٰ أوليائه وينجو (الذين سبقت لهم من اللّه الحسنى)»

(خطبة رقم ٥٠). إذن فالجاهلية فكراً وسلوكاً وعلاقات، هي مناخ الفتنة وتربتها وشمسها وهواؤها ورواؤها.. ولكن علىٰ الأرض ما الذي يحصل حتىٰ تضل الجموع وتعمىٰ؟ قد يكون مع الباطل بعض حق، ولكنه ضئيل وذريعة ليس إلا... وأن عدم المبطل حقاً ابتدع ما يشبه الحق بالتلفيق معتمداً علىٰ الجهل والتجهيل لتتطلي شبهته علىٰ الأمة، وفي هذه الحال تتفك العرىٰ ويصبح القائد الهادي موضع تهمة، ويصبح كل واحد من الأمة قائد نفسه،

يقول:

١٣. «فيا عجباً! وما لي لا أعجب من خطل هذه الفرق علىٰ اختلاف حججها في دينها! لا يقتصون أثر نبي ولا يقتدون بعمل وصي ولا يؤمنون بغيب ولا يعفون عن عيب.. مفزعهم في المعضلات إلىٰ أنفسهم وتعويلهم في المهمات علىٰ آرائهم، كأن كل أمرىء منهم إمام نفسه» (خطبة رقم ٨٨). إذا تعددت القيادة من دون مسوغ أو حاجة، فإن المنشأ في ذلك هو ضعف الإحساس بالحق والباطل، إذن يصبح هذا باطل يقاتل أو يصارع باطلاً هناك بعدد القيادات و علىٰ حساب الأمة وحقها...ولكن ألا من سعى إلىٰ الوحدة؟

لم يقصر ﴿عليه السلام﴾ في سعيه ودفعه باللين والشدة لذا نراه يقول محرضاً:

١٤.«أيها الناس، شُقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة، أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح» (الخطبة رقم ٥).

ولكن اين هي الجادة الموصلة؟ يقول:

١٥. «اليمينُ مضلة والشمال مضلة والطريق الوسطىٰ هي الجادة، عليها باقي الكتاب وآثار النبوة، ومنها السنة.. وأصلحوا ذات بينكم» (خطبة رقم ١٦).

والوسط في تعبير الإمام ليس هو نقطة التوسط بين الحق والباطل، بل هو الحق إذا ما تصارع باطلان مشوبان بالحق أو شبهتان مشابهتان للحق.

١٦. ويقدم منهجاً نموذجياً وموقفاً مسؤولاً يبتعد به عن الوقوع في سلوك التجزئة طالما

أن العدل محفوظ وحافظ للوحدة حتىٰ لو كان علىٰ حسابه الشخصي، إذ ليس له حساب شخصي في المحصلة، إذن فالوحدة والعدل بدونه أو معه، المهم أن تبقى القيم وتحفظ مصلحة الأمة يقول:

«والله لأسلمنَّ ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا عليَّ خاصةً» (خطبة رقم ٧٤ لما عزموا على بيعة عثمان).

١٧. وما هو معيار الوحدة؟ الكثرة؟ يقول:

«إنه لا غناء في كثرتكم مع قلة اجتماع قلوبكم» (خطبة ١١٩). إذن فالوحدة تنبع من الداخل، والخارج مظهرها، وقد يكون مظهراً خداعاً، مظهراً لحالة من التجزئة المضمرة أو الكامنة، ولكن هل هذا يعني أن الكثرة مرفوضة؟..

لابل هي مطلوبة ولا شروط عليها، ولا شروط علىٰ الوحدة، لأنها شرط نفسها، ولا يمكن تحصيل الاتفاق علىٰ باطل إلا لوقت يسير، بينما الاتفاق علىٰ الحق أيسر وأدوم.. ومن ينفصل يتحمل وزر الانفصال يقول:

١٨. «وألزموا السواد الأعظم فإن يد الله مع الجماعة وإياكم والفرقة فإن الشاذ من الناس للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب» (كلام خاطب به الخوارج رقم ١٨). إذن فالخارج علىٰ الجماعة المنفصل يسقط في يد الأعداء.

١٩. وإذا ما انتهكت الوحدة ولم تنفع الموعظة؟ ولأنه مؤمن بالوحدة معتقد بأنها الضمانة، ضمانة الاستقامة والمجد في الدنيا والرضا في الآخرة فإنه علىٰ استعداد لفرض الوحدة فرضا، يقول:

«ولكني اضرب بالمقبل إلىٰ الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً» (خطبة رقم ٦).

٢٠. ولكن استعمال القوة مشروط بعدم انعكاسه تفرقة علىٰ الأمة يقول:

«أن هؤلاء قد تمالأوا علىٰ سخط إماراتي، وسأصبر ما لم أخف علىٰ جماعتكم، فإنهم أن تمموا علىٰ فيالة (ضعف) هذا الرأي انقطع نظام المسلمين» (خطبة رقم ١٦٩ عند مسير

أصحاب الجمل إلىٰ البصرة). إذن هناك حدود أيضاً للصبر، حدود عدم الإسهام في تشتيت الأمة وتغليب الباطل.

٢١. وفي مجال التنفيذ ماذا فعل ﴿عليه السلام﴾ مع المشاغبين الانفصاليين؟ يقول:

«ألا وقد أمرني الله بقتال أهل البغي والنكث والفساد في الأرض، فأما الناكثون فقد قاتلت، وأما القاسطون فقد جاهدت، وأما المارقة فقد دوخت، وأما شيطان الردهة فقد كفيته بصعقة سمعت لها وجبة قلبه ورجة صدره، وبقيت بقية من أهل الغيء، ولئن إذن الله للكرة عليهم لأديلن منهم إلا ما يتشذر في أطراف البلاد تشذراً» (من القاصعة رقم ١٩٢). قاتلهم قتالاً دفاعياً بعدما ابتدأوه بالقتال.

٢٢. ولكن هل الحرب للحرب؟ أم هناك مخرجاً؟ بلىٰ هناك مخرج لأن قلب الإمام القائد يبقى مفتوحاً لمن يشذ حتىٰ يعود، يكتب إلىٰ بعض أمراء جيشه منحازاً للوحدة مغلباً لها علىٰ غيرها« فإن عادوا إلىٰ ظل الطاعة فذاك الذي نحب، وأن توافقت الأمور بالقوم إلىٰ الشقاق والعصيان فانهد بما أطاعك إلىٰ من عصاك، واستغن بمن انقاد عمن تقاعس عنك، فإن المتكاره مغيبه خير من مشهده وقعوده أغنى من نهوضه» (كتاب رقم ٤) إذن فالوحدة والقتال للشقاق، والمقاتل من أجل الوحدة يجب أن تكون الوحدة عقيدته يذب عنها بكل قوته و عزمه، والملاحظ هنا أن المطلوب استعادتهم إلىٰ ظل الدولة والتوحد تحت سقفها وتحت السقف العقيدي العام، دون اشتراط أن يعودوا عن قناعاتهم الخاصة.

٢٣. ويبطل أعذار معاوية بموقف منهجي يلغي البعد الشخصي منه لكي يحجه، يقول في كتاب له إلىٰ معاوية:

«أنه بايعني القوم الذين بايعوا ابا بكر و عمر و عثمان علىٰ ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورىٰ للمهاجرين والأنصار فإن اجتمعوا علىٰ رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضىٰ فإن خرج عن أمورهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلىٰ ما خرج منه، فإن أبىٰ قاتلوه علىٰ اتباعه غير سبيل المومنين وولاه الله ما تولى» (كتاب رقم ٦).

٢٤. وإن كانت القلة إلىٰ جانب الحق فما العمل وما المقياس؟ يقول:

«أيها الناس لا تستوحشوا طريق الحق وإن قل سالكوه.. وإنما يجمع الناس الرضى والسخط، وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضى؟ (خطبة رقم ٣٢). إذن إن لم تتوحد الأمة علىٰ الحق وتفرقت فأنها تكون قد اجتمعت علىٰ الباطل وتنال جزاءها مجتمعة والحق هو المقياس، مقياس الرجال ومقياس الكميات، هو الكيف الذي يعطي للكم وروحه وهويته.

٢٥. يقاتل الانفصاليين ولكنه يصر علىٰ إبقاء الوحدويين علىٰ أخلاقهم الوحدوية و علىٰ سعة صدورهم تجاه الآخرين فربما عادوا.. ولا يجوز للوحدوي أن يتخلق بأخلاق التجزيئي ولا بد من التمايز «إني أكره أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتهم حالهم، كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم واصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالتهم، حتىٰ يعرف الحق من جهله» (خطبة رقم ٢٠٦، عندما سمع أصحابه يسبون أهل الشام في حرب صفين).

السلطة والجماهير

٢٦. مناط الوحدة في منظوره ـ منظور الإسلام ـ يتسجد في كتابه إلىٰ الأشتر عندما ولاه مصر يقول:

«وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة وأن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة.. وإنما عمادالدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء، العامة من الأمة، فليكن صغوك اليهم وميلك معهم» (كتاب رقم ٥٣).. إذن هنا مفصل الوحدة العامة، فهي ساحة العدل ودليله، دون اجحاف بالخاصة ولكن دون تمييز لها لأنها تستثمر التمييز لمنع العدل وتأسيس التجزئة. غير أن الأمة ليست متطابقة لا أفراد ولا مجموعات، هناك تمايزات وظيفية علىٰ الأقل، في الموقع وفي العمل، لا يمنع التجانس، فكيف تقوم الوحدة في الداخل إذن مع التمايزات؟ أنه ﴿عليه السلام﴾ لا يلغي التمايزات بل، علىٰ أساس الإسلام، يحسبها ويوحد بينها بالإسلام ويوظفها من أجل الإنسان. يقول في العهد نفسه إلىٰ الأشتر:«واعلم أن

الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنىٰ لبعضها عن بعض فمنها جنود الله...» (الكتاب نفسه)، إلىٰ آخر الطبقات ويوصي ﴿عليه السلام﴾ بالعلاقة بهذه الطبقات بما يحفظ توحدها مع الأمة ويختم بالقول:

«وأن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية وأنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم...»

إذن سلامة الصدور هي المعيار الثابت.. وإلىٰ أين يصل أفق هذه الوحدة المطلوبة المرغوبة؟ يقول للأشتر:

«ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان، إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق» (الكتاب نفسه)، إلغاء وإبطال لمعايير التجزئة وإيقاف للمسؤول علىٰ ثوابت الوحدة وتوسيع مداها لتشمل غير المسلم باعتباره في عهدة المسلم وتتثلم الوحدة إن لم تشمله بمفهومها العام ويختل العدل إن لم يكن مطبقاً عليه، يقول:

٢٧. في كتاب له إلىٰ أبي الأسود بن قحطبة صاحب خبر حلوان:

«أما بعد فإن الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيراً من العدل، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء، فإنه ليس في الجور عوض عن العدل» (كتاب رقم ٥٩). إذن لأن الأمة واحدة ولا فرق بين أفرادها إلا بالتقوىٰ التي يثيب عليها الله... ولأن الحاكم يجب أن يكون حارس الوحدة، فإن عليه التسوية والمساواة والعدل لأنه بذلك يحرسُ الوحدة.

٢٨. في كتاب له إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري حول قضية التحكيم والحكمين يجلو قناعته صريحة واضحة مبطلاً أرجاف المرجفين وادعاء المدعين يقول:

«وليس رجل أحرص علىٰ جماعة أمة محمد﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وإلفتها مني، أبتغي بذلك حسن الثواب» (كتاب رقم ٧٨).

٢٩. وهو يعلم سبب الخلاف، يعيده إلىٰ أصله، إلىٰ جذوره، إلىٰ الوحدة علىٰ أساس الاستقامة والعدل، يقول جوابا لمعاوية:

«أما بعد فانا كنا نحن وأنتم علىٰ ما ذكرت من الألفة والجماعة ففرق بيننا وبينكم أمس واليوم أنا استقمنا وفتنتم» (كتاب رقم ٤٠)، إذن فالوحدة ولكن ليس في المطلق.. علىٰ

أساس الإيمان والاستقامة.. والإ فإن الوحدة التي تقوم علىٰ الانحراف هي التجزئة والانفصال، والصف المعادى لها هو صف الوحدة والاتصال، طالما أن العدد ليس مقياساً. وحدة؟ بلىٰ.. ولكن تركيباً في التكوين، تكوين الإنسان، لا يمكن إلغاؤه، يتشكل علىٰ أساسه لون من الوحدة المحدودة التي أن تكرست رسخت التجزئة، فالإسلام يحث علىٰ الرحم و عدم قطيعتها ويعطي للرحم حقاً بصرف النظر عن الإسلام، فإن أضيف الإسلام أضيف لحق الرحم حق آخر..

صحيح ولكن القرآن يضع معياراً محدداً..» وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين» إذن تذهب نحوهم لتأتي بهم إلىٰ الحق وقد لا يأتون فلا تقطع معهم ولا تذهب نحوهم لتأتي بهم إلىٰ الحق وقد لا يأتون فلا تقطع معهم ولا تذهب إليهم لتبقىٰ معهم علىٰ الباطل..إن ذلك هو البر الحقيقي. فالتوحيد مع الأهل بالدم بمقتضى التكوين أمر لا مفر منه، والأفضل أن يكون رشيداً ويستهدي بالحق، وإلا فإن عصبية الدم وحدها قد تتحول إلىٰ شرّ يطال المتعصب ومن يتعصب له، و لا يهذبها ولا يهديها إلا الإيمان يقول:

٣٠. «أيها الناس أنه لا يستغني الرجل، وإن كان ذا مال، عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم، وهم أعظم الناس حيطة من ورائه وألمهم لشعثة وأعطفهم عليه عند نازلة إذا نزلت به، ولسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يرثه غيره، ألا لا يعدلنَّ أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة أن يسدها بالذي لا يزيده أن امسكه ولا ينقصه أن أهلكه، ومن يقبض يده عن عشيرته فإنما تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه أيد كثيرة، ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودة» (خطبة رقم ٢٣).

٣١. ولكنه يعود ليضع الأمور في نصابها الهادي الرشيد يقول:

«فإن كان لابد من العصبية، فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الأمثال ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب ويعاسيب القبائل بالأخلاق الرغيبة والاحلام العظيمة والأخطار الجليلة والآثار المحمودة فتعصبوا لخلال الحمد من الحفظ للجوار والوفاء بالذمام والطاعة للبر والمعصية للكبر والأخذ بالفضل

والكف عن البغي والإنصاف للخلق» (من الخطبة القاصعة رقم ١٩٢).

إذن.. الانصاف للخلق... وإذن.. ليست تلك الوحدة المطلوبة في علاقات الرحم عصبية.. أنها الحب في الله والحفاظ على الرباط واستثماره في الاتجاه الإيماني الإيجابي في اتجاه الهداية والاستقامة.. ولنوح ﴿عليه السلام﴾ حكاية تلقن فيها درساً بليغاً» يا نوح انه ليس من أهلك وصدق الله العظيم.

ينضجُ القرآن الكريم رؤية ربانية للوحدة والتجزئة وسنن التاريخ ويضع الثوابت العقيدية والتشريعية للوحدة باعتبارها تجسيداً للتوحيد على الأرض وفي حركة المجتمع والتاريخ، ويتلخص تاريخ الإسلام بأنه تاريخ الوحدة تأسيساً وترسيخاً ونضالاً ضد التجزئة على هدي التوحيد... ويأتي كلام الإمام علي تجسيداً للمعاناة، معاناة الوحدة والتجزئة على الأرض من قبل إمام موحد متشبع بقيم الوحدة، في مواجهة عودة الانفصال إلى الساحة قوياً بما أيقظ من قيم جائرة.. يعاني الإمام ويبقى يقينه يقيناً وحدوياً لأنه يقين توحيدي... ونعاني نحن اليوم.... وما أحوجنا إلى جلاء يقيننا التوحيدي لنجلو به يقيننا الوحدوي فنرى من خلاله عوامل التجزئة ولا نرهبها ولا نيأس. وما أجدرنا أن نقرأ القرآن والتاريخ والنصوص الصادقة بعين وحدوية وبقلب مفتوح على احتمالات الوحدة ومصاعبها.

المقالات الأخرىٰ

في مشروع الدولة عند الإمام أمير المؤمنين ﴿عليه السلام﴾

(إشكالية الغدير نموذجاً)

الشيخ جعفر المهاجر

سوريا

دائماً كانت أعمال إمام المتقين سلام الله عليه وأقواله وأفعاله مَلْهماً للكُتاب وأهل الفكر و اهل الأدب و خصوصاً الشعراء علىٰ اختلاف اتجاهاتهم و مشاربهم و أهوائهم. اعرفُ ، (وأظن أن منكم من يعرف) كُتاباً وشعراء لم يكونوا يوماً شيئاً مذكوراً ، ثم إذا بهم دون سبب واضح يكتبون أو ينظمون في الإمام فيأتون بالأصيل المتين أو البديع الجميل ، ممّا طار صيته وذاع وانتشر في الآفاق. والغريب أن عامّة هذا القبيل من الكُتاب والشعراء عقم من بعدُ فلم يأت بشيء يُذكَر به. فكأنه وكأن إبداعه كأن مرصوداً للإمام لا شريك له فيه.

حين نريد أن نبحث عن علّة لهذه الظاهرة غير العاديّة، فلا بدّ لنا من أن نقرر أنها، أعني العلّة، هي عند الإمام، لأنه موضوعها دائماً على نحو الحصر. وإنني أعتقد أن أولئك الكُتاب والشعراء إنما أبدعوا في الإمام خاصة لا لسبب إلا لأنهم كانوا في الحقيقة يكتبون آمالهم وأحلامهم هم أنفسهم. كانوا يعبرون عن توقعهم الشديد الىٰ عالم اكثر عدالة وأكثر نبلاً وأكثر سموّاً ، فوجدوا عند الإمام كل ما يتوقون إليه. إنهم إذ يكتبون، يتمثلون الأنبل والأزهى والأسمىٰ والأكمل والأجمل ، أي كل ما يفقدونه في عالمهم الواقعي. ومن هنا أحسنوا وأجادوا فيما أتونا به عن الإمام دون سواه. وما ذلك إلا لأن طاقة الإنسان ، أي

إنسان، على الإبداع تكون أفضل كلما كان موضوع الإبداع جزءاً من ذاتيته، يعني حين ينحاز إلىٰ وجدانه الأصيل وفطرته السليمة. الإبداع يأتي أصفىٰ ما يكون حين ينبع من أعماق النفس. وضلّ من قال: أعذبه أكذبه.

إن تدبّر (نهج البلاغة) يطرح جُملة من الأسئلة المُقلقة، التي قد تتحدّىٰ ثوابت مُسلّمة ليست محلاً للنقاش. ممّا يُلزمنا بأن نتابع التأمل كيما نصِل إلىٰ نتيجة منطقيّة. حيث نحصل على التناسق والإنسجام بين حصيلة التدبُّر وبين الثوابت المُسلمة. وتلك غاية تستحق أن نغامر فكريّاً من أجل الوصول إليها.

أَرجو أَنْ تسمحوا لي بأنْ أَنطلق من ملاحظة أراها ضروريّة، هي أن الإمام ﴿عليه السلام﴾ بنى فترة حكمه القصيرة والمُضطربة نمطاً من العلاقة بينه وبين الناس من حوله، ممّا يُسمّى اليوم في لغة السياسة بـ«الشَّفَّافيّة السياسيّة». مبدأها حقّ الجمهور في الاطلاع علىٰ القواعد والأسباب التي جعلت الحاكم يتخذ في هذا الموقف أو ذلك قراره السياسي المُعيّن. وارتكس هذا الحق في أذهان الناس، فطفقوا إذا لم يكتفوا بما بادر إليه الإمام من شرح وتعليل يستزيدونه بالمساءلة. فكان يُجيب على تساؤلاتهم بما تطيب به نفوسهم ويوضح ما التبس أمره عليهم. حتىٰ حين تأتي المساءلة علىٰ نحو الانكار. ومن ذلك مثلاً جوابه لمن قال له: «نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها، فلم ندر أي الأمرين أرشد» (نهج البلاغة: ١ / ٢٢٩ ـ ٣٠).

و (نهج البلاغة) مشحون بهذه البيانات من الصنفين، ما كان منها بمبادرة من الإمام، وما كان منها جواباً. و مجموع ذلك يصلح أن يكون شرحاً وافياً لكل أعمال ومواقف الإمام السياسيّة، والحقيقة أن هذه الخطة تطوّر جديد أدخله الإمام علي الحياة السياسيّة وخصوصاً علىٰ نمط العلاقة بين الحاكم والرعيّة في الإسلام. لسنا نعرفه، كسياسة ملزمة مُتّبعة، مِنْ قَبْلِهِ. ومن هنا فإنه باب للبحث جليل، و أنا مُنكبّ عليه. وأسعى بعون المولىٰ سبحانه لأن يصدر في كتاب برأسه.

ملاحظة ثانية أراها لا تقل ضرورة. هي أن الإمام لم يبن منذ السقيفة عن التنويه بأحقيته المُطلقة للخلافة من بعد رسول الله صلوات الله عليه وآله مباشرة. تارةً على نحو

الحق الخاص، الذي يدور علىٰ ياء المتكلم. من مثل: « وإن محلّي منها ـ يعني الخلافة ـ محلّ القطب من الرّحىٰ» (النهج: ١ / ٣٩) و «ما زلت مدفوعاً عن حقي» (نفسه: ١ / ٤٩). وغالباً بعنوان « أهل البيت » (أيضاً: ١ / ١٨٤ و ١٩٠و ٢١٣ و ٢٢٨، مثلاً). ومن هذه ما أتى على نحو الكناية. من مثل قوله وقد أخطر بما جرىٰ في السقيفة، واحتجاج قريش بأنهم «شجرة رسول اللّٰه»، فقال: «احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة» (أيضاً: ١ / ١٢٢). وذلك بوصفهم المتمسك من بعد رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ و بالمنظور السياسي من الخلافة دون غيرهم. بالنسبة للإمام فإنه لا فرق عمليّاً بين الأطروحيّن. لكن فائدة الثانية، بالإضافة إلىٰ أنها تؤكد حقَّه الشخصي في الخلافة، أنها تؤسّس قاعدة أشمل هي استمرار لنهج قرآني وخطة نبويّة.

إن أحد أكثر الأسئلة التي يطرحها تدبُّر (نهج البلاغة) إثارة للقلق الفكري هو: لماذا أعرض الإمام ﴿عليه السلام﴾، في سجاله علىٰ حقه في الخلافة، عن الإحتجاج بما له من بيعة ناجزة في أعناق المسلمين؟ و غني عن البيان أنني أعني بذلك بيعة يوم الغدير. الآن تبدو ضرورة الملاحظتين اللتين قدمنا بهما. فإذا كان الإمام قد اعتمد ما استعرنا له من لغة السياسة إسم (الشَّفَّافيّة السياسيّة)، وأنه لم ين عن المجادلة عن حقه في الخلافة مباشرة بعد خاتم الرسل صلوات اللّٰه عليه وآله، أليس غريباً أن تكون بيعة يوم الغدير الغائب الأكبر عن هذين النهجيين؟؟

أسجّل هنا أنه لا توجد، بقدر ما أعلم، مُعالجة شيعيّة لهذه الإشكاليّة. أمّا عند غيرنا فقد أُستخدمت هذه الملاحظة، وليس السؤال، للتوصّل إلىٰ القول: إن الولاية التي فرضها الرسول للإمام في ذلك اليوم ثابتة مبدئياً، ولكنها ولاية معنويّة، وليست ولاية سياسيّة فعلية، تؤسّس له الحق في السُّلطة. بدليل أنها لو كانت كذلك لكان أولىٰ الناس بالاحتجاج بها هو صاحب الحق نفسه. وهذا كلام في غاية السُّخف، لأنه يتجاهل كافة ملابسات الواقعة، وهي عند أهل البحث والنظر جزء من دلالة النص، ويحصر اهتمامه بموقف الإمام من بعد. وهذا قد يكون، بل هو بالتأكيد، ذو علاقة بالأحداث الجسام التي علقت منذ السقيفة. ولا ريب أن ما دفع إلىٰ هذه الفذلكة ليس إلا العجز عن إنكار أصل الواقعة

بسبب ثبوت تواترها، بالإضافة إلىٰ الإرتجال الذي يبحث عن أي جواب يتناسب والأفكار المُسبّقة لدى قائلها، مهما يكن واهياً. وليس هذا مقام الُمجادلة علىٰ هذه المسألة ، ولكننا لفائدة البحث نقول بسرعة: إن ملابسات الواقعة، ابتداء من الأمر الربّاني المصحوب بالوعيد، وانتهاء بعمل الرسول الأكرم علىٰ تبليغه لأكبر عدد من المسلمين وتوثيقه بالبيعة، لدليل قاطع علىٰ أن البُغية لم تكن مُجرد ولاية معنويّة لا مُحصلة عمليّة لها. لكن ، بالعودة إلىٰ عمود البحث نقول : إن هذا النتيجة المؤكدة تزيد السؤال الأساسي إلحاحاً. فلماذا ، لماذا؟؟

يبقىٰ أن نقول كلمة حول المنهج الملائم لمعالجة الإشكالية التي يطرحها السؤال. فنقول : إن السبيل هو فقط في دراسة وتحليل أقوال الإمام ذات العلاقة بالموضوع من درجة أو أخرىٰ. ذلك أن السؤال يتجه مباشرة إلىٰ سريرته. وكلام الأنام هو مفتاح سرائرهم.

إن النص الوحيد الذي يستعرض فيه الإمام خياراته بعد أن ظهر نكول الأمّة عن التزامها السياسي أمام نبيّها، نجده في إحدىٰ أشهر خُطبه، تلك المعروفة باسم «**الشّقْشقِيّة**». ومن المعلوم أن هذه الخُطبة ترجع إلىٰ أيام «الكوفة». أي إلىٰ ما بعد زُهاء ربع القرن من الأحداث التي تتناوله، إبتداءً من يوم السقيفة. ومن أهمّ ما فيها ، بالنسبة لما نعالجه، قوله ﴿عليه السلام﴾ : « وطفقتُ أرتأي بينَ أنْ أصُولَ بيدٍ جَدّاءَ، أوْ أصبرَ علىٰ طخيّةٍ عمياءَ، يهرَمُ فيها الكبيرُ، ويشيبُ فيها الصغيرُ ، ويكدَحُ فيها مؤمنٌ حتّىٰ يلقىٰ ربَّهُ « أي أنه كان بين خيارين : إما إشعال حرب ، وإما الصبر علىٰ وضع مُظلم سيستمرّ إلىٰ ما شاء اللّٰه. تكون غاية سعي المؤمن فيه لقاء ربه، لأن ذلك وحده طريق الخلاص ممّا هو فيه. ثم يتابع:

«فرأيتُ الصبْرَ علَىٰ هَاتَا أحْجَىٰ » (النهج : ١ / ٣٩ ـ ٤٠).

أحُسّ من لحن كلام سيّد البلغاء أنه فيما قاله كان يستعرض خيارات مبدئية. إذ الكلام مُوجّه إلىٰ السامعين علىٰ سبيل بيان دقة الموقف، والموازنة بين خيارين في المُطلق أحلاهما مُرّ ولستُ أعتقد إطلاقاً أنه هَمَّ أو عزم أو قبل ولو لحظة واحدة فكرة القتال في

سبيل إعادة الأُمّة إلىٰ رُشدها والصراط المستقيم. واستعرض مُسوّغات هذا الفهم تخرج بنا عن عمود البحث. وسيأتي في ختام الكلام ما يُؤيّده.

المُهْم أن الإمام وصل بسرعة إلىٰ قرار قضي فيه علىٰ نفسه بالصبر والتسليم بما جرىٰ. وهذا يعني ضمناً طي صفحة ما له من بيعة ناجزة في الأعناق « فسدلتُ دُونَهَا ثوباً. وطويتُ عنها كَشْحَاً » (نفسه) ولكنه لم يقل لماذا. والمتأمل يفهم من ذلك أنه يريد طيّ الموضوع من أساسه. الأمر الذي يرفع من درجة إلحاح السؤال.

بعد سبر واستقراء كل ما وصلنا من أقوال الإمام ذات العلاقة وقفنا علىٰ ما نعتقد أنه مفتاح الجواب / الحلّ في نص مُنير يقول فيه :

«أيها الناس إن لي عليكم حقاً، ولكم عليَّ حق. فأمّا حقكم عليّ فالنصيحة لكم ، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا. وأمّا حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم « (نفسه / ٩٢).

هوذا أَعلىٰ نصّ سياسي في الإسلام واكثرها تقدّماً ، منذ أن أعلنه الإمام سلام اللّٰه عليه إلىٰ حين وضع دستور الجمهوريّة الإسلاميّة. نستعيده الآن بمناسبة البحث برأسه. ثم إن استعادتنا له حافلة بالأسىٰ والشجن، لأنها تُرينا كم خسرنا، بل كم خسرت البشريّة كلها، بإزاحة صاحبه وحامله عن الموقع الذي وضعه فيه الرحمن الرحيم، ليضع موضع التنفيذ الرسالة التي أسّس لها خاتم الرُّسل صلوات اللّٰه عليه وآله.

هو ذا أول مشروع سياسي للحُكم في تاريخ الفكر السياسي مبني علىٰ التعاقد الاجتماعي حيث تُنظم العلاقة بين الحاكم والناس علىٰ قاعدة الموجبات المُتقابلة، وحيث إلزام والتزام كل طرف مشروط بالتزام الطرف الآخر بما عليه منها. إذن فهي موجبات مُتساندة، إمّا أن تكون معمولاً بها من الطرفين، وإمّا تسقط كلّها. فحقّ الإمام في الوفاء بالبيعة والطاعة حين الأمر.. الخ موقوف علىٰ أدائه ما عليه من واجب النصيحة وتوفير الفيء.... الخ. والعكس صحيح في جانب واجب كلّ منهما.

ربما يكون من الضروري القول هنا: إن هذا الفهم لكلام الإمام لا يدور على صرف أحكام

تكليفيّة وحلال وحرام وما يترتب عليها من ثواب و عقاب وما إلىٰ ذلك. كلا إطلاقاً. بل علىٰ حقوق وواجبات مدنيّة، منها السياسي، ومنها الاجتماعي، ومنها التربوي. وينبني علىٰ ذلك أنه عندما تنكث الأمة بما في عنقها من بيعة للإمام، مثلا، فإن إمامته لا تسقط واقعيّاً، بل يبقى حُجة الله علىٰ العباد، مع كل ما يترتب علىٰ ذلك من أحكام تكليفيّة. لكنه لا يكون مُلزماً سياسيّاً تجاهها. ومن حقه أن يُقدّر الموقف الجديد، وأن يعمل علىٰ قاعدة الأولىٰ فالأولىٰ. وقد يرىٰ أن واجبه محصور في درء الفتنة ومنع الانهيار الكامل. وذلك بالضبط ما حصل منذ السقيفة. حيث كان هم جميع الأطراف المتنازعة القبض علىٰ السلطة بأي ثمن وبأي وسيلة. وخصوصاً بعد صدور إشارات واضحة تدلّ بما لا لبسَ فيه علىٰ أن من الأطراف، أعني قريشاً ومُمثليها بشكل خاص، لن يتردّدوا في حال حرمانهم من السلطة في ضرب المشروع الإسلامي من أساسه. (العصيان العلني لأمر النبي المُشدّد بإرسال بعث أسامة، وقولة: إن النبي ليهجر).

هكذا.... فإنه عندما نكثت الأمة بما في عنقها من بيعة لإمامها وخليفة نبيها، فإن البيعة نفسها أصبحت غير قائمة كموجب سياسي علىٰ الإمام. بل ربما صارت المطالبة بمقتضياتها ممّا يزيد الأمور سُوءً، ويدفع في اتجاه يتنافىٰ مع أولويّة المحافظة علىٰ ما ومن بقي من المشروع الإسلامي وحملته. أمّا الأمّة، التي أثبتت بمُختلف فصائلها تخلفها البالغ عن المشروع الالهي الكبير، وخصوصاً تخلفها البالغ عن قيادة في غاية العظمة والتقدّم والسموّ والإخلاص، وغرقت في أوحال الرواسب الجاهليّة والأطماع والأهواء، فقد خسرت فرصتها التاريخيّة. وبات عليها أن تبدأ دفع الثمن جيلاً بعدَ جيل. وفتحت الباب عريضاً أمام كل الشرهين الطامعينَ بالتلذّذ بمُتع السُّلطة المُطلقة، علىٰ قاعدة من إلغاء كل ما أعلنه الإسلام من حقوق إنسانية أساسيّة. ولكم كان الثمن غالياً.

لن يكمل تصوّرنا لمشروع الدولة، كما كان الإمام يعمل علىٰ التأسيس له وبنائه بهدوء ومودة، ما لم نقف علىٰ عنصر ثالث أساسي، بالإضافة إلىٰ عنصري: الدولة القائمة علىٰ عقد إجتماعي والشَّفَّافيّة السياسية. أعني به ذلك الذي يتناول الحُريّات الأساسية وقواعدالعمل السياسي.

فمن المعلوم أن الإمام ابتُلي خلال فترة حكمه بثلاث حركات مُعارضة:

أولاها تلك التي قادها معاوية. ذلك الرجل الذي لم يدخل الإسلام قلبه. ولكنه دخل في الإسلام حاملاً همّاً واحداً هو الثأر من هذا الدين الذي انتزع من بيته زعامة قريش و مكة.

والغريب المُريب أنه مُنح ابتداء من الخليفة الثاني كل الفرصة لبناء دولة شبه مُستقلة له في الشام. ومضىٰ في بنائها سياسياً وعقائدياً وأخلاقياً كما يهوىٰ. بحيث أنه عندما بويع الإمام ﴿عليه السلام﴾ بالخلافة، كان هو في وضع يسمح له بإعلان العصيان من موقع المُتمكن.

أمّا ثانيتها فهي قريش، سيّدة شمال الجزيرة. التي خسرت هي الأخرىٰ موقعها المعنوي والمالي الممتاز بالإسلام. ولم تجد سبباً للإعتراض علىٰ الخلفاء الثلاثة الأُول لأسباب واضحة. ثم عجزت عن منع البيعة للإمام بعد مقتل عثمان، وخضعت مؤقتاً للموجة الشعبيّة الكاسحة التي فرضت خيارها الحر بشخص الإمام. ولكنها ما إن هدأت الأمور حتىٰ نكثت البيعة بزعامة عائشة و طلحة والزبير. ممّا قاد الأمور إلىٰ أول حرب إسلامية ـ إسلامية.

وأما ثالثتها فهم الخوارج. الذين تعود حركتهم إلىٰ جذور قَبِيْلِيَّةٍ، وخصوصاً إلىٰ بني ربيعة، التي اتخذت لفترة جانب الإمام. ولكنها في الوقت نفسه كانت تُعاني من الشعور بالحرمان والاضطهاد. لأنها وهي القبيلة الكبرىٰ كانت وكان رؤساؤها محرومين من أي نفوذ سياسي أو منصب.

الأمر الذي انتهىٰ بها إلىٰ إنكار كل أشكال السُّلطة القائمة بما فيها سُلطة الإمام، التي حاربت تحت لوائه طويلاً.

ما أريد أن انتهىٰ إليه من رسم هذه الخارطة السياسيّة وخلفياتها، هو أنه علىٰ الرغم من افتقار كل هذه الحركات للمصداقيّة الفكريّة والأخلاقيّة والسياسيّة، فإن الإمام تعامل معها بوصفها جماعات تتمتع بالحقوق الأساسيّة. فحاورها وحاول ردّها إلىٰ طريق الصواب. فراسل معاوية وقادة أهل البصرة مُحاوراً مُجادلاً واعظاً. أمّا الخوارج فقد كان يسمع بنفسه شعاراتهم ينادون بها في مسجد الكوفة، قاعدة حُكمه، ولم يُسجّل عليه

إطلاقاً أنه عاقبهم أو حاول منعهم أو حتىٰ صدرت عنه أدنىٰ إشارة تُفيد أن لاحقّ لهم بذلك مثلاً. وقد سمع مرّة رجلاً يقول «لا حُكم إلا لله» في ناحية المسجد فقال: «كلمة حق أُريد بها باطلٌ. لكم علينا ثلاث: لائمنعكم مساجدنا أن تذكروا فيها اسم اللّه، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نبدؤكم بقتال». وبالفعل لم يُقاتل من قاتل، منهم ومن غيرهم إلا بعد أن اعتدوا وسفكوا دماء المسلمين ونهبوا أموالهم. أي أنه قاتلهم بعنوان أنهم بُغاة. ومن هنا قال الشافعي في كتابه (الأم: ٨ / ٣٦٤): «أجمع أئمة الإسلام علىٰ أن أحكام قتال أهل البغي إنما وضعها الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ خلال حروب الفتنة».

كل هذا يُبيح لنا أن نفهم أن حق الاختلاف هو من الحقوق الأساسيّة المُحترمَة، ما دام في دائرة الحوار والحراك السياسي بكافة أشكاله المشروعة.

خُلاصة القول:

إننا انطلاقاً من إشكاليّة تفصيليّة، أوصلنا البحث إلىٰ أَنَّ الإمامَ أميرَ المؤمنين (سلامُ اللّهِ عليه) قد عملَ علىٰ بناءِ دولةٍ تتجاوز بما لا يُقاس بكل المفاهيم التي كانت سائدة أو يحلم بها الناس في زمانه. وهذا مؤشّر من مؤشرات كثيرة إلىٰ الأبعاد الرائعة التي رمت إليها الإمامة المعصومة في أهل البيت (سلام اللّه عليهم). وما هذا البحث المتواضع إلا عناوين وإشارات.

والحمد لله

عليٌّ سيفُ اللّهِ المسلولُ

التاريخُ الجهاديُّ للإمامِ عليٍّ ﴿عليه السلام﴾

الاستاذ صالح الورداني

القاهرة

منذ أن بدأ الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ أُولى خطواته على طريق الدعوة والجهاد كان الإمامُ عليٌّ ﴿عليه السلام﴾ إلى جواره يستظلُ بظلّه ويمتثل لأمره.

و لم تكن تلك مصادفة بل كان أمراً مقدوراً..

إن الدور الجهاديّ للإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ الذي واكب مسيرة الإسلام من بدايته و حتى وفاة النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ كان دوراً مرسوماً من قبل الوحي. و إمتداد هذا الدور من بعد الرسول هو إمتداد لدور الوحي والإسلام.

فهو بحق سيف اللّهِ المسلول رمز الحق عَلى مرّ الزمان و قد شقّ بسيفه نهج الهداية والرشاد والنجاة في الدنيا الآخرة..

لقد كرَّمَ القرآنُ علياً وكرَّمَ الرسولُ علياً و كرَّمَ التاريخُ علياً. وما بعد ذلك من تكريم. وليس من العدل والرشد أن يعلو على الإمام عليٍّ ﴿عليه السلام﴾ أَحَدٌ. وأن يعلو فوق سيفِه سيفٌ.

و ليس من الحقّ بل من الباطل منازعة الإمام هذا الدور وهذه المكانة.. ليس من الحق بعد هذا التاريخ الجهاديّ الطويل للإمام في حياة الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ و بعد مماته أن ينتزع منه هذا الدور وأن ينسب الفضل لغيره ممن لا وزن لهم.. لقد طغت السياسة

والمذهبية عَلَىٰ النصوص وتمّ رفع خالد بن الوليد علىٰ حساب الإمام عليٍّ ﴿عليه السلام﴾ و جعله سيف اللّٰه وتوطين هذه الفكرة الزائفة في نفوس المسلمين، وبين خالد والإمام بعد المشرقين..

الإمام تربى في كُنف النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ منذ طفولته .

و خالد تربى في كنف الشرك والأصنام..

الإمام أوّل من أسلم .

و خالد من أواخر الذين أسلموا[١]..

الإمام باب مدينة العلم ووارث علم الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ .

و خالد لم يرث من العلم شيئاً..

الإمام صاحب الدور الفاعل والسيف القارع..

و خالد ليس له دور يذكر..

إن المؤرخين وأصحاب السير قد دونوا كتبهم في عصور الاضطهاد والبطش والإرهاب الذى أحاط بآل البيت ﴿عليهم السلام﴾ وأتباعهم. و في ظل هذا الوضع تم التعتيم على دور الإمام الجهادي. وتم أيضاً التشكيك في المصادر التاريخية التي حاولت إبراز هذا الدور.. من هنا وجب العمل علىٰ كشف دور السياسة والرجال في هذه المؤامرة التى لا تستهدف شخص الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ وإنما تستهدف الإسلام. فإن الإمام هو رمز الإسلام و سيف الله لا يشاركه في ذلك أحد من الناس .

و هو ما تشهد به النصوص و حقائق التاريخ. وما سوف نبرزه من خلال هذا الكتاب الذي نجدّد من خلاله الدعوة إلى إعادة قراءة التاريخ بمعزف عن السياسة والرجال..

الرواية والسياسة

منذ أن فرض الحصار على آل البيت والإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ (خاصة بعد وفاة الرسول

---

١. أسلم خالد عام ٨ هـ و ليس بعد هذا العام غزوات تذكر ذات أهمية على ما سوف نبين بطلان دعوىٰ ارتباط فكرة سيف لله بخالد وإنعدام دوره الجهادي في حياة الرسول (ص).

﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ و ساد النهج القبلي) أطلت السياسة برأسها واستثمرت الرواية في إضفاء المشروعية علىٰ هذا النهج في مواجهة الإمام وآل البيت ﴿ عليهم السلام ﴾ و دور الإمام عليّ ﴿ عليه السلام ﴾ الجهادي حيث برزت النصوص التى ألصقت فكرة سيف الله المسلول بخالد بن الوليد..

والمتتبع لسيرة الرسول ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ يرى حالة التعتيم لدور الإمام بوضوح حيث لا تبرز الروايات دوره البارز في غزوة بدر وأُحد وسائر الغزوات.

و حيث قام القوم بإثارة الشبهات والتشكيك في الرواية الواردة على لسان الرسول ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ بحق الإمام وهى قوله: **لا فتىٰ إلا عليّ ولا سيف إلا ذو الفقار...**[1].

و في الوقت نفسه دعموا الروايات الخاصة بخالد بن الوليد التي تضخم من دوره ومكانته نكاية في الإمامِ وآل البيت [2].

كذلك نسب الكثير من الإنجازات العسكرية في دائرة الغزوات لغير عليّ ﴿ عليه السلام ﴾ قبل ظهور خالد على ما سوف نبين.

و في دائرة السرايا والبعوث أشارت الروايات إلى أن علياً لم يحظ بحمل راية أغلبها وهي السرايا والبعوث التي كان يعدها ويجهزها الرسول ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ بنفسه..

روىٰ البخاري أن حمزة عمّ الرسول ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ كان في مجلس شرب مع الأنصار وعنده قينة تغني لهم وثب علىٰ بعير لعليّ كانت نصيبه من المغنم يوم بدر فقطع أسنمتها وبقر خواصرها وأخذ من أكبادها. فانطلق عليٌ الىٰ **رسول الله** ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ وقال لهُ: عدا حمزةُ علىٰ ناقتي فأجبَّ أسنمتها وبقرَ خواصرها وها هو هذا في بيت معه شرب. فأنطلق معه الرسول فإذا حمزة ثمل محمرة عيناه. ثم قال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي. فعرف النبي أنه ثمل فتركه وأنصرف [3]

و هذه الرواية كما هو واضح تطعن في حمزة وتشوهه وبالتالي تشكك في الدور

---

١. انظر الفصل الخاص بهذه الرواية من هذا الكتاب..
٢. انظر ملحق الكتاب لذى يكشف إكذوبة خالد بن الوليد. سيف الله المسلول..
٣. كتاب المغازي. باب شهود الملائكة بدراً.

الجهادي الذي قام به في غزوة بدر[١].

ولا شك أن المساس بحمزة يعني المساس بعليّ ﴿عليه السلام﴾ وآل البيت ﴿عليهم السلام﴾ عموماً..

و يروي عن مسلمة بن الأكوع قال: غزوت مع النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ سبع غزوات. و خرجت فيما يبعث من البعوث تسع غزوات : مرة علينا أبو بكر ومرة علينا أسامة[٢].

و يظهر لنا من خلال هذه الرواية أنها لا تشير إلى الأمام علي ﴿عليه السلام﴾ صاحب الدور البارز في دائرة الغزوات والسرايا والبعوث ..

و يروي عن بعضهم انّه لم يبق مع النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ في يوم أُحد غير طلحة و سعد[٣].

ويروي: رأيتُ يد طلحة شلاء، وقى النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ في يوم أُحد[٤].

و من الواضح أن هذه الروايات تهدف إلى تقليص دور الإمام عليّ في غزوة أُحد بل هي تمحوه محواً إذ أنها تشير في دلالة واضحة أن علياً كان من بين الفارين يوم أُحد[٥]..

يقول ابن حجر: كأن المراد بالحصر المذكور في حديث الباب تخصيصه بالمهاجرين. فكأنه قال: لم يبقَ معه من المهاجرين غيرَ هذين.

ساق ابنُ حجر الروايات لابن اسحق والنسائي والبيهقي في دلائل النبّوة: أن الصحابة تفرقوا عن النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يوم أحد و بقى معه أحدَ عشرَ رجلاً من الأنصار وطلحة. و ذكر أن الأنصار استشهدوا جميعاً ولم يبقَ غير طلحة و سعد. ثم روى على لسان عائشة كما في مسند الطيالسي: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال: كان ذلك اليوم كله لطلحة. و كنت أول من فار فرأيت رجلاً يقاتل عن رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فقلت: كن طلحة.

ويروى عن النسائي بعد قتل الذين كانوا معهما من الأنصار ـ طلحة وسعد: قاتل طلحة

---

١. انظر تعليقات ابن حجر العسقلاني على هذه الرواية في فتح الباري شرح البخاري جـ كتاب الخمس..
٢. البخاري كتاب المغازي باب النبي بعث أسامة إلى الحرقات. و مسلم كتاب الجهاد والسير باب عدد غزوات النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾.
٣. البخاري كتاب المغازي باب إذا همت طائفتان.
٤. المرجع السابق..
٥. المرجع السابق..

قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه [١].

ويروى إن الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ لما رجع من أحد أعطى سيفه لفاطمة وقال أغسلي عن هذا الدم. وأعطاها عليّ سيفه و قال: وهذا فاغسلي عنه دمه فو اللّهِ لقد صدقني اليوم القتال فقال سول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: لئن كنت صدقت القتال اليوم لقد صدق معك القتال سهل بن حنيف و سماك بن خرشة أبو دجانة وعاصم بن ثابت الأفلح والحارث بن الصمة [٢].

ثم حاول الرواة بعد ذلك تحت ضغط السياسة أن يشوهوا ذلك الإنجاز الجهاديّ الضخم والعمل البطولي الفذ والمبارزة المباركة بسيف اللّه التي كانت نتيجتها قتل عمرِو بنِ عبدِودٍّ في غزوة الخندق على يد الإمام عليّ و ذلك بأن أشركوا في قتله مع الإمام محمد بن سلمة و قد ردّ هذه الرواية الحاكم في المستدرك بقوله: و قتل من كفار قريش يوم الخندق من بني عامر بن لؤي ثم من بني مالك بن حسل عمرو بن عبدودّ بن نصر بن مالك بن حسل قتله عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ و قد ذكرت في مقتل عمرو بن عبدودّ من الأحاديث المسندة عن عروة بن الزبير و موسى بن عقبة و محمد بن اسحاق بن يسار ما بلغني ليتقرر عند المنصف من أهل العلم أن عمرو لم يقتله ولم يشترك في قتله غير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾. وإنما حملني على هذا الاستقصاء فيه قول من قال من الخوارج أن محمد بن سلمة أيضاً ضربه ضربة وأخذ بعض السلب. ووالله ما بلغنا هذا عن أحد من الصحابة والتابعين [٣].

و حاول الرواة أيضاً أن يثيروا الشبهات حول قتل مرحب اليهودي في غزوة خيبر و ذكروا أن مرحباً قتله محمد بن سلمة.

روى الذهبي عن ابن شهاب الزهري: أن رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ قامَ يوم خيبر فوعظهم. و فيه: فخرج اليهود بعاديتها. فقتل صاحب عادية اليهود فانقطعوا. و قتل محمد

---

١. فتح الباري جـ ٧ / ٣٦٠: ٣٦١، كتاب المغازي.
٢. مستدرك الحاكم على البخاري ومسلم جـ ٣ / ٢٤ كتاب المغازي، ذكر غزوة أحد.
٣. المنتقى السابق جـ ٣ / ٣٤، كتاب المغازي.

بن مسلمة مرحباً اليهودي[١].

وفي رواية أخرى عن ابن اسحاق عن جابر بن عبدالله قال: خرج مرحب اليهودي من حصن خيبر وقد جمع سلاحه وهو يرتجز ويقول: من يبارز؟.

فقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: من لهذا؟.

فقال محمد بن مسلم: أنَا لهُ وأنا والله الموتور الثائر. قتلوا أخي بالأمس..

قال: قم إليه. اللهم أعنه عليه..

و حمل مرحب علىٰ محمد فضربه فاتقاه بالدرقة. و ضربه محمد حتى قتله[٢].

و قال الواقدي: حدثني محمد بن الفضل بن عبيد الله بن رافع بن خديج عن أبيه عن جابر قال: حدثني زكريا بن زيد عن عبدالله بن أبي سفيان عن أبيه عن مسلمة بن سلامة. قال عن مجمع بن يعقوب عن أبيه عن مجمع بن حارثة. قالوا جميعاً: أن محمد بن مسلمة قتل مرحباً[٣].

و قد أجمعت مصادر أخرى كثيرة على أنَّ علياً هو قاتل مرحب والأمر شبه إجماع بين المؤرخين وأصحاب السير علىٰ ما سوف نبين[٤].

إلا أن الذهبي صاحب النزعة الأموية وتلميذ ابن تيمية يأبىٰ أن يرىٰ منقبة لعلي وآل البيت ﴿عليهم السلام﴾ دون أن يحاول تطويقها وإثارة الشكوك من حولها[٥].

و جاء ابن كثير الذي سار علىٰ نهج ابن تيمية وتتبع مناقب الإمام علي وآل البيت ﴿عليهم السلام﴾ و الدور الجهاديّ للإمام مع الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ و بعده و قام بغربلتها وانتقاء المناسب منها لمعتقده وميوله من خلال تلخيصه لتاريخ الطبري وتفسيره[٦].

و من المعروف أن تاريخ الطبرى يحوى الكثير من الروايات التى تدعم الإمام عليّ

---

١. تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والإعلام ج ١ المغازي. فصل فيمن ذكر أنّ مرحباً قتله محمد بن مسلمة.
٢. المرجع السابق..
٣. المرجع السابق..
٤. انظر الفصول القادمة من الكتاب .
٥. انظر كتاب السلفيون والشيعة فصل فقهاء الشام وفقهاء العراق. والذهبي من فقهاء الشام..
٦. لخص ابن كثير تاريخ الطبرى ضمن كتابه البداية النهاية. كما لخص تفسيره وأسماه تفسير القرآن العظيم.

﴿عليه السلام﴾ و تبرز دوره الجهاديّ وتعري خصوم آل البيت ﴿عليهم السلام﴾[١].

كذلك أثيرت الشبهات حول كتاب مروج الذهب و تاريخ اليعقوبي و الفتوح لابن الأعثم والإمامة و السياسة لابن قتيبة و غيرها من المصادر التاريخية وذلك لكونها حوت روايات تتناقض مع الاتجاه السائد زمن الأمويين والعباسيين المعادي للإمام عليّ وآل البيت ﴿عليهم السلام﴾.

والذين أثاروا هذه الشبهات هم الفقهاء الذين ساروا في ركاب السياسة ودعموا الروايات التى تنصر الحكام التي تكتظ بها كتب السنن وتطرفوا في موقفهم إلىٰ الحدّ الذي جعلوا فيه موالاة ألحكام وطاعتهم من العقائد[٢].

و سوف يرى القاريء من خلال بحوث الكتاب، الكثير من الأمثلة حول دور السياسة في التلاعب بالروايات الّتي تتعلّق بدور الإمام عليٍّ الجهاديٍّ.

شهادة الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾

شهد الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ لعلي بمكانته ودوره الفاعل في مسيرة الإسلام في حياته وبعد مماته. وإشارة الرسول إلىٰ دور الإمام بعد رحيله إنما يدل دلالة واضحة علىٰ انّ الإمام هو المثل الشرعي للإسلام والناطق بلسانه والمترجم لأحكامه فهو رمز الحقّ ومرجع الأمة ومنارة الرشاد من بعده. وهو الوحيد الذي حمل لقب إمام ولم يستطع خصومه أن ينتزعوا هذا القب منه أو يلبسوه لغيره.

إن هناك الكثير من الروايت التي جاءت علىٰ لسان الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وأفلتت من حصار السياسة ومؤامرات الخصوم والتي تشهد بالدور الجهادي للإمام وتبرزه لتتضاءل أمامه أدوار الآخرين المحدودة العديمة الأثر والتي حاولت السياسة إبرازها وتضخيمها

---

١. أثيرت الشبهات حول الطبري وتاريخه وتفسيره من قبل الحنابلة وابن تيمية والوهابيين من بعد والاتجاهات الإسلامية المعاصرة، ودعواهم ترتكز علىٰ أن الطبرى مليء بالإسرائيليات.

٢. أنظر العقيدة الطحاوية وشرحها والعقيدة الواسطية لابن تيمية وشرحها و عقيدة أهل السنة لابن حنبل و هي تنص على طاعة الحاكم وإن ظلم وفسق والجهاد والصلاة والحج واجب وراء كل أمير برّاً كان أو فاجراً. أنظر مسلم كتاب الإمارة. و أنظر كتاب أهل السنة شعب الله المختار.

علىٰ حساب الإمام.

و لتؤكد لنا أن نور الحقّ لابدّ وأن يسطع يوماً ويبدد ظلمات الباطل.

قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ في يوم الحديبية: يا معشر قريش لتنتهن أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف علىٰ الدين قد امتحن اللّٰه قلبه علىٰ الإيمان.

فقال له أبو بكر: من هو يا رسول الله؟.

و قال عمر: من هو يا رسول الله؟.

قال: **هو خاصف النعل. وكان أعطىٰ علياً نعله يخصفها**[١].

و قال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: **إذا كان القتال فعليّ**[٢].

ولما كان يوم خيبر بعث رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ رجلاً فجبن. فقال: لأبعثن غداً رجلاً يحب اللّٰه ورسوله ويحبانه لا يولي الدُبر يفتح اللّٰه علىٰ يديه. وعليّ يومئذ أرمد. فقال له الرسول: سر وتفل في عينيه و عقد له فلقيهم ــ أي يهود خيبر ــ ففتح اللّٰه عليه[٣].

و قال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: **إنّ علياً مني وأنا منه. وهو ولي كلّ مؤمن بعدي**[٤].

وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: **أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ**[٥].

و قال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: **أنت أخي في الدنيا وفي الآخرة**[٦].

وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: **من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه. اللّٰهم والِ من والاه وعادِ من عاداه**[٧].

وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: **عليّ** ﴿عليه السلام﴾ مع القرآن والقرآن مع عليّ[٨].

وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: لعلي ﴿عليه السلام﴾: إنَّكَ تقاتل علىٰ تأويل القرآن كما قاتلت علىٰ

---

١. سنن الترمذي ج ٥ / كتاب المناقب. باب مناقب علي بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾.
٢. المرجع السابق.
٣. مستدرك الحاكم ج ٣ / كتاب المغازي. أنظر البخاري ومسلم كتاب فضائل الصحابة..
٤. الترمذي. وأنظر مستدرك ألحاكم. والبخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب علي بن أبي طالب .
٥. البخاري ومسلم كتاب فضائل الصحابة. باب فضائل عليّ.
٦. سنن الترمذي.
٧. حديث متواتر ذكره السيوطي في الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة. رواه معظم أهل السنن عن عشرات الصحابة والتابعين.
٨. رواه الطبراني عن أم سلمة.

تنزليه[١].

وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: عليٌّ ﴿عليه السلام﴾ إمام البررة وقاتل الفجرة. منصور من نَصَرَهُ مخذول من خَذَلَهُ[٢].

وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: لا تشكو **علياً** فوالله إنه لأخشن في سبيل الله[٣].

و مثل هذه النصوص وغيرها مما تذخر بها كتب القوم إنما تؤكد أن الإمام **علياً** ﴿عليه السلام﴾ هو سيف الله المسلول وصاحب الدور الجهادي الفاعل في تاريخ الإسلام.

وهذا ما دفع ببعض الرواة إلى أن يسلموا بهذه الحقيقة ويقروا أن **علي بن أبي طالب** ﴿عليه السلام﴾ كان صاحب لواء **رسول الله** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يوم بدر وفي كُلٍّ مشهد[٤].

لقد امتدت شهادة **رسول الله** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ **لعليّ** ﴿عليه السلام﴾ إلى ما بعد حياته حيث حدد من خلال شهادته ملامح الدور الجهادي الّذي سوف يلعبه من بعده في مواجهة الناكثين والقاسطين والمارقين.

و في هذا دلالة على أن سيف الإمام سوف يستمر دوره من بعد **رسول الله** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ في تقويم الإعوجاج والحفاظ على الدين ومواجهة الضالين. ذلك الدور الذي انحصر في دائرة المسلمين من أهل القبلة ولم يتجاوز هذه الدائرة ليساهم هو أو أحد من آل البيت ﴿عليهم السلام﴾ في حركة الغزو التي انطلقت من المدينة نحو فارس والروم..

فقد واجه الإمام عائشة وطلحة والزبير في وقعة الجمل.

وواجه معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة في وقعة صفين.

وواجه الخوارج في وقعة النهروان.

فهو قد شهر سيفه في وجه أهل القبلة أو من ينتسبون إلى الإسلام وهذا الأمر إن دل على شيّ فإنما يدل على أن الإمام لديه علم الكتاب ولديه المشروعية الحقة التي وجهته في هذا السبيل بشهادة **الرسول** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾.

---

١. رواه أحمد والحاكم في المستدرك.

٢. رواه الحاكم.

٣. المرجع السابق.

٤. طبقات ابن سعد.

ومن خلال وقعة الجمل برز نهجاً.

ومن خلال صفين برز نهجاً.

ومن خلال الخوارج برز نهجاً.

وقد واجه الإمام هذه الفرق الثلاث بسيفه وعلمه وشيعته ليضع قواعد التبين والمفاصلة للأمة من بعده ..

إن الإمام هو رمز الحق بشهادة **الرسول** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ والإمتداد الشرعي لهذا الحقّ على مر الزمان والذين قاتلهم هم الذين انحرفوا عن الحقّ وهم رمز الباطل على مر الزمان .. والذين اغفلوا هذه الحقيقة الساطعة تحت ضغط السياسة والروايات إنما ضلوا السبيل وسقطوا فريسة للباطل والطواغيت .

إن الإنحراف عن خط الإمام يعني فقدان وسيلة التمييز بين الحقّ والباطل. ويعني سلوك سبيل الخوارج الذين اعتبرت كل صور الفرق والنواصب المعادين لآل البيت ﴿عليهم السلام﴾ و شيعتهم في الماضي والحاضر هي امتداد لهم ..

ومن العبث بل من الضلال والزيغ أن شهادة **النبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ **لعلي** ﴿عليه السلام﴾ بقتال أهل القبلة من بعده وقتاله للخوارج وشهادة عمار بين صفوفه ثم شهادته على يد أحد عناصر الخوارج وتفصيل مقتله واعتبار قاتله هو أشقي الآخرين ـــ من العبث اعتبار هذه الشهادة التي تنبأ بها الرسول هي من قبيل المناقب والتكريم لشخص **عليّ** ﴿عليه السلام﴾ إنّما هي توجيهات رساليّة ودلالات شرعيّة لنهج الحقّ من بعد الرسول، ذلك النهج الّذي أشار اليه الامام **عليّ** ﴿عليه السلام﴾ بسيفه[1].

ذلك النهج الذي يمثل الإسلام الرباني الحقّ النابع من نهج الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾

---

١. ارتبطت الروايات الخاصة بالخوارج في كتب السنن بالإمام عليّ (ع) خاصة. و كانت مواجهته لهم بعد الرسول (ص) دلالة على كونه ممثل الحق وحامل سيف الله .

و حديث : عمار تقتله الفئة الباغية مشهور في كتب السنن كذلك الأحاديث الّتي تصف شهادة عليّ (ع)و كيفية مقتله واعتبار قاتله أشقى الآخرين .

انظر كتب السنن والطبقات الكبرىٰ لابن سعد وانظر الفصول القادمة من الكتاب..

خالد بن الوليد

أكذوبة سيف الله المسلول

ارتبطت فكرة سيف الله المسلول بخالد بن الوليد .

وجاءت الروايات فأضفت الشرعية على هذه الفكرة.

وجاء الفقهاء فتحصنوا بهذه الروايات وأضافوا إليها اجتهاداتهم وأحاطوا بها.

وبين الفقهاء والروايات ضاعت الحقيقة وسادت الأسطورة.

وحتى نتمكن من التفريق بين الحقيقة والأسطورة لابد من رصد علاقة خالد بالرسول ﴿ ﷺ ﴾ وتتبع دوره العسكري معه.

ولقد أراحنا الفقهاء والرواة من رصد أية جوانب أخرىٰ للعلاقة بين خالد والرسول . فهم لم يضعوا الرجل في زمرة أهل الفقه والنقل كما وضعوا غيره، كما أنهم لم يضعوه في زمرة المقربين الملتصقين بالنبيأصحاب المواقف، وأن كانت بعض الروايات قد عملت علىٰ تأكيد ذلك إلا أن القوم قد شككوا فيها والحمد لله وسيأتي ذكرها.

من هنا وجب التركيز علىٰ الدور العسكري لخالد بن الوليد طوال حياة **الرسول** ﴿ ﷺ ﴾ و حقيقة هذا الدور ومواءمته بفكرة سيف الله المسلول التي التصقت به دون بقية الصحابة أصحاب الدور الجهادي البارز في تاريخ الإسلام، وبدا الأمر وكأنه ليس هناك دور لهم في واقع الغزوات. وأن الغزوات التي سبقت إسلام خالد لم تكن بتلك الأهمية حتىٰ أسلم خالد وأعطى لحركة الجهاد طابعها الرباني الإعجازي الذي استحق به لقب سيف الله.

خالد والرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾

متىٰ بدأت علاقة خالد بالرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾؟

هناك رواية هي محل إجماع بين الرواة والمؤرخين .. تقول الرواية على لسان عمرو بن العاص : خرجت عامداً إلى **رسول الله** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح وهو مقبل من مكة . فقلت : أين يا أبا سليمان ؟

قال : والله لقد استقام المنسم وإن الرجل لنبي. أذهب والله فأسلم. فحتىٰ متىٰ؟

قلت : والله ما جئت إلا لأسلم .

قال : فقدمنا المدينة علىٰ **رسول الله** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع .

ثم دنوت فقلت : يا رسول الله إني أبايعك علىٰ أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي ولا أذكر ما تأخر.

فقال **رسول الله** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: يا عمرو بايع فإن الإسلام يجبُّ ما قبله وأن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها.

قال : فبايعته ثم انصرفتُ .

قال ابن اسحق : وحدثني من لا أتهم أن عثمان بن طلحة كان معهما و أسلم حين أسلما[1].

هذه هي الرواية الوحيدة الّتي تحدد بداية العلاقة بين خالد والرسول. وزمن هذه الرواية كما أشارت المراجع هو العام الثامن من الهجرة.

ولقد حاول البعضُ إرجاع زمن هذه العلاقة إلى العام الخامس من الهجرة.

والبعض أرجعها إلى العام السادس.

والبعض أرجعها إلى العام السابع.

---

١. انظر سيرة ابن هشام وانظر أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير. والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر. والاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر. و مسند أحمد. ومستدرك الحاكم والمغازي للواقدي وطبقات ابن سعد. وتاريخ الإسلام للذهبي والبداية والنهاية لابن كثير..

لنترك ابن حجر يرد علىٰ هؤلاء.

يقول : أسلم بينَ الحديبيةِ والفتحِ. ويقال قبلَ غزوةِ مؤتةَ بشهرينِ، وكانت في جمادي الأولى سنة ثمان. وكانَ الفتحُ بعدَ ذلك في رمضان.

و حكىٰ ابن أبي خيثمة أنه أسلم سنة خمس وهو غلط فإنه كان بالحديبية طليعة للمشركين وهي في ذي القعدة سنة ست .

وقال الحاكم، أسلم سنة سبع. زاد غيره وقيل عمرة القضاء. والراجح الأول وما وافقه [١].

و ينقل الذهبي في أحداث سنة ثمان من الهجرة: وفيها أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد [٢].

و يروي الواقدي عن يزيد بن أبي حبيب عن عمرو. قلت ليزيد: ألم يوقّت لك متى قدم عمرو وخالد؟

قال: لا .إلا أنه قال: قبل الفتح .

قلت: فإن أَبي أخبرني أن عمراً وخالداً وعثمان قدموا المدينة لهلال صفر سنة ثمان [٣].

ويقول ابن الأثير: وقد اختلف في ذي القعدة سنة ست وخيبر بعدها في المحرم سنة سبع. وقيل: بل كان إسلامه سنة خمس بعد فراغ **رسول الله** ﷺ من بني قريظة وليس بشيء. وقيل: كان إسلامه سنة ثمان. وقال بعضهم: كان عَلَىٰ خَيْلِ **رسول اللهِ** ﷺ يوم الحديبية. وكانت الحديبية سنة ست. وهذا القول مردود فانَّ الصحيح أَنَّ خالد بن الوليد كان علىٰ خيل المشركين يوم الحديبية [٤].

و قال ابن حجر: أسلم في سنة سبع بعد خيبر وقيل قبلها وَوهم من زعم أنه أسلم سنة

---

١. فتح الباري شرح البخاري جـ ٧ / ١٠١ باب مناقب خالد بن الوليد وهو لم يذكر له سوى منقبة واحدة تتعلق بغزوة مؤتة سوف نلقي عليها الضوءَ فيما بعد أما صحيح مسلم فلم يورد شيء عن خالد. ويذكر أنه لم يصح في أمر إسلام خالد شيء..

٢. تاريخ الإسلام المجلد الأول. المغازي .

٣. المغازي ج ٢ / ٧٤١ وما بعدها..

٤. أسد الغابة ج ٢ / ١٠٩ ط دار الشعب القاهرة.

خمس [١].

و يظهر لنا من خلال عرض هذا الأقوال أن الهدف منها هو تقوية دور خالد ورفع مكانته بمحاولة إثبات أقدميته وتعميق دوره حتىٰ تنتفي الشبهات من حوله وبالتالي يستحق الرتبة التي منحَه ُإياها **الرسول** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ في مجال الجهاد والغزو ويكون هو سيف الله المسلول دون شك أو ريب .

ويظهر لنا أيضاً مدى ُتناقض ابن حجر حيث أكَّدَ إسلام خالد بين الحديبية والفتح أو قبل مؤتة بشهرين ورجَّح ذلك ثم عاد وقال أنه أسلم في سنة سبع بعد خيبر وربَّما قبلها..

إلا أن الثابت أنه لم يقم بدور بارز في أيّ من الغزوات الكبرىٰ التي كان لها الأثر الفاعل في تاريخ الدعوة الإسلامية بعد إسلامه .

يقول ابن قتيبة عن خالد: لم يشهد بدراً ولا أحداً ولا الخندق [٢].

و يقول ابن حجر: وشهد مع **النبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ عدة مشاهد ظهرت فيها نجابته [٣].

ويقول: كانت إليه أعنة الخيل في الجاهلية وشهد مع كفار قريش الحروب إلى عمرة الحديبية [٤].

وقال ابن الأثير: لا يصح مشهد مع **الرسول** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ قبل فتح مكة [٥].

وينقل ابن عبد ربه: قال أبو عمرو: لا يصح لخالد بن الوليد مشهد مع **رسول الله** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ قبل الفتح [٦].

إنَّ ما نتوصل إليه من خلال هذا كلِّه أنَّ رصد العلاقة بين خالد **والنبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ تبدأ من العام الثامن وهذه العلاقة علىٰ ما يبدو من خلال الروايات الّتي تتعلق بخالد هي علاقة عسكرية بحتة.

و لن يتم حساب هذه العلاقة إلا من خلال رصد حركة الغزو والسرايا التي بدأت بعد

---

١. الإصابة ج ١ ترجمة خالد بن الوليد رقم ٢٢٠١.
٢. المعارف.
٣. فتح الباري
٤. الإصابة.
٥. أسد الغابة.
٦. الاستيعاب.

إسلام خالد وارتبط بها..

خالد ومؤتة

وأول الغزوات الّتي ارتبطت بخالد بعد إسلامه هي غزة مؤتة. بل إن هذه الغزوة هي الّتي ارتبطت بفكرة سيف الله المسلول حسبما أشارت الروايات الّتي جاءت حول هذه الغزوة.

إن أقل ما تشير إليه الروايات حول غزوة مؤتة أن خالداً لم يكن له دورٌ قياديّ فيها. فلم يكن سوىٰ فرداً من فراد ألجيش تحت إمرة زيد بن حارثة الّذي حدده **رسول الله** ﴿ ﷺ ﴾ بالاسم ثم حدَّد بعده جعفر بن أبي طالب وبعد جعفر عبدالله بن رواحه. ولم تنص هذه الروايات علىٰ ذكر لخالد.

وهذا الأمر إن دلَّ علىٰ شيءٍ فإنما يدلُّ علىٰ أن علاقة خالد **بالرسول** ﴿ ﷺ ﴾ لم تكن بالعلاقة المميزة الّتي تحاول أن تصورها الروايات.

يروى: أَمَرَ **رسول اللهِ** ﴿ ﷺ ﴾ في غزوة مؤتة زيدَ بنَ حارثةَ فقال: إن قُتِلَ زيدٌ فجعفر. وإن قُتِلَ جعفرُ فعبدالله بن رواحة[١].

ومثل هذا النص يشير إلىٰ أنَّ **الرسول** ﴿ ﷺ ﴾ وكأنه كان يعلم باستشهاد الثلاثة. ومع ذلك هو لم يشر إلىٰ خالد بدور.

فهل كان **الرسول** ﴿ ﷺ ﴾ يجهل أن خالداً هو سيف الله؟

يروى أنَّ **النبيَّ** ﴿ ﷺ ﴾ نعىٰ زيداً وجعفراً وعبدالله بن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم. فقال: أخذ الراية زيدٌ فأصيب ثم أخذ جعفرُ فأصيبَ ثم أخذ ابنُ رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتىٰ أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم[٢].

وأمام هذه الراية طرح عدة تساؤلات:

---

١. البخاري كتاب المغازي وانظر ابن هشام والواقدي وطبقات ابن سعد والطبري وغيرهم.

٢. المرجع السابق.

الأول: إنَّ قولَ **الرسولِ** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ حتىٰ أخذها سيف من سيوف اللّٰه يعني أن خالد كان معروفاً بهذه الصفة من قبل هذه الغزوة. ولما كانت غزوة مؤتة وهي أُولى غزواته فهناك شك في نسبة هذه المقولة إلى **رسول اللّٰه**.

الثاني: أنَّ قولَ **الرسول** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: حتى فتحَ اللهُ عليهم لا يستقيم مع نتائج غزوة مؤتة والدور الذي قام به خالد فيها. فالغزوة من الناحية لعسكرية قد فشلت ولحقت الهزيمة بقوات المسلمين. فأى فتح إذن تحقق علىٰ يد خالد؟

و لقد احتار الفقهاء والمؤرخون أمام هذه المسألة وأدلى كُلٌّ منهم بدلوه محاولين الخروج من هذا المأزق الذي وضعتهم فيه الرواية وإتَّجهوا إلى لتأويل والتبرير الاستنجاد بالروايات الّتي لم تصلهم إلى شيء..

و نقل لنا ابنُ حجرٍ هذه الحيرة وهذا التخبط فيما يلي: اختلف أهل النقل في المراد بقوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: حتى فتح اللّٰه عليه. هل كان هناك قتال فيه هزيمة للمشركين؟ أو المراد بالفتح انحيازه بالمسلمين حتىٰ رجعوا سالمين ؟

و عند الواقدي :لما أصبح خالد بن الوليد جعل مقدمته ساقة وميمنته ميسرة. فأنكر العدو حالهم. وقالوا: جاء مدد. فرعبوا وانكشفوا منهزمين. وعنده من حديث جابر قال: أصيب بمؤتة ناس من المشركين وغنم المسلمون بعض أمتعة المشركين. وفي مغازي أبي الأسود عن عروة: فحمل خالد علىٰ الروم فهزمهم. ويمكن الجمع بأن يكونوا هزموا جانباً من المشركين وخشى خالد أن يتكاثر الكفار عليهم. فقد قيل إنهم كانوا أكثر من مائة ألف. فانحاز بهم حتى رجع بهم إلىٰ المدينة. وهذا السند وإن كان ضعيفاً من جهة الانقطاع والآخر من جهة ابن لهيعة الراوي عن أبي الأسود وكذلك الواقدي فقد وقع في المغازى لموسى بن عقبة وهي أصح المغازي ـ ما نصُّهُ: ثم أخذه ـ يعني اللواء ـ عبداللّٰه بن رواحة فقتل. ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد فهزم اللّٰه العدو وأظهر المسلمين. وقال العماد ابن كثير: يمكن الجمع بأن خالداً لما حاز المسلمين بات ثم أصبح وقد غير هيئة العسكر توهم العدو أنهم قد جاء لهم مدد، حمل عليهم خالد حينئذ فولوا فلم يتبعهم ورأى الرجوع بالمسلمين هى الغنيمة الكبرى ثم وجدت ـ أي ابن حجر ـ في مغازي ابن عائذ

بسند منقطع أن خالداً لما أخذ الراية قاتلهم قتالاً شديداً حتىٰ انحاز الفريقان عن غير هزيمة. و قفل المسلمون فمروا علىٰ طريقهم بقربة بها حصن كانوا في ذهابهم قتلوا من المسلمين رجلاً فحاصرهم حتى فتح اللّه عليهم عنوة وقتل خالد بن الوليد مقاتلتهم فسمىٰ ذلك المكان نقيع الدم إلىٰ اليوم [١].

ويظهر لنا مما قال ابن حجر وجمعه لإماطة الأذىٰ عن خالد أن القوم قد أعيتهم الحيل وضاقت بهم السبل وذهبوا كلّ مذهب ثم عادوا بخفي حنين. واضطروا في النهاية إلىٰ اعتبار انسحاب خالد بالجيش يعد نصراً وفتحاً.

ويبدو أنَّ ابن حجر لم يسترح لهذه النتيجة فاستنتجد بالروايات الّتي شكك بهابنفسه ثم قرر أن يمسك بمنتصف العصاة ويعلن أن خالداً قد هزم جزءاً من جيش الروم وفر بجيش المسلمين مخافة أن يتكاثر عليه الروم. وقد دعم ابن حجر موقفه بكلام العماد ابن كثير. إلا أنَّه علىٰ ما يبدو أستمر في بحثه كي يطرد الشك عن نفسه حتىٰ اكتشف رواية ابن عائذ وهي بسند منقطع وحالها كحال سابقتها من الروايات لكنها جاءت بخبر جديد التقطته وهو سعيد لينصر به ابن الوليد.

ورواية ابن عائذ هذه علىٰ ما يبدو من ظاهرها أنها من اختراع من لا يفقه بأمور الحرب. إذ كيف لجيش منهزم فار من وجه الروم الذين يفوقونه عدّة وعتاداً يقف في الطريق ويحاصر حصناً أو قرية وينال منها..؟

وهل هذا الحصار من اجتهاد خالد بن الوليد؟

و كيف أطاعه المسلمون في هذا الأمر؟

ينقل ابن حجر تأمر خالد علىٰ المسلمين في مؤتة دون قرار من الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وبعد قوله تعليقاً علىٰ تولّي خالد إمارة الجيش: وفيه ـ أي في رواية مؤتة ـ جواز التأمر في الحرب بغير تأمير ثم ينقل قول الطحاوي: هذا أصل يؤخذ منه أن علىٰ المسلمين أنْ يقدموا رجلاً إذا غاب الإمام يقوم مقامه إلىٰ أنْ يحضر. وفيه ـ أي في فعل خالد ـ جواز الاجتهاد في حياة النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وفيه علم ظاهر من أعلام النبوة وفضيلة ظاهرة

---

١. فتح الباري ج ٧ / كتاب المغازي / باب غزوة مؤتة.

لخالد بن الوليد[١].

لقد عودنا الفقهاء على الدوام في مواجهة الروايات أن يهملوا جوهرها ومدلولاتها الظاهرة بل وسندها وينشغلوا بمحاولة استنباط الأحكام والمفاهيم الفقهية منها وهو ما يظهر من كلام ابن حجر والطحاوي[٢].

وكان من الأجدر بعد هذا كله أن يكتفي ابن حجر بما نقل من مغازي موسى ابن عقبة ما دامت هي أصح المغازي في نظره. فقد أكدت الرواية الّتي نقلها عنه أن خالد بن الوليد هزم العدو وأظهر المسلمين.

إلا أن ابن حجر لم يسترح لهذه الرواية كما هو ظاهر واستنجد بروايات أخرى زادت من الشكوك حول دور خالد في غزوة مؤتة..

ونأتي إلى ثالث التساؤلات حول رواية مؤتة الّتي نناقشها هنا وهو يدور حول القول المنسوب للرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ : حتى أخذ الراية سيف من سيوف اللّه .. فإن هذا القول يعني أن هناك سيوف غيره. لأن (من) هنا تفيد التبعيض ونخلص من هذا فكرة سيف اللّه لا ترتبط بخالد وحده على أقل تقدير.

وقد نقل ابن حجر رواية عن أبي قتادة تقول : ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه . ثم قال رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: اللّهم أنه سيف من سيوفك فأنت تنصره .

قال ابن حجر : فمن يومئذ سُمّي سيفَ اللّهِ[٣].

ثم نقل رواية أخرى تقول : ثم أخذها سيف من سيوف اللّه خالد بن الوليد ففتح اللّه عليهم[٤].

ولم يشر ابن حجر إلى مصدر هاتين الروايتين ودرجتهما من حيث السند. إلا أنه بذكرهما أكد أنَّ خالداً ليس هو وحده سيف اللّه فهو سيف من سيوف اللّه وهذا على أقل

---

١. المرجع السابق ..
٢. انظر نماذج من هذا الأمر في كتاب دفاع عن الرسول (ص) ضد الفقهاء والمحدثين.
٣. فتح الباري وانظر تاريخ الإسلام للذهبي .
٤. المرجع السابق .

تقدير يضعف من درجته ويقلل من مكانته ودوره العسكري في حياة الرسول ﴿ ﷺ ﴾.

ولننتقل بعد هذا كلّه إلى عرض مشاهد من مدينة الرسول ﴿ ﷺ ﴾ تصور لنا عودة جيش المسلمين من مؤتة وكيف استقبله أهل المدينة ..؟

يروي ابن هشام عن ابن اسحق عن عروة بن الزبير قال : فلما دنوا من حول المدينة تلقاهم رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله على دابة فقال : خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر . فأُتِيَ بعبدِ اللهِ فأخذه فحمله بين يديه . قال : وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون : يا فرار. فررتم في سبيل الله. فيقول رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ :ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله [١].

ويُروى أن أم سلمة ـ زوج النبي ﴿ ﷺ ﴾ ـ سألت امرأة سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة : مالي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﴿ ﷺ ﴾؟

قالت : والله ما يستطيع أن يخرج. كلما خرج صاح به الناس : يا فرار. فررتم في سبيل الله. حتىٰ قعد في بيته فما يخرج [٢].

ومن هاتين الروايتين يتبين لنا أن ما حدث في مؤتة كان نكبة وهزيمة منكرة للمسلمين وما زاد الطين بلة هو فرارهم من وجه الروم بقيادة خالد. فلعل هذا الجرم في نظر أهل المدينة كان سببه طاعة خالد وتسليم زمام الأمر له وهو حديث عهد بالإسلام وليس محل ثقة المسلمين .

ولا شك أن خالداً ناله ما نال القوم من تحقير وازدراء إلا أن الرواية لم تكشف هذا الأمر بالطبع.

ويبدو أن الرواة قد حاولوا تخفيف حدّة الموقف وإبعاد خالد عن دائرة الشك فنسبوا إلى الرسول ﴿ ﷺ ﴾ قوله : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار. لكن موقف أهل المدينة يثبت عدم صحة هذا القول . ولو كان النبي ﴿ ﷺ ﴾ قد قال ذلك حقاً ما اضطر هشام

---

١. سيرة ابن هشام وانظر تاريخ الذهبي .
٢. سيرة ابن هشام وانظر تاريخ الذهبي .

بن العاص إلى القعود في بيته واعتزال الصلاة مع الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ خوفاً من الناس. ولا شك أن هذا الموقف قد شاركه فيه الكثير ممن كان معه في مؤتة.

وليس من المقبول عقلاً أن يعصي أهل المدينة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ ويتخذوا مثل هذا الموقف المعادي من جيش المسلمين ويخالفوا أمره فيه.

إن الأمر على ما يبدو على العكس من ذلك. وإذا كان الرواة والفقهاء يحاولون إبراز دور خالد في مؤتة ليستحق لقب سيف الله بينما هو في الحقيقة لم يقم بدور يذكر فيها. فأين دوره في الغزوات اللاحقة؟

يروى: قتل رجل من حمير رجلاً من العدو ـ في مؤتة ـ فأراد سلبه فمنعه خالد بن الوليد وكان والياً عليهم. فأتى عوف بن مالك إلى رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فأخبره.

فقال لخالد: ما منعك أن تعطيه سلبه؟ قال: استكثرته يا رسول الله.

قال: ادفعه إليه. فمر خالد بعوف فجر بردائه. ثم قال: هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله. فسمعه الرسول فاستغضب فقال: لا تعطيه يا خالد. لا تعطه يا خالد. هل أنتم تاركون لي امرائي[1].

ومثل هذه الرواية التي تحاول إبراز دور خالد في مؤتة وإظهاره بمظهر المنتصر تتناقض تناقضاً صارخاً مع الروايات السابقة التي هي محل اجماع القوم. إذ الثابت أن المسلمين فروا من ساحة المعركة فكيف استولوا على الغنائم. وكيف حملوها معهم إلى المدينة؟.

والثابت أيضاً أن خالداً لم يَلِ الإمارة في مؤتة بأمر الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وإنما تولاها قدراً و دون ترتيب سابق. فكيف تجعله الرواية والياً على المسلمين. وكيف يعده الرسول من امرائه؟

وإذا ما سلمنا بصحة الرواية فكيف بخالد أن يمنع الرجل حقّه الشرعي في سلب قتيله؟ و كيف برسول الله أن يبطل حكم خالد ثم يعود ويؤيده ويحرم الرجل من الغنيمة لمجرّد الوسيط ـ عوف بن مالك ـ اصطدم بخالد؟

---

١. مسلم. كتاب الجهاد والسير. باب استحقاق القاتل سلبه. وأنظر تاريخ الذهبي.

إن هذه الرواية إنما تحاول أن تبرز خالداً في دور المجتهد وتظهر الرسول ﴿ ﷺ ﴾ وقد بارك هذا الاجتهاد من قبل أميره وقاده الغضب إلى تبديل أحكام الشرع ..وكالعادة استنبط الفقهاء من هذه الرواية أن السلب ليس حقاً للقاتل وإنما يكون له بتنفيل الإمام. فالنبي ﴿ ﷺ ﴾ أمر خالداً أولاً بإعطائه فوجب عليه ذلك ثم نسخه بقوله لا تعطه لئلا يجتريء الناس على الولاة. وهو حق له عند الشافعية[١].

لقد خاض الفقهاء في الرواية باعتبار أن خالداً من ولاة الرسول ولم يعنهم في شيء نص الرواية وتناقضها مع غيرها من الروايات . وقد أوقعتهم في تناقض حيث أن اعتبار خالد من ولاة النبي ﴿ ﷺ ﴾ لم يقل به أحد منهم وإجماعهم على أنّ خالداً قد تولى أمر جيش مؤتة بغير تأمير وقد أفاض ابن حجر في ذلك .. والغريب أن القوم يتداولون أبياتاً من الشعر تطعن في خالد ومعه عثمان بن طلحة الذي أسلم معه رأينا أن نختم بها هذا الفصل :

قال ابن اسحق : قال ابن الزبعرى السهمي :

أنشد عثمان بن طلحة حلفنا	وملقي نعال القوم عند المقبل
وما عقد الآباء من كلّ حلفة	وما خالد من مثلها بمحلل
أمفتاح بيت غير بيتك تبتغي	وما تبتغي من مجد بيت مؤثل
فلا تأمنن خالداً بعد هذه	وعثمان جاءا بالدحيم المعضل[٢]

ما بعد مؤتة..

أجمعت الروايات على مشاركة خالد في فتح مكة إلا أنها لم تشر إلى دور بارز قام به في الغزوة يتلائم مع مكانته كسيف من سيوف الله ..

ثم بعث رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ فيما حول مكة السرايا تدعو إلى الله ولم يأمرهم بقتال وكان ممن بعث خالد بن الوليد.

---

١. المرجع السابق. هامش طبعة استامبول. وانظر شرح النووي على صحيح مسلم.
٢. سيرة ابن هشام.

يروى: بعث رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعياً. ولم يبعثه مقاتلاً ومعه قبائل من العرب. فوطئوا بني جذيمة. فلما رآه القوم أخذوا السلاح. فقال خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا. فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا. ثم عرضهم علىٰ السيف فقتل من قتل منهم. فلما انتهى الخبر إلىٰ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ رفع يديه إلىٰ السماء ثم قال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد[١].

لقد جاءت هذه الرواية لتؤكد لنا من جديد أن خالد بن الوليد لم يكن سيف الله ولم يكن من المتخلقين بخلق الإسلام. فإن سيف الله لا يقتل الأبرياء ويخالف أمر الرسول ويتسبب في تشويه صورة الإسلام في أعين العرب المقبلين عليه كملاذ آمن لهم..

وإذا كان ما فعله خالد هو مخالف لأمر الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فما هو الدافع الذي دفع به إلىٰ ارتكاب هذا الجرم؟

لنترك ابن هشام يجيب علىٰ هذا السؤال ويعلن لنا أن خالداً كان لديه ثأر عند بني جذيمة لقتلهم عمه في الجاهلية ونقل لنا مشادة بين عبد الرحمن بن عوف وخالد حول هذه الحادثة.

قال ابن عوف: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام.

فقال خالد: إنما ثأرت بأبيك..

قال عبد الرحمن: كذبت قد قتلت قاتل أبي ولكنك ثأرت بعمل الفاكه بن المغيرة. حتىٰ كان بينهما شر[٢].

و في غزوة ذات السلاسل أمر رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ عليهما عمرو بن العاص ولم يؤمر خالد بن الوليد وكان بين أفراد الجيش أبو بكر وعمر ولم تشر الروايات إلىٰ

---

١. المرجع السابق، وانظر تاريخ الذهبي. وأسد الغابة والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر. والبخاري كتاب المغازي وجميع هذه الروايات تؤكد على أن الرسول (ص) أرسل علياً إلىٰ بني جزيمة ليصلح ما أفسد خالد.

٢. المرجع السابق.

خالد[١].

هل كان من بين أفراد هذه الغزوة . أم أن النبي أعفاه من الغزو؟

وفي كلتا الحالتين الأمر ليس في صالح خالد وهو يقود إلى الشك في دوره ومكانته .....وفي غزوة حنين فر الجميع من حول الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ كما نص على ذلك القرآن وأشارت الروايات باستثناء نفر قليل ليس من بينهم خالد..

قال ابن هشام: وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر. ومن أهل بيته **علي بن أبي طالب** ﴿عليه السلام﴾ والعباس وأبو سفيان بن الحرث والفضل بن العباس وربيعة بن الحرث وأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن بن عبيد..

وهذه الأسماء هي محل إجماع الرواة والمؤرخين [٢].

فأين كان سيف الله إذن ؟

يروى أن **رسول الله** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ مرَّ يومئذ ـ يوم حنين ـ بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد والناس متقصفون ـ مجتمعون ـ عليها . فقال : ما هذا؟

فقالوا : امرأة قتلها خالد بن الوليد..

فقال **رسول الله** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ لبعض من معه : أدرك خالداً فقل له إن **رسول الله** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً [٣].

هذا هو سيف الله . سيف مسلط على الأبرياء تارة وعلى النساء تارة أخرى وما صنع شيئاً في سبيل الله ..

ومثلما حاول الفقهاء والرواة رفع مكانة خالد وتعظيم دوره . جاءت الروايات أيضاً لتحط من دوره وتكشف حقيقته وتؤكد أنَّ سيف الله أكذوبة لا أساس لها من الصحة.

ورغم هذه الروايات الصريحة التي يتداولها القوم يأتي ابن عبد البرّ ليقول في خالد: لم يزل منذ أن أسلم يوليه **الرسول** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ أعنة الخيل فيكون في مقدمتها في محاربة

---

١. انظر سيرة ابن هشام وتاريخ الذهبي والدرر والبخاري كتاب فضائل الصحابة باب فضل أبي بكر و كتاب المغازي . و مسلم كتاب الفضائل باب فضل أبي بكر.

٢. انظر سيرة ابن هشام وتاريخ الذهبي والدرر والمغازي للواقدي و كتب التاريخ الأُخرى.

٣. سيرة ابن هشام.

العرب [١].

فمن الذي كان يوليه **الرسول** ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ أعنة الخيل قبل إسلام خالد؟

هل نحّاهُ وعزلهُ الرسولُ بعد إسلام خالد؟

وإذا صحّ هذا الكلام فلماذا لم يولّه أعنة الخيل في غزوة ذات السلاسل والغزوات الأخرىٰ ؟

وفي غزوة تبوك تلك الغزوة التي لعب فيها المنافقون دوراً كبيراً فصله القرآن في سورة التوبة وفصلته الروايات ــ لا نجد لخالد بن الوليد ذكراً فيها لا من قريب ولا من بعيد [٢].

ولقد أبرزت كتب السيرة والروايات دور خالد فيما بعد في حدود عدد من السرايا الصغيرة المحدودة الدور.

من ذلك بعثه إلىٰ أكيدر دومة وهو أكيدر بن عبد الملك رجل من كنده كان ملكاً عليها وكان نصرانياً. فاستلبه خالد ــ أي أَسَرَهُ ــ وبعث به إلىٰ **رسول الله** ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ [٣].

ويروى أنّ **رسول الله** ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ بعث خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادي الأولى سنة عشر إلى بني الحرث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم. ثلاثاً.. فأسلم الناس وأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام و كتاب الله وَسُنَّة نبيّه ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ [٤].

ويروى أنّ **رسول الله** ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ بعث **علي بن أبي طالب** ﴿ عليه السلام ﴾ إلى اليمن وبعث خالد في جند آخر وقال إن التقيتما فالأمير **علي بن أبي طالب** ﴿ عليه السلام ﴾ [٥].

وفي بعث أسامة بن زيد جعل **رسول الله** ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ تحت إمرته كبار الصحابة بما

---

١. الاستيعاب.

٢. انظر أحداث سورة التوبة في كتب التفسير وأحداث غزوة تبوك في كتب السيرة والتاريخ.

٣. سيرة ابن هشام وانظر تاريخ الإسلام والمغازي للواقدي والإصابة.

٤. المرجع السابق وانظر المراجع الأخرىٰ.

٥. المرجع السابق. وفي رواية البخاري أن رسول الله (ص) بعث خالد أولاً فأقام فيهم ستة أشهر يدعوهم إلىٰ الإسلام فلم يجيبوه. ثم بعث علياً فقرأ عليهم كتاب الله فأسلموا. فكتب إلىٰ رسول الله بذلك.. (كتاب المغازي).

وكانت هذه البعثة قبل حجة الوداع.

ويظهر لنا من هذا أن خالداً فشل في مهمته كما يظهر لنا تناقض هذه الرواية مع سابقتها الخاصة بأهل نجران.

فيهم أبو بكر و عمر وخالد بن الوليد بالطبع[١].

ومن هذه الروايات يتضح لنا أن الدور العسكري لخالد كان محدوداً ولم يكن بذا الدور الذي يتلائم مع فكرة سيف الله المسلول ...

الرواة والروايات ..

ألقينا الضوء فيما سبق على مجموعة من الروايات المشهورة على لسان القوم والتي تلقي الضوء على التاريخ العسكري لخالد بن الوليد ودوره في الغزوات التي شارك فيها بعد إسلامه .

وهنا نلقي الضوء على عدد من الروايات التي حاول الرواة من خلالها دعم الدور العسكري لخالد من جهة . ومن جهة أخرى دعم وضعه الشرعي وإبرازه بين صحابة الرسول ونفي الشبهات التي دارت من حوله ..

يُروىٰ عن أبي هريرة قال : نزلنا مع **رسول الله**﴿ ﷺ ﴾ منزلاً فجعل الناس يمرون فيقول **رسول الله**﴿ ﷺ ﴾: من هذا فأقول فلان. حتى مرَّ خالد. فقال : من هذا؟ قلت خالد بن الوليد. فقال : نعم عبدالله هذا سيف من سيوف الله[٢].

ويُروىٰ عندما استعمل عمر أبا عبيدة علىٰ الشام وعزل خالد بن الوليد. فقال خالد : بعث عليكم أمين هذه الأمة . سمعت **رسول الله**﴿ ﷺ ﴾ بقوله. فقال أبوعبيدة : سمعت **رسول الله**﴿ ﷺ ﴾ يقول : خالد سيف من سيوف الله نعم فتىٰ العشيرة[٣]..

ويُروى عن الرسول قوله : لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله صبَّهُ الله على الكفار[٤].

ويُروى عن خالد قوله : لقد اندق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما صبرت معي إلا

---

١. انظر تفاصيل بعث أسامة في سيرة ابن هشام وفتح الباري والمغازي و كتب التاريخ وانظر كتاب السيف والسياسة.

٢. الإصابة ترجمة خالد وقال رجاله ثقات . ورواه أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك..

٣. مسند أحمد وانظر الإصابة.

٤. رواه أبي يعلى وانظر الإصابة . وفي رواية أحمد : علىٰ الكفار والمنافقين ورواها الحاكم وابن حبان.

صفيحة يمانية[١].

ويروى عن أبي هريرة أن **رسول الله**﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ قال: إن خالداً احتبس أدراعه واعتاده في سبيل الله[٢].

ويُروىٰ أن خالداً فقد قلنسوته يوم اليرموك. فبحثوا عنها حتى ووجدوها فإذا هي خلقة ـ أي قديمة مهترئة ـ فسئل عن ذلك فقال: اعتمر **النبي**﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فحلق رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة. فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا تبين لي النصر[٣].

ويُروىٰ: لما قدم خالد بن الوليد الحرَّة أتىٰ بِسِمٍّ فوضعه في راحته ثم سَمَّىٰ وشربه فلم يضره[٤].

ويُروىٰ: أتىٰ خالدَ بنَ الوليدِ رجلٌ مَعَهُ زقٌّ خَمْرٍ. فقال اللهم اجعله عسلاً فصار عسلاً[٥].

ويُروىٰ عن خالد بن الوليد قوله: كنا مع **النبي**﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يوم خيبر فبعثني أنادي الصلاة جامعة لا تدخل الجنة إلا نفس مسلمة[٦].

ويُروى أن خالداً دخل مع **رسول الله**﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ بيت ميمونة فأتى بضبٍّ مشويّ فأهوى إليه رسول الله يريد أنْ يأكل منه. فقالوا يا **رسول الله** هو ضبّ. فرفع **رسول الله**﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يده. فقلت ـ أي خالد ـ أحرام هو؟ قال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: لا. ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه. قال خالد: فاجتزرته فأكلته **ورسول الله** ينظر[٧].

ويُروى على لسان خالد قوله حين أسلم وبايع **النبي**﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: فوالله ما كان

---

١. البخاري ومسلم وانظر الإصابة..
٢. البخاري ومسلم..
٣. الإصابة وابي يعلى وهي رواية مشهورة في كتب التاريخ.
٤. أبو يعلىٰ والإصابة.
٥. ابن أبي الدنيا والإصابة.
٦. مستدرك الحاكم.
٧. أسد الغابة، ترجمة خالد.

رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ من يوم أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه[١].

وبالنسبة للرواية الأولى فهي رُويت على لسان أبي هريرة وما أدراك ما أبي هريرة ورويت أيضاً على لسان أبي بكر حين وجه خالد لقتال العرب بعد وفاة الرسول ﴿ ﷺ ﴾ فكلم في ذلك. فأبى أن يرده وقال سمعت رسولِ الله ﴿ ﷺ ﴾.. الرواية. ورُويت بطريق ثالث عن أبي عبيدة بن الجراح ..

ويلاحظ هنا أن الرواة الثلاثة من المهاجرين. وهم الذين ناصروا أبا بكر في سقيفة بني ساعدة.

من هنا نضع عدة علامات للاستفهام حول الرواية. خاصة أن البخاري ومسلم تجنباها. وأن القوم لا يشهدون بصحة شيء في مناقب خالد عدا ما يتعلق بدوره العسكري و قد روىٰ الترمذي هذه الرواية بطريق آخر عن زيد بن أسلم عن أبي هريرة. وقد أَفتىٰ فقهاء علم الرجال أن زيداً لم يسمع من أبي هريرة..

أما الحديث الثالث فهو مرسل. ثم أين هم الكفار والمنافقين الذين سلط خالد عليهم سيفه ؟

إِن التاريخ يشهد أَنّ خالداً قد سلّطَ سيفَه علىٰ المسلمينَ وهو ما برز بوضوح في عهد أبي بكر..

أَما الحديث الرابع فالبرهان على بطلانه هو فراره ومن معه من مؤتة وإِن صح فهو لا يخدم الرجل في شيء.

والحديث الخامس ظاهر البطلان إِذ أنه لا يعقل أَنْ يقولَ الرسولُ ﴿ ﷺ ﴾ هذا الكلام على خالد وهو ليس له دور يذكر في دائرة الجهاد والغزو..

أما حديث القلنسوة فقد جاء بها الرواة من باب إِثبات الكرامات لخالد كما اثبتوا له الكرامة في أمرِ السمِّ والخمرِ في الرواية السابعة والثامنة.

والحمدُ للّه أنّ أيّ من هذه الروايات لم ترد في الكتب المعتمدة عند القوم.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: لماذا لم تبرز هذه الخصلة من شعر رسول الله مع خالد

---

١. تاريخ الإسلام للذهبي وانظر طبقات ابن سعد..

وهو يقود حروبه ضد العرب بعد وفاة **النبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ ؟

ولماذا عزله عمر في وقت كانت فيه الغزوات في حاجة إليه ؟

يبدو أن عمر عزله بعد أن فقد خصلة **الرسول** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾.

أما رواية خيبر فهي ظاهرة الكذب فإجماع القوم على أن خالداً لم يحضر خيبر ولم يكن من المسلمين سنة ست . فهي إذن رواية لا تحتاج إلى تعليق .

ورواية الضب إنما هي تعكس خروج خالد عن حدّ الأدب مع **النبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ والصحابة إذ كيف تسول له نفسه أن ينتزع الضب ويأكله وحده على مشهدٍ من الناس وهو يعرف أن الرسول يعافه ؟

وكان الواجب عليه على الأقل أن يدعو الناس لمشاركته بعيداً عن الرسول ـــ أما الرواية الأخيرة فالخلل فيها واضح . فلم تشهد الروايات التى جمعها القوم عن خالد بذلك. بل أن الروايات الأخرى التي تتعلق بقصة اسلامه لم تنص على ذلك. بل نصت على أنّه بايع وانصرف [١] .

ومن الملاحظ أن أغلب هذه الروايات الّتي تتعلق بخالد قد رواها هو عن نفسه وهذا في ذاته يثير الشك في هذه الروايات وحاله فيها كحال أبي هريرة وعائشة فكلاهما روى فضائله على لسانه وليس على لسان الغير..

ومن جانب آخر فإن الذين رووا هذه الروايات حصروها في دائرة المهاجرين وفي نفر محدد منهم وهم :

أبو بكر ..

أبو عبيدة بن الجراح ..

عمرو بن العاص ..

عبدالرحمن بن عوف .

أبو هريرة ..

و جميع هؤلاء دارت حولهم الكثير من الشكوك فيما يتعلق بمكانتهم ومناقبهم

---

١. انظر ابن هشام والحاكم والإصابة.

وعلاقتهم بالرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ ثم موقفهم من الإمام **عليّ** و **آل البيت** ﴿عليهم السلام﴾ و دورهم في أحداث سقيفة بني ساعدة ويحتاج هذا الأمر إلى بحوث مستقلة خاصة بهم سوف نكتبها في القريب العاجل إنْ شاءَ اللّه تعالىٰ[١].

النتائج

يظهر لنا ممّا سبق أنّ خالداً بدأ دوره العسكري مع غزوة مؤتة ثم شارك بعد ذلك في فتح مكّة وغزوة حنين ولم تشر الروايات إلى دوره في الغزوات اللاحقة بل ربطته ببعض البعوث ..

وهذه هي أولى النتائج ..

أما النتيجة الثانية فهي أنّ دوره في الغزوات الّتي شارك فيها كان دوراً هامشياً..

والنتيجة الثالثة أنّهُ انحرف عن نهج الإسلام وخالف أمر **الرسول**[٢] حين تسلم إمرة البعوث الّتي كلف بها و حين مارس دوره القتالي وهو ما يظهر لنا من حادثة بني جزيمة وقتله المرأة في غزوة حنين.

والنتيجة الرابعة أنّهُ بتتبع شعر حسان بن ثابت الّذي كان يرصد فيه حركة **الرسول**[٣] وغزواته وجهاد الصحابة وأدوار بعضهم البارزة في بعض الغزوات ــ لا نجد أية إشارة لخالد بن الوليد ومعجزاته العسكرية[٤].

النتيجة الخامسة أنّ الغزوات الّتي جاءت بعد إسلام خالد لم تكن لها تلك الأهمية والوزن ــ باستثناء فتح مكة وهو لم يكن له دور بارز فيها ــ حتى يستحق بسببها لقب سيف الله المسلول فضلاً عن كونه لم يلعب فيها دوراً في أحد.وهو بهذا يوحي و كأن

---

١. حول هذا الأمر انظر كتاب الخدعة. وعقائد السنة وعقائد الشيعة والسيف والسياسة، ورجال حول الرسول الحقيقة والأسطورة.

٢. حول هذا الأمر انظر كتاب الخدعة. وعقائد السنة وعقائد الشيعة والسيف والسياسة، ورجال حول الرسول الحقيقة والأسطورة.

٣. حول هذا الأمر انظر كتاب الخدعة. وعقائد السنة وعقائد الشيعة والسيف والسياسة، ورجال حول الرسول الحقيقة والأسطورة.

٤. انظر نماذج من هذا الشعر في سيرة ابن هشام.

غزوة بدر لا قيمة لها حتى أنَّه لم يستحق أحد من المشاركين فيها لقب سيف اللّه المسلول ..

وإن الذين حاولوا اختراع مناقب لخالد خارج دائرة الحرب إنَّما أضروا الرجل وأكثروا الشبهات من حوله.

وخلاصة الأمر أن جميع هذه النتائج تقودنا في النهاية إلىٰ الإمام علي﴿عليه السلام﴾ كما تقودنا الروايات والنصوص الأخرىٰ التي ارتبطت به والّتي تشير في قطعية وثبوت إلىٰ كونه سيف اللّه المسلول ..

نهج الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ في الحكم

و دوره في تشكيل مسار الخلافة الرَّاشدة

الدكتور عبد المجيد حسين زراقط

استاذ في الجامعة اللبنانيّة

السُّوال : لم كانت «قريش»[1] معاديةً للإمام علي ﴿عليه السلام﴾ !؟

ثمَّة سؤال طُرح من قبل، و لا يزال يُطرح اليوم، من دون أن يلق إجابةً حاسمة، وهو : لماذا وقف القرشيّون بخاصَّة، ومالكو الثَّروة بعامَّة، موقفاً معادياً للإمام علي ﴿عليه السلام﴾، وعملوا جهدهم من أجل الحيلولة دون تولِّيه الخلافة، على الرّغم من معرفتهم بموقعه من النَّبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ و دوره في التَّاريخ الإسلامي، و بأهليّته لها وصيَّةً وكفاءة؟

أثيرت هذه المسألة في زمن معاصريها، فعجب المقداد بن الأسود ممَّا أوتيه أهل البيت ، ﴿عليهم السلام﴾ فقال :

«ما رأيت مثل ما أوتي إلى أهل هذا البيت بعد نبيِّهم ! إنِّي لأعجب من قريش أنَّهم تركوا رجلاً ما أقول أن أحداً أعلم و لا أقضىٰ منه بالعدل !»، و تمنَّىٰ أَنْ يجدَ أعواناً. فَأَضَافَ : «أما، والله لو أَجَدِ عليه أعواناً!»[2].

---

١. تعني « قريش » ، هنا ، ذلك الملأ منها الذي يعنيه الخليفة عمر بن الخطاب بقوله : «والله لا تجتمع عليه قريش أبداً».

٢. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة : المطبعة الحسينيَّة المصريَّة، ط ١، مجلد، ج ٥، ص ٣٧ و ٣٨.

وتثار هذه المسألة حديثاً، فقد لاحظ المستشرق **نيكيتيا اليسييف** أن القرشيِّين كانوا مصرِّين على تقليد الخلافة لواحدٍ منهم على أن يكون الأكثر حزماً في مواجهة أسرة **النبي (علي و ذويه)**»[١].

وفي ما يأتي نحاول أن نتلمَّس إجابةً من خلال استقراء الوقائع التَّاريخيَّة.

معرفة «قريش» حق الإمام علي﴿عليه السلام﴾

تفيد هذه الوقائع أن القرشيِّين كانوا يعرفون ما يعرفه المقداد، فنقرأ في هذه الوقائع أن عبد الرحمن بن عوف قال للإمام **علي﴿عليه السلام﴾**، في أثناء مداولات «شورى الستَّة» :

«إنَّك تقول: إني أحقُّ من حَضَرَ بالأمر لقرابتك و سابقتك وحسن أثرك في الدِّين، ولم تُبْعِد»[٢].

و تفيد هذه الوقائع، أيضاً، أنَّهم كانوا يعرفون طبيعة ما يفعلونه، وهو «ابتزاز الحق»، على حدّ تعبير معاوية بن أبي سفيان، عندما كتب إلى محمَّد بن أبي بكر، فقال :

«...و قد كنّا، وأبوك معنا، في حياة **نبيِّنا﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾**، نرى حقّ **ابن أبي طالب﴿عليه السلام﴾** لازماً لنا، و فضله مبرَّزاً علينا، فلما اختار اللّٰه لنبيِّه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ ما عنده، وأتمَّ له ما وعده، وأظهر دعوته، وأفلج حجَّته، قبضه اللّٰه إليه، فكان أبوك و فاروقه أوَّل من ابتزّه و خالفه. على ذلك اتَّفقا واتَّسقا... فإن يكن ما نحن فيه صواباً فأبوك أوَّله، وإن يك جَوراً فأبوك أسَّسه، ونحن شركاءه، وبهديه أخذنا، و بفعله اقتدينا..»[٣].

يقرّ معاوية بـ«أنَّنا كنَّا نرى أنَّ حق **ابن أبي طالب** لازم لنا وفضله مبرَّزاً علينا..»، فما هو هذا الحق؟ نرى أنه كان يشير، من دون أن يصرِّح، إلى النّصوص النبويَّة التي تقرُّ هذا الحق، وهي الأحاديث النبويَّة :

---

١. نيكيتيا اليسييف، الشرق الإسلامي في العصر الوسيط، ترجمة منصور أبو الحسن، بيروت : الكتاب الحديث، ١٩٨٦، ص ٩٣.

٢. الطبري، م. س، ٥ / ٣٦.

٣. نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين، تحقيق و شرح : عبدالسلام‌هارون، قم: مكتبة آية اللّٰه العظمى المرعشي النجفي، ط ٢، ١٣٨٢ هـ ص ١٢٠.

«**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه**»؛ «**إنَّ عليّاً منّي وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي**»؛ «**إن هذا أخي ووصيّي و خليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا**»؛ «**حديث الثقلين**»؛ «**أنت منّي بمنزلة هارون من موسى**»؛ «**يكون بعدي اثنا عشر خليفة كلهم من قريش**»[١].

وإن كان معاوية لم يصرِّح بطبيعة هذا الحق وأصوله ، فإن الخليفة عمر بن الخطاب قد أشار في حديث له مع عبدالله‌بن عباس إلى ذلك عندما قال مرّةً:

«لقد كان في **رسول الله** من أمره ذروٌ (طرف) من قول ...» ، ومرَّة أخرى :

«لقد كان **النبي** يربع في أمره وقتاً ما، و لقد أراد في مرضه أن يصرِّح باسمه ، فمنعت من ذلك، إشفاقاً وحيطةً على الإسلام ! ورب هذه البنيَّة لا تجتمع عليه قريش أبداً»[٢].

وفي حوار السيِّدة أم سَلَمة والسيِّدة عائشة، تقرّ الثانية أن **النبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ أجابها عندما سألته : من كنت مستخلفاً عليهم ؟

«**خاصف النَّعل**»، فنظرت فلم تر سوى **عليّ بن أبي طالب**، فقال لها الرسول: «هو ذاك»[٣].

وأقر سعد بن عبادة، فذكر نصّاً يوجب ولاية الإمام **علي بن أبي طالب** ﴿عليه السلام﴾ ، فقال له ابنه قيس : أنت سمعت **رسول الله** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يقول هذا الكلام في **علي بن أبي طالب** ﴿عليه السلام﴾ ، ثم تطلب الخلافة، ويقول أصحابك : منّا أمير و منكم أمير! ؟ لا كلمتك والله من رأسي بعد هذا كلمة أبداً[٤].

و هكذا نرى أن القرشِّين والمسلمين الآخرين كانوا يعرفون حق عليّ ﴿عليه السلام﴾ و فضله، لكنَّ القرشيّين ابتزُّوا هذا الحق، و سوَّغ الخليفة عمر ذلك بقوله :

«**إشفاقاً و حيطةً على الإسلام !**» لأن قريشاً لا تجتمع عليه أبداً. فقريش إذاً هي صاحبة القرار، وقد قرَّر الخليفة أبو بكر ذلك، فقال في اجتماع السقيفة: «**إن العرب لا تعرف هذا الأمر**

---

١. راجع : صائب عبد الحميد، مسار الإسلام بعد الرسول ... تأريخ الإسلام الثقافي والسياسي، بيروت : الغدير، ص ١٦٤ ـ ١٧٤، وفيه نص الأحاديث وتوثيق لها.

٢. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبوالفضل‌إبراهيم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربيَّة، ١٢ / ٢١ .

٣. م . ن، ٦ / ٢١٧ و ٢١٨، ابن أعثم الكوفي، الفتوح، بيروت : دار الكتب العلميَّة، ١٤٠٦ هـ، ١ / ٤٥٦ . عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، ١٩٩١ م، ٣ / ٣٨.

٤. شرح نهج البلاغة، م. س، ٦ / ٤٤.

إلاَّ لهذا الحيِّ من قريش»[١]، وهي لا تجتمع على **عليٍّ** ﴿عليه السلام﴾، فلم كان هذان الأمران ؟

أسباب لها نصيبٌ من الصحَّة

في حديث دار بين ابن عباس والخليفة عمر بن الخطاب قال الخليفة:

«ما أظنهم منعهم عنه إلاَّ أنَّه استصغره قومه »، فقال ابن عباس : واللّٰه ما استصغره اللّٰه حين أمره أن يأخذ براءة من صاحبك![٢]. وفي قول آخر جاء : «إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً، و ما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم»[٣]. و في قول ثالث جاء:

إنَّه وتر القرشيين، و في قول رابع جاء في حديث بين الخليفة عمر بن الخطاب وابن عباس ما يأتي :

قال الخليفة : «**كرهوا [قومكم] أن يجمعوا لكم النبوَّة والخلافة فَتَبْجَحُوا على قومكم بَجْحاً، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفّقت** ». فقال ابن عباس :

«**أمَّا قولك، يا أمير المؤمنين، اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفّقت، فلو أن قريشاً اختارت لأنفسها حيث اختار اللّٰه عز و جل لها لكان الصَّواب بيدها غير مردود ولا محسود ، وأما قولك إنهم كرهوا أن تكون لنا النبوَّة والخلافة فإن اللّٰه عز وجل وصف قوماً بالكراهية فقال:**

﴿ **ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل اللّٰه فأحبط أعمالهم**﴾ [محمد / ٩]. فقال الخليفة : «بلغني أنك تقول : إنما صرفوها عنَّا حسداً وظلماً. فقال ابن عبَّاس : أمّا قولك، يا أميرالمؤمنين ظلماً فقد تبيَّن للجاهل والحليم، وأما قولك حسداً فإن إبليس حسد آدم فنحن ولده». فقال الخليفة :

«هيهات أبت، واللّٰه، قلوبكم يا بني هاشم إلاَّ حسداً ما يحول وغشاً وضغناً ما يزول »،

---

١. الطبري، بيروت : دار الأعلمي، ٢ / ٤٤٦.
٢. شرح نهج البلاغة، م . س، ٦ / ٤٥، ١٢ / ٤٦.
٣. الطبري، المطبعة الحسنيّة ، م . س . ، ٥ / ٣٨.

فقال ابن عباس : «مهلا ، يا أمير المؤمنين، لا تصب قلوب قومٍ أذهب الله عنهم الرِّجس وطهَّرهم تطهيراً..»[١].

في سبيل البحث عن العامل الأساس

قد يكون في هذه الأسباب : حداثة السنّ و وتر القرشيَّين والرَّغبة في أن لا تجتمع النبوَّة والخلافة في بني هاشم، والخوف من استئثار بني هاشم بالخلافة إن صارت إليهم، نصيب من الصّحّة، ولكنَّ أيّاً منها لا يرقى لأن يمثل عاملاً أساساً في تشكيل المسار التّاريخي للمرحلة التأسيسيَّة في التاريخ الإسلامي، ما يقتضي أن نبحث في الوقائع عن العامل الأساس الذي حكم تَشَكُّلها في مسارها المعروف.

في ما سبق تبيَّن لنا أن قريشاً كانت صاحبة القرار، وأنَّ الخليفة عمر أقسم أنها لا تجتمع على علي ﴿عليه السلام﴾، وإشفاقاً وحيطةً منه على الإسلام، كما قال، منع أن يصرِّح النبيّ ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ باسمه، في إشارة منه إلى ما سمّاهُ ابن عباس «يوم الرزيَّة» عندما قال :

«**الرزيّة كل الرزية ما حال بين الرسول الله و بين أن يكتب لهم ذلك الكتاب**» ، فقد قال النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، في مرضه قبيل و فاته :

«**ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا به بعدي أبداً**» فقال الخليفة عمر :

«إن رسول الله قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله !»[٢]، فما الذي يجعل من قريش صاحبة القرار؟ ولم كان قرارها عدم الاجتماع على علي﴿عليه السلام﴾؟ ولم كان قرارها دافعاً إلى إشفاق الخليفة عمر على الإسلام فبادر إلى منع التصريح بالاسم، ثم أكمل مبادرته فأسهم هو وآخرون، منهم أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح، في عدم سير جيش أسامة إلى تنفيذ المهمَّة التي كلَّفه بها النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، وفي إتمام بيعة السقيفة؟

تقتضي الإجابة عن هذه الأسئلة معرفة أمرين : أوَّلهما موقع قريش في النِّظام الاجتماعي ورؤيتها إلى ما ينبغي أن يكون عليه حكمه، وثانيهما نهج الإمام علي﴿عليه السلام﴾ في بناء هذا

---

١. م. ن ، ٥ / ٣١ و ٣٢.

٢. م. ن ، دار الأعلمي، ٢ / ٦٤، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت : دار صادر ، ١٩٨٢، ٢ / ٣٢.

النِّظام وحكمه.

في سبيل بيان الأمرين يمكن القول، وبإيجاز:

موقع قريش في النظام الاجتماعي ورؤيتها...

تفيد المعطيات التَّاريخيَّة أن قريشاً تجمَّعٌ من خمسة وعشرين بطناً[١] ورث عرب المحطات التجاريَّة المقضيّ عليها كالبتراء و تدمر، وورث الخطَّ النبطي الذي استخدم في الكتابة؛ الأمر الذي ساعد على نموّ التجارة وتطوّر اللغة وتوحيدها، وورث نظام آلهةٍ ومهارة تجاريَّة...، إضافةً إلى موقع حصين لا يمكن أن يحدث له ما حدث للمحطَّات التجارية التي سبقته... هذه العوامل مجتمعة مكَّنت القرشيِّين من احتكار التجارة البرِّيَّة و من إقامة علاقات تجاريَّة بحرية مع الحبشة، وأكثر ما استفادوا منه، واستغلّوه لدرجة أنهم كانوا يربحون للدينار ديناراً حاجة الرّوم الماسَّة إلى تجارتهم. و قد تمكَّنوا، و بخاصَّة بعد أن عقدوا معاهدات مع مختلف القوى السِّياسيَّة التي كانت قائمة آنذاك، بما في ذلك القبائل العربيَّة القادرة على تهديد طريق القوافل، من تنظيم تجارتهم بشكل ممتاز، فمثَّلوا دور الوسيط التجاري بين عالمين: الأوروبي والآسيوي ــ الأفريقي، وهو و سيطٌ ماهر قدَّم له الروم أسواقاً تجاريَّة كالقلزم في مصر وغزة في فلسطين وبصرى في الشام، كما أنَّهم اتفقوا مع القبائل العربيَّة الأخرى على أشهر يُحرَّم فيها القتال، وتقام فيها الأسواق التجاريَّة والأدبيَّة في مناطق عديدة من شبه الجزيرة العربيَّة، مثل دومة الجندل وهجر وعمان وحضرموت و عدن و صنعاء، و كانوا ينتهون من هذه الأسواق إلى عكاظ في الأشهر الحرم[٢].

و كان الحجّ إلى مكة مصدراً آخر للرزق و فرض السيادة؛ إذ كسبوا به اعتراف العرب بمكة عاصمة دينيَّة لهم إضافة إلى كونها عاصمة اقتصاديَّة.

وقد فرض هذا سيادة التجار الأغنياء من قريش، مالكي الثروة والعبيد و زمام تسويق

---

١. راجع لمعرفة هذه البطون: المسعودي، مروج الذهب و معادن الجوهر، بيروت: الجامعة اللبنانية، ١٩٧٠، ٣/ ٨.

٢. راجع: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ٣/ ٣٢.

البضائع، وأوصل مجتمع مكّة إلى مستوى من الغنى والترف في جانب، ومن الفقر والتقشُّف في جانب آخر يعبِّر عنهما الخبر الذي يفيد أن عبد الله بن جدعان أرسل ألفي بعير لتجلب لهالبرّ والسَّمن للفقراء.

فهذا الخبر يدل، من نحو أوَّل، على مستوى من الثراء يتيح لثري واحد أن يتصدَّق بحمولة ألفي بعير من البرّ والسمن، ومن نحوٍ ثانٍ على وجود عدد كبير من الفقراء يحتاج إلى مثل هذه الحمولة، ومن نحوٍ ثالث على وصول التفاوت الطبقي إلى درجة من الحدَّة اضطرَّت هذا الثري إلى إجراء ما يحول دون تطور الأمور إلى صراعٍ يحول دون استمرار النِّظام الاجتماعي القائم وتطوّره.

وبغية توفير شروط الاستقرار والتطوّر عرفت مكّة ما سمِّي «**دار النَّدوة**»، وكانت كما يقول **المسعودي** «**للحلّ والعقد**»، وإذ بدا أنَّ فئةً من القرشيِّين تعتدي عقدت فئة أخرى ما سمِّي «**حلف الفضول**»، وهدفه إنصاف المظلوم من الظَّالم، وكان الدَّاعي إليه الزبير بن عبد المطلب بن هاشم، وكان المعتدي العاص بن وائل السَّهمي حليف الأمويين، ووالد عمرو بن العاص، والبطون التي عقدت هذا الحلف هي: بنو هاشم والمطَّلب وزُهرة وتيم والحارث[1]. ويرى السيِّد جعفر مرتضى أن هذا الحلف إنَّما كان ضدّ «**الأحلاف**» الذي أبوا معونة المعتديعليه: الزّبيدي، والأحلاف هم بنو عبد الدَّار ومخزوم وجمح وسهم وعدي بن كعب[2].

وفي الدَّلالة على طبيعة هذا الحلف، يروى أن **النبي**﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ أبدى في ما بعد رضاه عنه، وأن الإمام **الحسين**﴿عليه السلام﴾، عندما ظُلم في عهد معاوية هدَّد بالدَّعوة إلى «**حلف الفضول**».

نهجان متضادَّان:

وهكذا، كما يبدو، كان المجتمع المكّي في أمسّ الحاجة إلى نظام مجتمعي، وقد تبلورت فيه فئتان أساسيتان: أولاهما مالكو الثروة والعبيد، وهؤلاء توزَّعوا في اتجاهين رئيسيَّين،

---

١. المسعودي، م. س، ١٩٧٠، ٣ / ٩.

٢. السيد جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة الأعظم، قم، ١٤٠٠ هـ، ١ / ٩٧ ـ ١٠٨.

أوّلهما الممثَّل بالعاص بن وائل السهمي، حليف الأمويين، الظالم المعتدي، وثانيهما الممثَّل بالزبير بن عبد المطلب الدّاعي إلى إنصاف المظلوم ورد الاعتداء، وبعبدالله بن جدعان الذي أطعم الفقراء و كانت داره مكان عقد «**حلف الفضول**»، و ثانيهما الأعبد والحلفاء، وهؤلاء كانوا فقراء مضطهدين يبحثون عن خلاص.

في هذا الوقع جاء النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يدعو إلى الإسلام و ليقيم مجتمع العدالة، فكان الصّراع مع القرشيّين، وبخاصّة أصحاب الاتجاه الأوّل مريراً. و في سبيل بيان جانب من جوانب هذا الصّراع نعود إلى بعض الوقائع ذات الدلالة:

ـ جاء رؤساء قريش إلى **النّبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يقولون:

«فإن كنت جئت تطلب بهذا الحديث مالاً جمعنا لك أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن تطلب به الشّرف فينا فحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا..» فقال لهم:

«ما جئت لما ذكرتم...، و لكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلّغتكم رسالات ربّي...»[1].

مشى عتبة و شيبة ابنا ربيعة وآخرون من رجالات قريش إلى أبي طالب، و قالوا له:

«لو أن ابن أخيك طرد عنا هؤلاء الأعبد والحلفاء كان أعظم له في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتّباعنا إيّاه و تصديقه. فذكر ذلك أبو طالب للنبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، فأنزل تعالى الآية الكريمة:

﴿وأنذر به الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربّهم ليس لهم من دونه وليٌّ و لا شفيعٌ لعلهم يتّقون* ولا تطرد لذين يَدْعُون ربهم بالغَدْوة والعَشي يريدون وجهه ما عليك من حسبهم من شيءٍ وما من حسابك عليهم من شيءٍ فتطردَهُم فتكونَ من الظّالمين﴾ [الأنعام / ٥١. ٥٢]»[2].

---

١. ابن هشام، السيرة النبويّة، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١ / ٢٩٥ و ٢٩٦.
٢. أمالي اليزيدي، ١ / ٩٣ عن كتاب «روح المعاني».

و يقول العلّامة الطباطبائي في تفسير الآية ٥٢: «ظاهر السياق، على ما يؤيّده ما في الآية التالية: ﴿**وكذلك فتنّا بعضهم ببعض**﴾ الخ، أن المشركين من قومه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ اقترحوا عليه أن يطرد عن نفسه الضعفاء المؤمنين به، فنهاه الله تعالى في هذه الآية عن ذلك»[1].

جاء القرشيون إلى العباس عم النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، و قالوا له، بلسان صفوان بن أميّة والحارث بن هشام و سهيل بن عمرو، أنّهم يريدون طرد من أطلقوا عليهم اسم «**السَّفلة**» من صفوف المسلمين، لكن النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، أفهمهم حقيقة موقفه من هذا الأمر، وهو موقف الإسلام الذي لا يميِّز بين مسلم وآخر إلاَّ بالتَّقوى.

تفيد هذه الأخبار، من نحوٍ أوَّل، أن أرستقراطيَّة تكوَّنت في مكّة و يمثل الأمويون وأحلافهم نواتها و قادتها، كانت تريد أن تقيم ملكاً يحقِّق مصالحها، من دون أن يكون فيه للأعبد والحلفاء، أو لمن أطلقت عليهم اسم «**السَّفلة**» موقع و دور و مصالح، ولم يكن ليضيرها أن يكون النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ الملك، شريطة أن يتخلَّى عن أمرين: أولهما رسالته و تعاليمها، و ثانيهما المؤمنون به من الأعبد والحلفاء، و من نحوٍ ثانٍ أن النبيّ ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ بيَّن لهؤلاء الفرق بين الملك والنبوَّة المؤدِّية رسالة الله سبحانه و تعالى، وأكَّد لهم أن هذه الرِّسالة تتضمَّن تعاليم منها عدم التمييز بين مسلم وآخر إلا بالتقوى.

و يفهم من الآية القرآنيّة الكريمة أنَّ الناس في مكّة كانوا فئتين: أولاهما «**الذين يخافون أن يحشروا إلى ربِّهم**» و ثانيتهما «**الذين يدعون ربَّهم بالغَدوة والعشي يريدون وجهه، والأولى تريد من النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ أن يطرد الثانية، فكان حكم الله سبحانه، أن ينذر النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ هذه الفئة الظَّالمة. وهذان هما النهجان المتضادّان.**

استمرار الصراع بين النهجين في الإسلام

استمرَّ الصِّراع بين هذين النهجين إلى أن جاء نصر الله، فالتحق القرشيون طلقاء ومؤلَّفةُ قلوبهم بالإسلام منتظرين الفرصة المناسبة لتحقيق أهدافهم.

---

١. العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، قم: جماعة المدرِّسين في الجوزة العلمية المجلد الرابع، ص ٩٩.

و يبدو أن مسألة خلافة النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ قد أثيرت عملياً، على الأقل، منذ يوم الغدير؛ حيث أعلن النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وصيّته في هذا الشأن، فبدا أن تلك الفئة من قريش لا تجتمع على الإمام **علي** ﴿عليه السلام﴾، وهذا ما صرَّح به الخليفة عمربن الخطاب في ما بعد، كما مرَّ بنا، و سوَّغ به تصرُّفه في ذلك اليوم الذي سمَّاه عبدالله بن عباس «**يوم الرَّزيَّة**». و قد يكون تدبيرا النَّبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ المتمثلان بتجهيز جيش أسامة والأمر بتسييره والإصرار على ذلك، و محاولة كتابة عهد لا يضل المسلمون بعده أبداً معالجةً لهذا الموقف الذي كان واضحاً له، لكن هذين التدبيرين لم يتمَّا لأن تكتُّلاً قام وقرَّر المبادرة لحسم الأمر، وسوَّغ الخليفة عمر بن الخطاب ذلك في ما بعد بأنه «**إشفاق وحيطة على الإسلام**»، وتمَّت بيعة السقيفة استناداً إلى حجَّتين هما: الشورى والقربى، وقد قال فيهما الإمام علي ﴿عليه السلام﴾:

فإن كنتَ بالشورى ملكت قلوبهم ... فكيف بهذا، والمشيرون غُيَّبُ!؟

وإن كنت بالقربى حججت خصيمهم ... فغيرك أولى بالنَّبي وأقربُ![1]

و قد أدرك الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ الخطر المحدق بالإسلام، فقال، بعد أن «نظرت قريش لنفسها فاختارت» سواه ثلاث مرات: «بايع الناس لأبي بكر، وأنا والله أولى بالأمر منه، وأحق به منه، فسمعت وأطعت مخافة أن يرجع الناس كفَّاراً يضرب بعضهم رقاب بعض بالسَّيف، ثم بايع الناس عمر وأنا والله أولى بالأمر منه، وأحق به منه، فسمعت وأطعت مخافة أن يرجع الناس كفَّاراً يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيف، ثم أنتم تريدون أن تبايعوا عثمان! إذاً أَسمعُ وأطيعُ»[2] وقال أيضاً: «لقد علمتم أني أحق بها من غيري، ووالله لأسلمنَّ ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلاَّ علي خاصَّة..»[3].

و توجَّه إلى الله سبحانه وتعالى فقال: «**اللهم، إنِّي أستعديك على قريش ومن أعانهم، فإنهم قطعوا رحمي**، و صغَّروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي...»[4].

---

١. نهج البلاغة، محمد عبده، ٣ / ١٩٥.
٢. تاريخ الإسلام الثقافي السياسي، م. س، ص ١٩١.
٣. نهج لبلاغة، الخطبة ٧٤.
٤. م. ن، الخطبة ١٦٢.

طبيعة الصِّراع: قريش تعادي نهجاً و ليس شخصاً

إن ذلك الملأ من قريش لم يكن يعادي شخصاً فحسب، وإنَّما كان يعادي نهجاً، فعلى أهميَّة دور موقفهم الشَّخصي من الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ بخاصَّة و من بني هاشم بعامَّة في القيام بما قاموا به، فإنَّهم كانوا يعادون نهجاً، و يعملون على إقصائه عن الحكم، ودليلنا على ذلك أمران:

أوَّلهما اغتيال الخليفة عمر بن الخطَّاب، و ثانيهما محاولة الوصول إلى تسوية مع الإمام **علي** ﴿عليه السلام﴾ بعد أن بويع له بالخلافة، تذكِّر بالسّوية التي حاول أسلافهم الوصول إليها مع **النبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾.

في صدد الأمر الأول يمكن القول: إن اغتيال الخليفة الرَّاشدي الثاني قرار إجراء سياسي و ليس عملاً انتقامياً فردياً كما يفهم من ظاهر الروايات[1]، والأدلَّة على ذلك هي:

١. إن المغيرة بن شعبة هو الذي طلب من الخليفة أن يسمح بدخول غلامه أبي لؤلؤة إلى المدينة، و كان الخليفة لا يسمح بدخول غير المسلمين إليها.

٢. إن كعب الأحبار أنذر الخليفة بأنه سيموت قبل ثلاثة أيام من حدوث عملية الاغتيال، و كان في كل يوم يأتيه ليطلب منه أن يعهد بالخلافة، ومعرفة كعب ليست من الكتب كما ادَّعى، فهذا الادّعاء غير مقبول عقلاً، وقد شك فيه الخليفة نفسه، ولا ننسى هنا الموقع الذي اتخذه كعب في ما بعد لدى الخليفة الثالث والدور الذي أداه في الخلاف مع أبي ذر حول مال المسلمين.

٣. لم يحقِّق أحد في الجريمة في ما بعد، وخصوصاً بعد أن قتل عبيد الله بن عمر المتهمين.

٤. المسؤول المباشر عمَّا احتج عليه أبو لؤلؤة سيِّده المغيرة و ليس الخليفة، و كان الأولى، إن كان دافعه الانتقام من ظالمه، أن يقتل الظَّالم نفسه و ليس الخليفة.

٥. ثُمَّ أنَّ قتل الخليفة بعد أن عرف عهده ظاهرة ساسيَّة مفادها الاقتراب من الإمام علي ﴿عليه السلام﴾، وبعد أن أعلن أنه سيتبع نهج الإسوة في العطاء، إذ يروى أنه قال:

«**لئن عشت إلى العام المقبل لألحقن آخر الناس بأوَّلهم حتى يكونوا بياناً واحداً**»، أو «**لو**

---

١. الطبري، المطبعة الحسنيَّة، م. س، ٥ / ١٢.

استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء، فقسمتها على فقراء المهاجرين» [١].

و يرى السيد هاشم معروف الحسني أن تقريب الإمام **علي**﴿عليه السلام﴾ من عمر بن الخطاب مثّل ظاهرة في سياسته، أدت إلى اغتياله بتدبير من بني أميّة وتواطؤ المغيرة بن شعبة وكعب الأحبار؛ إذ ظنّوا أنه سيعهد بالخلافة إلى **علي**﴿عليه السلام﴾ [٢]. و يروي الطبري ما يدل على صحّة هذا الظنّ، فقد قال عمر قبل أن ينص على الشورى:

«قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر فأولّي رجلاً أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق» وأشار إلى علي، ثم قال: إنَّ غشيةً رفقَتْه، وإنه لا يريد أن يتحمَّ حيّاً وميتاً، وعليكم هؤلاء الرّهط، وسمّى رجال الشورى و حدَّد شروطها [٣].

و ثانيهما أنَّ قريشاً، وكانت ثروات أبنائها، و بخاصّة الأمويون منهم، قد عظمت [٤]، مشت إلى الإمام **علي**﴿عليه السلام﴾ بعدما بويع له بالخلافة في حركةٍ شعبيّة، تقول: أنت ابن عمّنا وأولى الناس بالأمر، وإنّنا نسامحك بالوتر الذي أصابنا منك آنفاً، و يقصدون ما حدث في بدر وسواها، لكنّنا نريد أن تترك لنا ما أصبنا من ثروة و مناصب، وأن تدع تنفيذ الأسوة في العطاء، هذا إضافةً إلى أن طلحة والزبير طلبا أن يولّيهما البصرة والكوفة [٥]. و قد أجاب الإمام **علي** المتحدِّثين إليه بقوله: أيما رجل استجاب للّه و رسوله، و دخل في ديننا، واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عبيداللّه مثلكم مثل بقيّة المسلمين. و كان قد اشترط على الذين أصرُّوا على مبايعته:

«**إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم**»، وهم جمهور المسلمين الشاكون مما ابتلوا به من ظلم ذوي القربى [٦].

---

١. م. ن، ٥ / ٣٣، أبو عبيدالقاسم بن سلام، الأموال، تحقيق محمد هراس، بيروت: دارالفكر، ١٩٨٨، ٣٣٦ ج / ٦٥١.
٢. هاشم معروف الحسني، سيرة الأئمة الاثني عشر، بيروت: دارالتعارف ١٩٨٦، ١ / ٣٤٧.
٣. الطبري، المطبعة الحسنيّة، م. س، ٥ / ٣٤.
٤. راجع لمعرفة حجم هذه الثروات: المسعودي، م. س، ٣ / ٧٦.
٥. الطبري، المطبعة الحسنيّة، م. س، ٥ / ١٥٣.
٦. م. ن، ٥ / ١٥٦.

يعيد هذا الموقف موقف **النبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ من القرشيّين من قبل، وهو موقف نهج يمليه الإسلام، وقد حدَّد الإمام علي﴿عليه السلام﴾ هذا النهج، فقال:

«ألا لا يقولنّ رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار وفجَّروا الأنهار وركبوا الخيول الفارهة، واتخذوا الوصائف الروقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصَرْتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا»[١].

ثم، في الغد، اعتمدَ الأُسوةَ في توزيع العطاء، فنقم رجال منهم طلحة والزبير و عبد الله بن عمر و سعيد بن العاص ومروان بن الحكم، فذكَّرهم بكتاب للّه وحكمه وبسنَّة رسوله﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، أعاد التَّذكير نفسه عندما قال له طلحة والزبير:

«إنك جعلت حقَّنا كحقّ غيرنا وسويَّت بيننا و بين من لا يماثلنا في ما أفاء الله علينا بأسيافنا ورماحنا...»[٢].

و قد أدرك أنصار الإمام علي حقيقة هذا النهج، و كانوا يقاتلون وهم يعون تماماً ما يفعلون، فقال عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي:

«لكن القوم إنما يقتلون فراراً من الإسوة وحباً للأثرة وظناً بسلطانهم وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم و على إحنٍ في أنفسهم»[٣].

و كان مقاتلو معاوية، أو قادة هؤلاء المقاتلين يعون تماماً ما يفعلون، فقد قال مالك بن هبيرة السكوني: «**ليس نقاتل إلا عن عَرَض الدُّنيا**»، و قال النعمان بن جبلة التَّنوخي لمعاوية: «**..ما وفِّقت لرشدي حين أقاتل على ملكك ابن عم رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وأوَّل مؤمن به و مهاجر معه... سنقاتل عن تين الغوطة وزيتونها إذ حرمنا أثمار الجَّنة وأنهارها**»[٤]. وقد اختار عمرو بن العاص ما هو خير له في دنياه واعياً ذلك تمام الوعي[٥].

---

١. شرح نهج البلاغة م. س، ٧ / ٣٧.
٢. م. ن، ٧ / ٤١ و ٤٢.
٣. صفين، م. س، ص ١٠٢.
٤. المسعودي، م. س، ٣ / ١٣٢.
٥. راجع في تفصيل اتخاذ قراره: صفين، م. س، ٣٥.

وفي بيان نهج الإمام علي﴿عليه السلام﴾ يقول محمد عمارة: «**إن الملأ من قريش الذين مالوا بالخلافة عن علي بن أبي طالب كانوا يخشون من عليٍّ نهجاً اجتماعيّاً ثوريّاً ومتقدّماً...**»[١].

وعياً من هذا «الملأ» لنهج الإمام علي مال عنه، ووعياً من الفقراء و عشاق العدالة له أيضاً مالوا إليه، فان الإمام علي﴿عليه السلام﴾، كما يقول محمد عمارة، هو الذي انعقدت عليه آمال الفقراء وأنصار العدل في «استمرار النهج الاجتماعي الذي شهدته شبه الجزيرة العربيَّة على يد دعاة الإسلام، وأيضاً الضمانة الأساسيَّة كي لا يعود ملأ قريش وأغنياؤها للإمساك بالسلطة والسلطان من جديد تحت رايات الدين الجديد وأعلامه»[٢].

سعي قريش للإمساك بالسلطان تحت رايات الدين الجديد:

يميِّز محمَّد عمارة بين فريقين: أوَّلهما الملأ من قريش وثانيهما الفقراء وأنصار العدل، وقد بقي الفريق الأوَّل، الملأ من قريش، يرى الرؤية نفسها التي سبق بيانها إلى السلطان، وسعى إلى الإمساك به تحت رايات الدِّين الجديد، وقد أتيح لممثليه أن يغدو أصحاب القرار في آونةٍ قصيرة، فقبل بيعة عثمان تولى يزيد بن أبي سفيان قيادة الجيش المتوجِّه إلى دمشق، ثم أُمِدّ بأخيه معاوية الذي ما لبث أن تفرَّد بالشام، وتولَّى عمرو بن العاص فلسطين ثم مصر، و عتبة بن أبي سفيان كنانة والوليد بن عقبة بن أبي معيط الجزيرة، وذلك في لوقت الذي لم يولَّ فيه أحد من بني هاشم على ولاية، و عندما تولَّى عثمان الخلافة مارس سياسةً مكَّنت الامويين من الإمسك بحبال السلطان وخزائن الثروات جميعها.

نصٌّ يمثل الواقع السياسي:

و يمكن أن نلمس الواقع السِّياسي فضاءً وخطاباً واتجاهات في نص للطَّبري غنيٍّ بدلالاته:

يروي الطبري أن حواراً دار بين عبد الرحمن بن عوف وبين جماعة من المسلمين، في

---

١. تاريخ الإسلام السياسي والثقافي، م. س، ص ٤١٩. و محمد عمارة، الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب، ص ١٢ و ٢٦.

٢. م. ن.

أثناء المداولات التي كان يجريها لاختيار خليفة من رجال الشورى الذين عينهم عمر بن الخطاب:

«...فقال عمار:

إن أردت أن لا يتلف المسلمون فبايع عليّ، فقال المقداد بن الأسود: صدق عمّار، إن بايعت عليّ قلنا: سمعنا وأطعنا. قال ابن أبي سرح: إن أردت ألاّ تختلف

قريش فبايع عثمان، فقال عبد الله بن أبي ربيعة: صدق، إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا... فقال عمار: أيها الناس، إن الله عز و جل كرمنا بنبيّه وأعزّنا بدينه فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيّكم، فقال رجل من بني مخزوم: لقد عَدَوْتَ طورك يا بن سميّة، وما أنت و تأمير قريش لأنفسها...»، و خوفاً من أن «يفتن الناس»، كما قال سعد بن أبي وقاص، بايع عبد الرحمن لعثمان الذي رضي أن يعمل بسيرة الخليفتين مضافةً إلىٰ كتاب اللّه و سنّة رسوله، في حين قال علي إنّه يرجو أن يعمل بكتاب الله وسنّة رسوله بمبلغ علمه وطاقته، لمّا بايع عبد الرحمن عثمان قال الإمام علي ﴿عليه السلام﴾:

«**حبوته حبو دهر، ليس هذا أوّل يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون...**»

فقال المقداد:

«**أما والله لقد تركتم من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون...**» وإذ اعتذر عبد الرحمن بأنه اجتهد للمسلمين، أضاف المقداد:

«**ما رأيت مثل ما أوتي إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم... أما والله، لو أجد عليه أعواناً**»، فقال عبدالرحمن: «يا مقداد، اتق الله فإني خائف عليك الفتنة»[1]. و يضيف المسعودي إلى ما سبق أن قاله المقداد قوله..

«.. **أعجب من قريش، وإنّما تطوّلهم على الناس بفضل أهل هذا البيت**، قد اتفقوا على نزع سلطان رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ بعده من أيديهم، وأيم الله، يا عبد الرحمن، لو أجد على

---

١. الطبري، المطبعة الحسينيّة، م. س، ٥ / ٣٧.

قريش أنصاراً لقاتلهم كقتالي إيّاهم مع رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يوم بدر[١].

هذا النَّص، كما قلنا، غنيٌّ بدلالاته، ومنها:

أوّلاً ــ إن الحوار يدور في فضاء قوامه الخوف من «الفتنة»، كما سُمِّيت، أو في فضاء الصراع الحاد المنذر بأن يغدو قتالاً في حال توافر شروط هذا القتال: الأعوان.

ثانياً ــ يدور في هذا الفضاء سؤال يثير العجب والمرارة والأسى عن إصرار قريش على صرف الخلافة عن أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ و تماديها في التظاهر عليهم، على الرغم من تطوّلها على الناس بهم، و فيهم من يقضي بالحق وبه يعدل، قد بدا لنا أن هذا هو السبب الرئيس في ذلك الإصرار والتمادي.

ثالثاً ــ الفريقان واضحان: أوّلهما قريش التي لا تختلف إن بويع عثمان، وثانيهما جمهور المسلمين الذين لا يختلفون إن بويع علي.

رابعاً ــ الفريق الثاني يفتقر إلى الأعوان، ما يعني أنَّ مراكز القوّة ليست في يده، ولو توفَّرت لما رضي بما يُفْرَضُ عليه.

خامساً ــ يبدو الصراع للطرف الثاني استمراراً للصِّراع بين المسلمين والقرشيين في أيام الإسلام الأولى ــ بدر، و خطاب المخزومي لعمار يكاد يعيد خطاب أسلافه له في بدايات الإسلام في مكّة.

سادساً ــ أن الطَّرف الأول (قريش) يرى أن لا علاقة للطرف الثاني (جمهور المسلمين) بمسألة الخلافة، إذ إنها، كما يبدو له، مسألة تأمير قريش لأنفسها، و ليست خلافة المسلمين.

سابعاً ــ إضافة مصدر آخر إلى مصدري الإسلام، وهما الكتاب والسنَّة، وهو سيرة الخليفتين، وهو ما رفضه الإمام علي ﴿عليه السلام﴾؛ إذ ليس من تعاليم الإسلام أن يكون اجتهاد الخليفة وسنَّة يشترط اتباعها، و قد كان واضحاً لعبد الرحمن بن عوف أن الإمام علياً ﴿عليه السلام﴾ سيرفض الشرط الأخير، و لعلَّه بسبب معرفته هذه إشترطه ليجعل الرَّفض صادراً عن الإمام علي ﴿عليه السلام﴾. و تفيد بعض الروايات أنَّ عمرو بن العاص قام بدور على صعيد تأكيد ذلك لابن عوف، و قد وصف الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ هذا الدور بقوله: «خدعة

---

١. المسعودي، م. س، ٣ / ٨٦ و ٨٧.

وأيّما خدعة»[١].

الصِّراع المسلَّح:

ولم تلبث سياسة لخليفة عثمان أن هَيَّأت شروط الصِّراع المُسَلَّحِ وأنضجت ظروفه، فالخليفة الذي تولَّى هذا المنصب بموجب عقد يشترط عليه الالتزام بكتاب الله سبحانه وسنَّة نبيّه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ و سيرة الخليفتين: الأول و الثاني غدا يرى أنَّ الخلافة سربال سربله إياه الله[٢] سبحانه، ولذا فهو حرٌّ في تصريف شؤونها وأموالها وولاياتها فحدث الصدام بينه و بين كثير من المسلمين كأبي ذر و عبد الله بن مسعود و عمار بن ياسر. و على هذا النحو مضى رجال خلافته وولاته، كانوا في معظمهم من أقربائه، ومن الطّلقاء أو المؤلفة قلوبهم، ورأوا أن الخلافة ملك أفاءه الله سبحانه عليهم، فهذا أبو سفيان يقول:

على أثر تولِّي قريبه الخلافة:

«يا بني أمية تلقَّفوها تلقف الكرة؛ والذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرنَّ إلى صبيانكم وراثة»[٣]، وهذا معاوية يخاطب من نقموا على الخليفة عثمان سياسته: **«و قد بلغني أنكم نقمتم قريشاً، وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلَّة كما كنتم... والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصَّبر...»**، ثم أضاف في حديثه عن قريش: **«ثمَّ بنى هذا الملك عليهم و جعل هذه الخلافة فيهم»**[٤].

ورأى سعيد بن العاص، والي الكوفة، أن سواد العراق بستان لقريش أو قطين لها، فردَّ عليه مالك بن الحارث النخعي:

«أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز أرماحنا بستاناً لك ولقومك!؟»[٥].

و خاطب مروان بن الحكم الوافدين إلى المدينة من الأمصار: **«جئتم تريدون أن تنزعوا**

---

١. راجع: الطبري مؤسسة الأعلمي، م. س، ٣ / ٣٠٢.
٢. ابن الأثير، م. س، ٤ / ٣٧١.
٣. المسعودي، م. س، ٣ / ٨٦.
٤. الطبري، المطبعة الحسينيّة. م. س، ٥ / ٨٦.
٥. المسعودي، م. س، ٣ / ٨٠.

ملكنا من أيدينا».

و هكذا تبلورت معالم سياسة مفادها: الملك لنا بستانٌ و قد سربلنا إيَّاه اللّٰه، ومن يعترض يبتلى بمن يسومه فلا يحمد على الصَّبر.

و قد توقّع الخليفة عمر بن الخطاب أمراً قاله للمغيرة بن شعبة في لهجة تنمّ عن تأنيب و تحذير: «يا مغيرة»، هل أبصرت بهذه عينك العوراء منذ أُصيبت؟ أما واللّٰه ليعورن بنو أميَّة الإسلام كما أعورت عينك هذه، ثم ليعمينَّه حتى لا يدري أين يذهب ولا أين يجيء»[١].

ويروي الطبري أن الخليفة عمر قال: «ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال اللّٰه معونات دون عباده»[٢] «**و لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار انقطع الناس إليهم**»[٣].

وإذ وجد المعترضون أعواناً جاؤوا من الأمصار يحاورون الخليفة، ومن نماذج هذا الحوار ما دار بين الإمام **علي بن أبي طالب** ﴿عليه السلام﴾ الذي اجتمع إليه الناس وطلبوا منه أن يتدخَّل، وبين الخليفة عثمان، قال **الإمام علي** ﴿عليه السلام﴾: ضعفت ورفقت على أقاربك! قال الخليفة: هم أقرباؤك أيضاً! قال **الإمام علي** ﴿عليه السلام﴾: لعمري إن رحمهم لقريبة، و لكن الفضل في غيرهم...» فتدخَّل مروان بن الحكم، الرَّجل الأقوى في دار الخلافة:

«**إن شئتم حكَّمنا، واللّٰه، بيننا وبينكم السيوف**»[٤].

و هكذا حُكِّمت السيوف بين الاتجاهين، غير أن معاوية الذي قال للخليفة: «**لتُغْتَالنّ أو لتُغْزَين**»[٥]، ومنَّاه بالنَّجدة، لم يلبِّ دعوته في الوقت المناسب. قال الطبري: «**أرسل عثمان إلى معاوية أن ابعث إليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام، فلما جاء الكتاب معاوية تربَّص**»[٦]، و قد قال له محمد بن مسلمة في ما بعد: «**أما أنت فلعمري ما طلبت إلاَّ الدنيا، فإن تنصر**

---

١. شرح نهج البلاغة، م. س، ١٢ / ٨٦.
٢. الطبري، المطبعة الحسينيَّة، م. س، ٥ / ١٣٤.
٣. م. ن.
٤. راجع تفاصيل الحوار في: م. ن، ٥ / ٩٦ ـ ٩٨.
٥. نفسه، ٥ / ١٠١.
٦. نفسه، ٥ / ١١٥.

عثمان ميتاً فقد خذلته حيّاً»[١]. و قد تربّص معاوية إلى أن يعرف نتيجة الصّراع في المدينة فخذل الخليفة. و قد أسهم خذلانه هذا في إيصال الأمر إلى ما صارت عليه، وهدفه من ذلك الدُّنيا كما قال ابن مسلمة، والطمع في الملك كما يروي الطبري في وقائع المؤتمر الذي عقده عثمان لعمّاله سنة ٣٥ هـ، فعلى أثر انتهاء المؤتمر رجز الحادي:

قد علمت ضوامر المطي.

وضُمّرلاتُ عوّجِ القسيّ.

أنَّ الأميرَ بعدُهُ عليّ.

و في الزبيرِ خَلَفٌ رضيّ.

و طلحةُ الحامي لها وليّ.

فقال كعب، وهو يسير خلف عثمان: الأمير، والله، عده صاحب البغلة، وأشار إلى معاوية».

ويضيف الطبري في رواية أخرى أن معاوية ما زال «يطمع فيها بعد مقدمه على عثمان حين جمعهم فاجتمعوا إليه في الموسم...»[٢].

من التنزيل إلى التأويل:

و هكذا كان قتل الخليفة الثالث قتلاً سياسياً استفادَ منه معاوية والأمويون و ذلك الملأ من قريش، في خروجهم على الخليفة الرابع الذي تمت له بيعة شعبية عامّة و كان الصراع بين الاتجاهين النَّهجين امتداداً للصراع الذي خاضه رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، فهو صراع على التأويل، إذ كان ذلك صراعاً على التنزيل. و تمت نبوءة **النبي**﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ إذ يروى أنه قال لأصحابه: «**إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، فيتمنى كل منهم أن يكون ذلك الرجل، لكن النبي**﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يقول: «**لكنّه علي**»[٣].

---

١. صفين، م. س، ص ٧٧.

٢. الطبري، المطبعة الحسينيّة، م. س، ٥ / ١٠٠.

٣. فضائل الخمسة من الصحاح السّتّة، ٢ / ٣٨٩، باب إن علياً ﴿عليه السلام﴾ يقاتل على التأويل. وراجع: التاريخ السياسي والثقافي، م. س، ص ١٧٩، نقلاً عن مسند أحمد، ٣ / ٨٢، صحيح ابن حبان، ٩ / ٤٦ ح ٦٨٩٨، المصنف: بن أبي شيبة، فضائل علي، ج ١٩، البداية والنهاية، ٧ / ٣٩٨.

كان المقداد قد رأى أن الصراع هو امتداد لمعارك الإسلام الأولىٰ، كما في بدر، كما مرَّ بنا، وها هو عمار بن ياسر يقول في صفين عن راية معاوية:«**إن هذه الرَّاية قاتلتها ثلاث عركات، ما هذه بأرشدهن**»[١] ويروي المسعودي أن عماراً قال: «**أيها الناس، هل من رائحٍ إلى الله تحت العوالي؟ والذي نفسي بيده لنقاتلنّهم على تأويله كما قاتلناهم على تنزيله، و تقدَّم يرتجز:**

نحن ضربناكُمْ علىٰ تنزيلِهِ ... فاليوم نضربكم علىٰ تأويلِهِ

ضرباً يزيلُ الهامَ عن مقيلِهِ ... و يُذْهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ

أو يُرجع الحقَّ إلىٰ سبيلِهِ[٢]

و هكذا تبدو حقيقة هذا النهج جليَّة، فهو نهج الإسلام الممتد من التنزيل إلى التأويل، إلى جعل الحقّ يمضي في سبيله في كل مكانٍ وحين.

وإن يكن البحث عن العامل الأساس في تشكيل المسار التاريخي للمرحلة التأسيسية في التاريخ الإسلامي، قد أفاد، من طريق استقراء الوقائع التاريخية، أنه نهج الإمام علي في الحكم، فمن الطبيعي أن نحاول تبيُّن معالم هذا النهج في ما يأتي:

نهج الإمام علي﴿عليه السلام﴾ في الحكم

مشروعيته

يتبيَّن ممَّا سبق أنَّ المسلمين كانوا يعلمون حقَّ الإمام علي﴿عليه السلام﴾ في الخلافة ومشروعيَّة هذا الحقّ: وصيَّة و كفاءة، فعلاوة على ما سبق ذكره مما تضمّنه حديث الخليفة عمر بن الخطاب لعبد الله بن العباس و رسالة معاوية لمحمد بن أبي بكر.. يصرِّح الإمام علي نفسه بذلك فيقول، على سبيل المثال في نصٍّ: «**أما والله، لقد تقمَّصها فلان، وإنّه ليعلم أن محلّي منها محلّ القطب من الرَّحى...**»، و في نصٍّ آخر: «**فو الله ما زلت مدفوعاً عن حقّي، مستأثراً**

١.صفين، م. س، ص ٣٤٠.

٢. المسعودي، م. س، ٣ / ١٢٨ و ١٢٩.

عليَّ منذ قبض الله نبيّه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ حتى يوم النّاس هذا»[١]. و قد رأى أن الصبرَّ على **«الطخية العمياء»**، وهو يرى **«تراثه نهباً»**، أحجى من أن يصول **«بيد جذّاء»**[٢] لسببين أساسيين: أوّلهما ـــ مواجهة الخطر الذي يهدِّد الإسلام، و ثانيهما ـــ عدم جود النّاصر، وإذ توفَّر هذا، واقتضت مصلحة الإسلام أن ينهض فعل ذلك، وممّا قاله، في هذا الصدد، نذكر على سبيل المثال: **«أما والذي فلق الحبّة وبرأ النّسمة، لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود النّاصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارُّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أوّلها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»**[٣].

وكانت قريش تنقم أصل هذه المشروعية، وهو **«اختيار الله»**، و تحول دون تحققها، وفي إشارة إلى ذلك يقول الإمام علي ﴿عليه السلام﴾: **«والله، ما تنقم منا قريش إلاَّ أن الله اختارنا عليهم فأدخلناهم في حيِّزنا...»**[٤].

طبيعته:

و يتبيَّن ممّا سبق أن الإسلام عرف، في أيّام **النبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، و بخاصّة بعد فتح مكّة، حيث كثر **«الطّلقاء»** و **«المؤلّفة قلوبهم»**، اتجاهين أساسيّين، متضادّين يمثّل أوّلهما القرشيّون ومالكو الثروة و كثير من شيوخ القبائل، و يمثل ثانيهما المسلمون الأتقياء، و كان الصّراع بينهما، قبل فتح مكّة، على التّنزيل، و بعده على التّأويل.. وإن يكن التكتُّل الذي قاده الخليفة عمر بن الخطاب قد أجّل الصّراع المسلَّح **«حيطةً وإشفاقاً»** على الإسلام، كما قال، فإنَّه مَهَّدَ لأن يصبح الاتجاه الأوّل أكثر قدرة على إدارة الصراع وحسمه لصالحه، إذ إن ممثّليه تولّوا معظم مراكز القرار ومصادر الثروة في دولة الخلافة في حين حُرم ممثلو الاتجاه

---

١. م. ن، ١ / ٦٢.
٢. م. ن، ١ / ٥١، طخية: ظلمة وهي مجاز عقلي يفيد أن القائمين بها لا يهتدون إلى الحق، جذّاء: مقطوعة، وهي مجاز يفيد الافتقار إلى الأعوان.
٣. م. ن، ١ / ٥٦، كظّة: التخمة، السغب: شدّة الجوع. الغارب: الكاهل، عفطة: ما تنشره من أنفها.
٤. م. ن، ١ / ١٠٤.

الثاني، وبخاصَّة أهل بيت النبوَّة ﴿عليهم السلام﴾، من أي مصدر من مصادر القوَّة: ولاية، قيادة جيش، مصدر مالي...

و قد تحدَّث الإمام علي﴿عليه السلام﴾ عن هذين الاتجاهين، فقال: «**والذي فلق الحبّة وبرأ النَّسمة ما أسلموا، ولكن استسلموا، وأسّروا الكفر، فلمَّا وجدوا أعواناً أظهروه.. رجعوا إلى عداواتهم منّا إلاَّ أنهم لم يدعوا الصلاة**»[١]، و هذا يفيد وجود اتجاهين: أولهما الإيمان بالإسلام وثانيهما الاستسلام الذي يُظْهر الإسلام ويسرّ الكفر، ويخرج على الإسلام عندما يجد أعواناً، وقد كان هذا واضحاً لأنصار الإمام علي، فقال عمّار بن ياسر: «فإن مراكزنا على مراكز رايات **رسول الله** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يوم بدر و يوم أُحد و يوم حنين، وإن هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب»[٢].

وللإمام علي﴿عليه السلام﴾ غير قول في غير موضع يوضح طبيعة نهجه وتضادّه مع نهج الذين عملوا دون وصوله إلى الخلافة، وعلى تشكيل مسار الخلافة، ومن هذه الأقوال نذكر: «مالي ولقريش! والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنَّهم مفتونين، وإنِّي لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم»[٣]، وهو في نهجه على بيِّنة من ربّه ومنهاج من **النبي**﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، فقد قال: «**وإني لعلي بيِّنةٍ من ربِّي و منهاج من نبيِّي، وإني لعلى الطريق الواضح، ألقطه لقطاً**»[٤].

و هذا المنهاج الذي يمضي فيه تركه ممثلو الاتجاه الثاني طائعين، إذ إنهم كانوا قد دخلوه مكرهين، ففي خطاب له لمعاوية جاء: «**وإني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتم فيه مكرهين**»[٥].

مصدر أحكامه

مصدر الأحكام في هذا المنهاج، القرآن الكريم وسنَّة **النبي**﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، و قد كان الإمام

---

١. نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفِّين، م. س، ص ٢١٥.
٢. م. ن، ص ٣٢١.
٣. نهج البلاغة، م. س، ١ / ١٠٤ + ٣٤٦ + ٤٥٣.
٤. م. ن، ٢ / ٢١٧.
٥. م. ن، ٣ / ٥٠٠.

علي اضحاً في تأكيد ذلك عندما أجاب عبد الرحمن بن عوف في مداولات شورى الستّة كما مرَّ بنا، ونجد، في غير موضع من خطابه، هذا **التأكيد** فقد تحدَّث عن اختلاف القضاة في الفتيا، و عن تصويب الإمام الذي يستقضيهم آراءهم جميعاً، ويعجب من هذا الاختلاف «**وإلههم واحد ونبيّهم واحد وكتابهم واحد**»،ثم يتساءل عما إذا كان اللّٰه سبحانه و تعالى أنزل ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء له، أم أنزل اللّٰه سبحانه ديناً تاماً فقصر **الرسول** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ عن تبليغه وأدائه، واللّٰه سبحانه يقول: ﴿**ما فرَّطنا في الكتاب من شيء**﴾، و قال: «**فيه تبيان كلِّ شيء**»، وذكر أن الكتاب يصدِّق بعضه بعضً، وأنه لا اختلاف فيه، فقال سبحانه: «**ولوكان من عند غير اللّٰه لوجدوا فيه اختلافاًكثيراً**»، ثم يقرر: «**وإن القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلا به**»[١].

و قد خاطب المسلمين عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة: «**ولكم علينا العمل بكتاب اللّٰه تعالى و سيرة رسول اللّٰه** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ والقيام بحقِّه والتسنن لسنته»[٢].

وكان قبل ذلك خاطب طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة، وقد عتبا عليه أن ترك مشورتهما، بقوله: نظرتُ إلى كتاب اللّٰه، وما وضح لنا وأمرنا بالحكم به، فاتّبعته، وما استسن النبي﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فاقتديته، فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما..»[٣]، والنَّهي عن تضييع السنَّة ذو دلالة بالغة على ماكانت عليه حالها وما آلت إليه في ما بعد ممَّا لا نحتاج إلى تفصيله[٤].

وظيفته

تحدَّث الإمام **علي**﴿عليه السلام﴾، في غير موضع، عن وظيفة الحكم في نهجه، و قد مرَّ بنا شيء

---

١. م. ن، ١ / ٧٥ و ٧٦، وراجع: م. ن، ٢ / ٢٨ و ١٨١.
٢. م. ن، ٣ / ٣٤٤.
٣. م. ن، ٣، ٤٣٤.
٤. راجع في تفصيل هذه المسألة: مصطفى خميس، لا تضيّعوا السنة، بيروت: مركز الغدير للدّراسات الإسلاميّة.

من هذا لدى الحديث عن المشروعيّة وفي ما يأتي نقدّم نماذج من أقوال الإمام ﴿عليه السلام﴾ تحدّد هذه الوظيفة:

ـ «**اللهم إنك تعلم أنّه لم يكن الذي منّا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطّلة من حدودك**»[١].

ـ «**أيها الناس ، أعينوني على أنفسكم، وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامته، حتى أورده منهل الحق، وإن كان كارهاً**»[٢].

ـ «**وأيم الله لأبقرن الباطل حتى أخرج الحقّ من خاصرته**»[٣].

و هكذا يبدو جليّاً أن وظيفة الحكم في نهج الإمام علي﴿عليه السلام﴾ أن يورد الناس منهل الحق.. والعدل على محضه[٤] وإن كان الظالم لذلك كارهاً، فالمقياس في التمييز بين الذليل والعزيز والقوي والضعيف هو «**الحق**»: «**الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه**»[٥].

و كان متشدّداً في نهجه هذا لا يصغي إلى قول القائل و عتب العاتب[٦] و عندما تولى الخلافة ردَّ ما أقطعه عثمان لعدد من أقاربه، وقال: «**والله لو وجدته قد تُزوج به النساء وملك به الإماء لرددته، فإن في العدل سَعَة ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق**»[٧]. و هو في ذلك إنّما يطيع الله زاهداً في الدنيا: «**والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقةٍ في فم جرادةٍ تقضمها، ما لعليٍّ و لنعيم يفنى ولذّة لا تبقى!**». وقال لابن عباس عن نعله وقد رآه

---

١. م. ن، ص / ٢٧٨.
٢. م. ن، ص / ٢٨٤.
٣. م. ن، ص / ٢٢٧.
٤. م. ن، ص / ٣٢٧.
٥. م. ن، ص / ١١١ وراجع: م. ن، ص / ٣٣١ / ٤٦٧.
٦. م. ن، ص / ٢٠٩.
٧. م. ن، ص / ٦٧.

يخصفها: «**والله لهي أحب إلي من إمركم إلّا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً**»[١].

والمضي في هذا النهج إنما هو سفر في سبيل رضي الله سبحانه وتعالى: ومن أقواله في هذا الصدد: «.. **فإنه من يعمل لغير الله يكله اللّهُ إلىٰ من عمل له. نسأل الله منازل الشهداء، ومعايشة السعداء، ومرافقة الأنبياء**»[٢]، وإنَّما طلب للآخرة بعمل الدنيا، فاليوم عملٌ و لا حساب وغداً حساب ولا عمل[٣] و قد كان الإمام **علي**﴿عليه السلام﴾ يمتلك البصيرة النافذة إلى منهل الحق والعدل، وأكد ذلك غير مرَّة، فقال على سبيل المثال: «**ما شككت في الحق مذ أريته**»، «**من وثق بماءٍ لم يظمأ**»، و «**إن معي لبصيرتي ما لبّست على نفسي،و لا لُبِّس علي**»[٤].

أحكام أساسيَّة منه:

و من أحكام هذا النهج الأساسيَّة التي يقتضي المقام التحدث عنها:

الأسوة: المساواة بين المسلمين:

تحدَّث الإمام **علي**﴿عليه السلام﴾ لمَّا عوتب على التسّوية في العطاء، بوصفها عاملاً يعوِّق النّصر، فقال: «**أتأمرني أن أطلب النَّصر بالجور في من وُلّيت عليه ، والله ما أطور به ما سمر سمير وما أمَّ نجم في السماء نجماً، لو كان المال لي لسوَّيت بينهم، فكيف وإنما المال مالُ الله ...**»[٥]، **و قال لطلحة والزبير عندما أغضبتهما السّويّة بين المسلمين في قسمة الأموال : «وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة، فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي و لا وليته هوى منّي، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله**﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ **قد فُرغ منه**»[٦]. وإذ تبيَّن لأعيان القوم وأصحاب الثروات أنَّ الناس عند الإمام، في الحق، أسوة هربوا إلى الأثرة[٧].

---

١. م. ن، ص / ٤٦٩ و ١٠٣.
٢. م. ن، ص / ٨٢.
٣. راجع في تفصيل ذلك، على سبيل المثال، م. ن، ص / ١٠٠و ١١٦ و ١١٩ و ١٣٥ و ٢١٩ و ٢٤٣.
٤. م. ن، ص / ٥٩ و ٦٠و ٦٤ و ٢٨٥ .
٥. م . ن ، ص / ٢٧١ و ٢٧٢.
٦. م . ن ، ص / ٤٣٧.
٧. م . ن ، ص ٦١٧.

الْجَنْيُ مُلْكُ مَنْ يَجْنِيْهِ / فيءُ المسلمينَ لَهُم:

قال سعيد بن العاص لفرسان المسلمين : إن سواد العراق، أي أرض العراق الخصبة، بستان لقريش، و قال الإمام **علي**﴿عليه السلام﴾ لرجل من شيعته جاء يطلب نصيباً في الفيء : «**إن هذا المال ليس لي ولا لك ، وإنما هو فيء المسلمين و جلب أسيافهم، فإن شركتهم في حربهم كان لك مثل حظهم وإن مجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم**»[١] وأرسل إلى عامله مصقله الشيباني بعد أن بلغه عنه ما يريبه في قسمة الفيء: «**ألا وإن حقَّ من قبلك و قبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء، يردون عندي عليه ويصدرون عنه**»[٢].

عمارة الأرض:

إن الله سبحانه و تعالى أرسل رسوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ هادياً ولم يرسله جابياً، كما أن مهمَّة ولاة الأمر من المسلمين عمارة الأرض كما نصَّ القرآن الكريم: ﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها...**﴾ [هود / ٦١]، و هذا ما أكد عليه الإمام **علي بن أبي طالب** ﴿عليه السلام﴾، في غير موضع، ومن نماذج ذلك:

ما جاء في عهده لمالك الأشتر: «**و تفقّد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإنَّ في صلاحه و صلاحهم صلاحاً لمن سواهم ... و ليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج**»[٣].

و ما جاء في كتابه لعمال الخراج بعد أن وصفهم بـ« وكلاء الأمَّة و سفراء الأئمة» : « **لا تحسموا أحداً عن حاجته، ولا تحبسوه عن طلبته، ولا تبيعُنّ للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابَّة يعتملون عليها، و لا عبداً، ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم، ولا تمسنَّ مال أحد من الناس، مصلٍّ ولا معاهد إلاَّ أن تجدوا فرساً أو سلاحاً يُغدَى به على أهل الإسلام ...**»[٤].

---

١. م . ن ، ص / ٤٧٧.
٢. م . ن ، ص / ٥٥٦.
٣. م . ن ، ص / ٥٨٤.
٤. م . ن ، ص / ٥٦٩ و ٥٧٠.

عمارة الإنسان:

كان الإمام **علي**﴿عليه السلام﴾ يدارس أصحابه ويحاججهم، و يعرّفهم حقوقهم وواجباتهم و حقوق الوالي وواجباته في سعيٍ واضح إلى تنشئة مسلمين حقيقيين يمتلكون المعرفة والوعي، وهذا من النادر أن يفعله أي صاحب سلطان، فهذا يريد السمّع والطاعة من رعيَّةٍ يحكمها وفاقاً لما تقتضيه مصالحه ، أما الإمام فيريد للأمة التي وصفت بأنها « خير أمة » أن تخرج إلى الناس لتهديهم إلى الدِّين الحنيف، ومن النماذج الدالَّة في هذا الصَّدد :

ـ خاطب الإمام **علي**﴿عليه السلام﴾ أصحابه : «.. **دارستكم الكتاب، وفاتحتكم الحجاج، وعرّفتكم ما أنكرتم وسوَّغتكم ما لججتم..**»[1].

ـ تحدث غير مرَّة إلى أصحابه عن حقه عليهم و حقهم عليه ، و من نماذج ذلك : « ..**قد جعل الله لي عليكم حقاً بولاية أمركم، و لكم علي من الحق مثل الذي لي عليكم** ...» ثم فصل في ذلك[2].

و قد أثمر هذا النهج في التنشئة، فقد بدا واضحاً لمعاوية، في ما بعد، أن أنصار الإمام **علي**﴿عليه السلام﴾ كانوا يمتلكون، في ما يمتكلون من إمكانات، القدرة على أمرين : أوّلهما رؤية الحق ومعرفته و ثانيهما الجرأة في قوله والسعي إلى جعله واقعاً. و لهذا كان يقول، وهو يستجوب بعضهم بعد أن تولَّى الخلافة: «**هيهات لمّظكم [أي علَّمكم و ذوَّقكم]**، و يعيد القول : «**يا أهل العراق، نبَّهكم علي أبي طالب فلم تطاقوا**»، و كان يعجب لوفاء هؤلاء الأنصار فيكرر قوله : «**والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته**»[3].

كان معاوية يعجب من جرأة أنصار الإمام **علي**﴿عليه السلام﴾ و من بقائهم أوفياء له بعد وفاته، وهم في الحقيقة كانوا يتبعون منهجاً أرسى أسسه الإسلام، و كان هو يضيق بهذا النَّهج، و طالما سعى هو وأضرابه إلى الحيلولة دون وصول ممثله إلى الحكم، ولما وصل خرج

---

١. م. ن ، ص / ٣٦٢.

٢. م. ن ، ص / ٤٥٣، و راجع : م. ن ، ص / ٥٦٨ / ٥٦٩.

٣. ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، بيروت : دار مكتبة الهلال ، ط ١ ، ١٩٨٦، ٢١٩ و ٢٢٠و ٢٢٢.

عليه و حاربه. وإذ صارت إليه أمور الخلافة صمَّم على القضاء عليه و على أنصاره، وبدأ ذلك السيَّل الجارف من الطغيان، و بدأت مقاومته أيضاً، و هذا الصراع بين هذين النهجين استمرَّ طوال التاريخ الإسلامي، ما حكم تشكيل مسار هذا التاريخ .

في الختام

و في الختام يمكن القول، إن السعي إلى معرفة نهج الإمام علي﴿عليه السلام﴾ في الحكم و دوره في تشكيل مسار الخلافة الراشدة، اقتضى إثارة السؤال عن أسباب معارضة قريش و مالكي الثروة لوصول الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ إلى الحكم على الرغم من معرفتهم لحقه : وصيةً وكفاءة؟ أشرنا إلى أكثر من إجابة، ورأينا أنها غير كافية، وبحثنا عن العامل الأساس، ما اقتضى البحث في موقع قريش و دورها في النظام الاجتماعي الذي كان قائماً آنذاك ورؤيتها، و في تمثيلها نهجاً معيَّناً اتخذ حتى فتح مكة موقفاً معادياً للإسلام، وإذ اضطرَّت لقبول الإسلام، استمر الصرِّاع بين نهجها والنهج الإسلامي، و قد بدا واضحاً أن قريش كانت تعادي نهجاً وليس شخصاً، وَبَيَّنَّا ذلك في نصٍّ من تاريخ الطبري يمثل الواقع السياسي الذي تطوَّر، بعد مرحلة أتيح فيها للقرشيين امتلاك القدرة، إلى صراع مسلَّح رأى فيه كثير من المسلمين صراعاً على التَّأويل، وامتداداً للصِّراع الذي خاضه النبي﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ على التَّنزيل، ما يعني أن صراع القرشيِّين كان للحيلولة دون وصول الإمام علي ﴿عليه السلام﴾، بوصفه ممثل نهج في الحكم إلى الخلافة، ما اقتضى أن نتبين معالم هذا النهج من حيث مشروعيته وطبيعته ووظيفته و مصدر أحكامه وأحكام أساسيَّه منه .

الإمام عليّ «عليه السلام» في الأدب الشعبي بالمغرب

الدكتور عبدالهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية ـ الرباط

يتمتع الإمام عليّ كرم الله وجه بذكرٍ واسعٍ وصيتٍ رفيعٍ في كل البيوت و عند سائر الأوساط ببلاد المغرب، فهو رمزُ العزة والشمم، والجهادِ والنضالِ، وهو رائد المعرفة ومفتاح العِلم، وهو كِيمياء الحكمة، قولُه الصواب، واجتهادُه عينُ الحقيقة، وإلىٰ جانب الإمام علي تذكر زوجته السيدة الفضلىٰ فاطمة الزهراء رضي الله عنها وأرضاها...

ولا أذكر أن هناك أسرةً في المغرب بأسره لا يوجد بين أفرادها ولدٌ يحمل اسم عليّ ، أو بنتٌ تحمل اسم الزهراءو تجد الأسرةُ في ترديد اسم علي وفاطمة بُشرى تعيد إلىٰ قلوبهم البهجة والفرحة والسرور، ولا يمكن أن يُنطق باسم علي إلا مقروناً بكلمة (مولاي)، ولا باسم فاطمة الزهراء إلا مقرونة بصفة (لالّة) التي تعني في المغرب كل معاني الإجلال والإكبار.

وقد قمتُ بتقصي نسبة الأشخاص في المغرب من الذين يحملون اسم علي وفاطمة فوجدت أنها تمثل نسبةً كبيرة من سكان المغرب بما فيها الأسماء الفرعية التي تخترعها الأُسَر لعلي الذي قد يصبح علّال أو علّوش أو عليوة.. أو تخترعها الأسرةُ لاسم فاطمة التي قد تصبح فطُّومةَ أو بططوُّطةَ أو طامو.. ولو أننا وضعنا خريطةً جغرافية للمغرب علىٰ أساس تقفي أماكن وجود هذه الأسماء لوجدنا أنها تكتسح معظم جهاتِ المغرب مسن جباله إلىٰ صحرائه، ومن سهوله إلىٰ سواحله..

وإذا كان أمرُ هذا التعلق غيرَ خاف علىٰ من يتتبع الحديث في الأدب الكلاسيكي، فإن أثر هذا التعلق في الأدب الشعبي بحاجةٍ إلىٰ كشفه وإبرازه ولا سيما بالنسبة للذين يوجدون علىٰ مسافاتٍ بعيدة من هذا التراث الشعبيّ الدارج الذي يتمثل في المثل العامي. والخطاب الشعبي علىٰ نحو ما يتمثل فيما نسميه الشعرالملحون[١].

والْمَلْحُونُ مشتق من التلحين بمعنى التنغيم لا من اللحن أي الخطأ في القواعد الإعرابية، وذلك أن اللغة التي يستعملها شعراء الملحون هي لغةٌ غير إعرابية بيد أن لها قواعدها واساليبها.. وينعت الشعر عندهم بالملحون لأن الأصل فيه أن ينظم ليتغنى به قبل كل شيء.

ومن المهم جداً أن نعرف أن هذا (الملحون) يعتبر من المصادر الهامة لمعرفة التاريخ الدولي لملة الإسلام، أي إنَّنا من خلاله نعرف عن صلة الدولة في المغرب بالدولة في المشرق، ومن خلاله نعرف عن صلة بلادنا بالممالك الأجنبية التي كانت تطمع في الانتقاص من سيادة المغرب من جهة وإحكام الفصل بينه وبين إخوانه في الجهات الأخرىٰ..ومن هنا تبرز أهمية هذا النوع من الخطاب، كما تبرز أهمية هذا المنبر كوسيلةٍ من وسائل الإعلام[٢].

ولا يقتصر ذلك الإجلال علىٰ الإمام علي وحده، ولا علىٰ السيدةِ فاطمة وحدها، ولكن يتجاوزه إلىٰ أبنائهما وحفدتهما وأسباطهما ويكفي أن نعرف أن هناك نحواً من مائة قصيدة من (الشعر الملحون) مما أُنشد في المولىٰ إدريس حفيدِ الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ الذي التجأ إلىٰ المغرب في أعقاب وقعة فخ التي جرّت بظاهر مكة عام ١٦٩هـ / ٧٨٦م حيث أسس الدولة الإدريسية وشيّد كعاصمةٍ له، مدينة فاس التي تنعت بالإدريسية وتعرف في كُتب التاريخ على أنها (قُمَّ) الغرب الإسلامي.

---

١. د. التازي: جامع القرويين، المسجد الجامعة، المجلد الأول طبعة ثانية، دار المعارف، ٢٠٠٠، ص ١٣ـ ٥١، التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج ٤، ص ٨ ـ ١٠، رقم الايداع القانوني ٢٥ / ١٠٨٦. مطابع فتاله السيدية.

٢. محمد الفاسي: معلمة الملحون، القسم الاول من الجزء الأول ص ١٠٠ ـ ١٠١، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ١٩٨٦ـ ١٩٨٧.

ولابدَّ أن نذكر هنا أنه يوجد في بطن فاس الإدريسية مكان يحمل اسم مسيد سيدي فرج، هذا المكان يتبارى فيه كلَّ سنة كبار شعراء الأدب الملحون ليقولوا فيه ما أنشدوا من الشعر بمناسبة عيدالمولد النبوي[١].

وحتىٰ أكون موضوعيّاً ومختصراً في نفس الوقت سأختار من شعراء الملحون خمسة أعلام كان لهم حضورٌ متميزٌ فيما يتصل بجهادِ الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ ومساعدة السيدة فاطمة الزهراء ﴿عليها السلام﴾.

أولهُم الشيخ عبد العزيز المغراوي (الذي كان يعاصر الملك أحمد المنصور الذهبي بطل وقعة الملوك الثلاثة عام ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م وسميت كذلك لأنها شهدت مصْرَعَ ثلاثة ملوك علىٰ رأسهم ملك البرتغال دون سِبَاسْتيان). هذا الشاعر الكبير كان قاضياً لمدينة فاس.. وهو صاحب الملحمة الكبيرة التي تحمل عنوان (اليتميم)[٢] وتتضمن حديثاً عن غيرة الإمام عَلَىٰ المستضعفين والمقهورين حيث نقرأ عن قصةٍ مسهبةٍ، ملخصها ما يروى عن النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ أنه كان يحب أحد اليتامى يسمى السيد فضْل، كان يعطف عليه، فرآه ذات مرةٍ وذَرَفَت عيناه بالدموع، ومسح بيده علىٰ رأس اليتيم، ثم أبصر سيدنا علياً كرم اللّٰه وجهه فانفتحت بَشَرَته وتبسم، فسأله سيدنا علي عن سبب بكائه لرؤية السيد فضل وابتسامه للإمام، فقال له :

يا علي! إن هذا اليتيم ستُوجَّه إليه تهمةٌ باطلة في أيام خلافة عمر وسيكون إنقاذه من ذلك الباطل علىٰ يديك فأوصيك به خيراً !!.

وتبتدىء القصة المثيرة لهذا اليتيم الذي بمجرد ما سمع عن تولّي عُمَر الخلافة، اختار

---

١. يرجع تاريخ تشييد هذا (المسيد) (محرف عن كلمة المسجد) إلىٰ أيام الشيخ ابن عبود عندما نظم قصيدةً في مدح القائد الوطاسي أبي عمرو ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م واقترح عليه إنشاء مقر يجتمع فيه شعراء الملحون لإلقاء قصائدهم عند كل عيد يتجدد للمولد النبوي! من هنا كان (المسيد) الذي يتنافس فيه الشعراء والذي أدركناه في سوق الحنّاء لاصقاً بالمستشفىٰ الذي كانَ هناك ويحمل إسمَ سيدي فرج وهو غير بعيد عن الضريح الإدريسي.

٢. مثل هذه القصص البطوليّة عن الإمام علي هو الذي يصوغه الشعر الشعبي الذي نسميه بالملحون... وهو الذي يلقي علىٰ الجماهير في (المسيد) الذي كان، كما قلنا بمثابة المنبر الذي تلقىٰ فيه عيون القصائد الملحمية...

أن يعتزل الناس نهائياً.. ويعيش في مقبرةٍ بضواحي المدينة بعيداً عن الأنظار.. ومن هنا نعيش مع الشيخ عبد العزيز المغراوي الذي يحكي عن الشاب (فضل) أنه تعرض لمناورات محبوكة نظمت ضده من لدن شابةٍ تُدعىٰ حذيفة بنت بني النجار.

لقد حبكت القصة حبكاً متقناً.. واختير لها موسم الحج كزمانٍ للتنفيذ.. وورد فيها اسم عبدالله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب الذي كان ـ كما تعلم ـ أحد الأمراء الذين سيصْحَبون الإمام عليا في وقعة صفّين...

وفي وقتٍ كانت المؤامرة علىٰ وشك النجاح، وبينما السيد فضل ينتظر قطع رأسه إذا بعليٍّ يحضر بقدرة قادر من الكوفة صحبة خديمه قنبر... ويذكر وصيةَ الرسول ونجده يقف وقفة المستميت من أجل الوصول إلىٰ الحقيقة حيث تُرْغم حُذَيفة علىٰ الحضور، وقد هالها أن تصل القضية إلىٰ ما وصلت إليه.. وينجح الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ في انتزاع الاعتراف منها ببراءة اليتيم وتُنقذ حياة (فضل).. وبالتالي تنتصرُ الحقيقة.

ومما يجدر ذكره هنا أن شيخاً آخر من شيوخ الملحون اسمه الحاج أحمد التركماني اهتم هو الآخر بقصة اليتيم فضل، وقد سماه فضلون علىٰ الطريقةِ الأندلسية التي تضيف الواو والنون إلىٰ الاسم علىٰ نحو وهْنُون وحفْصون وزيدون...

ونعلم أن لغة هذا الشعر تغزو الشارعَ والبيتَ والمعملَ والمصنع ومن هنا جاءت أهمية إبراز هذا النوع من التراث بالنسبة للبحوث المتعلقة بالإمام علي...

والمهم أن نذكر أن هذه الملاحم تقدم أيضاً في ساحة جامع الفناء من مدينة مراكش، أو علىٰ أكَمةٍ شهيرةٍ خارج بعض أبواب فاس العتيقة تُقدم أمام جمهورٍ حاشدٍ يهتم بسِيَر الرجال والأبطال الذين كان لهم حضور بارز في التاريخ من أمثال الإمام عليّ، ﴿عليه السلام﴾ الذي، كما قلنا منذ البداية، لا يخلو بيت من الحديث عن جهاده ونضاله و عن إيثاره للضعيف وانتصاره للمظلوم..

وقد كان الشخص الثاني هو الشيخ مبارك أبو الأطباق ويعتبر من المكثرين في باب الملاحم (Epopee) حيث نجد له غزوةً بعنوان الذّكْرِية كانت حَرْبتُها، أي لازمتُها، علىٰ الشكل التالي:

ما عَمَل سُلطاني مولاي حَـيْدَرة علىٰ القَرَاسن الّلي مَاتوا مغرّبين

هكذا أرَاد وقَدَّر، بالمُؤمنين [1]

وهي قصة خمسين شاباً ذهبوا مع صحابي إلىٰ مدينة الذّكْرِية أيام خلافة سيدناعلي ﴿عليه السلام﴾ ليدعَو أهلها للإسلام، فقتلهم صاحبها وكان كافراً يدعىٰ سَطِيح بن غُشَام.. وكان لهذا وزيرٌ يُخفي إسلامه فطيَّر الخبر مع حمامٍ لسيدنا عليّ فأتىٰ الإمام وهد تلك المدينة وكان بها اثنا عشر باباً لم يترك منها الابابين واحداً بالشرق والآخر بالغرب..

وللشيخ مبارك أبو الأطباق ملاحمُ أخرىٰ عن جهاد الإمام علي ونذكر منها ثانية تحمل عنوان غزْوة النمسِي أو وادي السيْستبان، ويقول في حَرْبتها أي لازمتها.

آالإخوان آالإخوان أَعينونا بِبْيان في صلاة النبي المَدَني طُول الزمان

صَلّيوْا على المَدنَي نُور العيان

وهي قصة عرْجفة بن بغيل التي يذكر بها أنه كان بإحدىٰ ممالك الكفر ملك «يقال له عرجفةبن بغيل من كبار الشجعان، وكان له أربعون ولداً فقال يوماً : لا يوجد في العالم شخص يقدِر علىٰ ملاقاتي! فقال له أحد وزرائه: بل يوجد ببلاد العرب شخص يسمى علياً بن أبي طالب لا يقدر عليه أحدٌ لافي العَجَم و لا في العرب، فقال الملك: ولا أنا؟ فقال له: ولا أنت! فخرج في أبنائه الأربعين راكبين خيلهم قاصدين الحجاز..

وقد تركالملك ابنته المسماة (حُسْنَى) في الملك، وذهب فالتقى في الطريق بسيدنا علي، وسأل عنه فعرفَ من هو، وقابلهم كلَّ عشرة مرة وقتلهم جميعاً، وقتل أباهم! فطلب منه أحدُ عبيد الملك أن يترك له الرؤوس ليحملها إلى (حسنى) فتركها له، ولما رأت الأميرة ذلك غضبت غضباً شديداً وأرادت الانتقام، فأشار عليها أحد الوزراء بالاستغاثة بالغِطريف النمسي لأنه شجاع، ففعلت وعرضت نفسها عليه، فقصد المسلمين وخرجوا له فضيَّق عليهم الخناق.. وأخيراً توسل النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ إلىٰ اللّه في إرجاع سيدنا علي من الكوفة.. فرجع وطويت له الطرق ووصل وقضىٰ علىٰ الكفار وشتت شملهم وقتل زعيمهم الغِطريف.. وتسمي هذه العزوة أيضا عزوة وادي السَّيْسَبَان.

---

١. المصدر السابق ٨٨ ـ ٩٠.

وله «فتوح إفريقية» وبطلها عبد الله بن جعفر، و «الإسرائيلية» و بطلها سيدنا علي ﴿عليه السلام﴾، وله غزوة ابن سلامة المخزومي ويقول في حَرْبتها أي لازمتها:

صلِّ علىٰ النبي يا من يسمع لي وارضِ عَلَىٰ عَلِيّ هزَّام الطغيان !!

وهي قصةُ أحدِ زعماءِ الشركِ القُرشِيين ومحاربته للمسلمين وغلبة سيدنا عليّ ﴿عليه السلام﴾ وإسلامه...

ينبغي أن تتصور كيف أن الشيخ مبارك صاغ هذه الملحمة في شعره بالدَّارجة التي يتحدث بها عامة المغرب قاطبةً! ولنتصور وقْعها في النفوس ومدىٰ ما تخلفه من صدىٰ في البيوت عن جهاد الإمام علي وصموده..

وقد كان ثالثِ هؤلاء الأعلام الشيخ محمد بن يَخْلف الذي عاش أواخر القرن الحادي عشر الهجري.. فقد كان له عدد من الملاحم نذكر منها قصة الشاب مع أبي جهل.

ومن المهم أن نعرف أن الشعر الشعبي المتعلق بالملاحم والغزوات خاصة، كان يقابل بالمنع من لدن الاستعمار باعتبار أنه يهيج الجمهور ضد الأجنبي، فإن الإشادة بجهاد الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ مثلاً من شأنها أن تثير المستضعفين والمغلوبين ضد المتسلطين وأصحاب الجبروت ...

وكان رابعَ هؤلاء الأعلام هو الشيخ المَدَني التركماني الذي لهُ قصيدة رائعة في مدح السيدة الفضلىٰ فاطمة الزهراء ومعها يمدح زوجها الإمام علّياً ...

ولقد ذكر الشاعر التركماني اسم فاطمة الزهراء كزوجةٍ عاشت لخدمة زوجها العظيم .. كزوجةٍ زاهدةٍ في الدنيا متعاليةٍ من أجل إرضاء زوجها .. كزوجةٍ شريفةٍ تحتقر مباهج الدنيا في سبيل أن تبقىٰ إلىٰ جانب زوجها ... كزوجةٍ مخلصةٍ تُسند زوجها الفارس البطل المغوار الذي قاوم القياصرة والأكاسرة .. كزوجةٍ تقدم لزوجها الزَّغراتا والمساعدة عند العُسرْة .. كأمٍ تحنو علىٰ بنيها الذين كانوا نُجُومَ الزمان ومشاعل الكَوْن

لِنقرأ هذا الملحون : حَربتها، أي لازمتها

أَخْيَر مَا نمجدٌ بنتٌ شفيع الإسلام

تَسَاهلْ المجَد مولاتْنا فاطِمة الزهراء

عَلِي طبْع الزَّهد عـاش بـه ، أَفـاهم الأشْـعار

والزهــراء بــالزهد راضـيا صِـلْة الأبـراري

والقــلِة مـن زهـد كـانت المَـوْلاتي فَـخْرى

لابِــدْعَا، لافِــيش، لافشَـرْ فـيها، لا تـهتارا

لا جُــوهر، ولا لْــوِيز عـند هْـلّال أبـصاري

لا أثــاث فـ: قـلْب دَارْهـا يـفتَنْ فـ النَّـظرة

لا تْسَـال عـن زوج لَـا لَآ نَـا بِـنْت المـختار

حزْم أو عزْم وجدّ عن الزّهْد ـ اصفَي لاشعارِي

والفــرُوسيا امــجند لا قَــيْصر عــن كِسْـرَا

هـيَّ « الزَّغْـرَاتَـا إلَـى يـبارزْ فَـارِس مِـغْوار

أو هــي لِــمواســياه فــي شـدّ التـعَّـساري

وهي الأم اللّي اعْـنَات بـغْصِينَات الشَّـجرْة!!

وبعد أن أثنى على مولاتنا فاطمة الزهراء كزوجةٍ، يعود فيثني عليها كأم، قال :

هِيَ مَـن رشْـفُوا طـفْالها هٰـذا الدِيّـن انـهار

رضْعُوه مِـن حْـلِيبْها نـقيّ صـافِي لَـعْيَارى

أوْ بِــه تــفَطّموا وكِــي ابـغَاتْلْهُم الزَّهـرا..

هِـيَ مَـن ربّـات كـلّ واحـد فـيهم صَـبْار

وهْــي مــن عــمراتْــهُم وهــم ادْرَارِي

بالحكما والعلِم والأخلاق أسِيد أمن اسْرى

هي مَن حكما اخـذَاتْـها مـن يـوم الهِـجْرَة

كــانَت ذُرِيــا صِــغيوْرة..

وقد كان خامس هؤلاء الشعراء الذي اهتموا بالإمام عليّ و **فاطمة الزهراء** الشيخ التهامي المدغري المتوفى ١٢٨٦هـ الذي تُسجل له قصيدة في الإشادة بالسيدة **فاطمة الزهراء** و هُوَ غير السيد التهامي المدغري الشهير..

إن إجلال فاطمة لم يقتصر علىٰ الديار المغربية، ولكنه تجاوز تلك الديار إلىٰ الجزيرة الإيبيرية حيث نجد مدينةً بكاملها تحمل اسم فاطمة في (سنْتَرين) شمال ليشبونه عاصمة البرتغال ، وإنه بالرغم مما يقال عن هذاالاسم في الأساطير المتداولة فان الباحثين لا ينسون أبداً صدى فاطمة الزهراء في الغرْب الإسلامي كله و لا يستبعدونَ تأثير هذا الاسم في جنوب الأندلس لا سيما ونحن نعلم عن العلاقات الإنسانية التي كانت للمغاربة بجنوب أروبا علىٰ الخصوص ..

❊❊❊

إن أهم نوعٍ برز فيه شعراء الملحون بالمغرب كما قدمنا هو شعر الغَزَوات أو الشعر الملحمي الإيبوبي ..Epopee، وهكذا نجد لرجال الملحون فيه قصائد رائعةً لا تقل عما يعرف في الآداب العالمية في حين نلاحظ فيه أن الأدب العربي الفصيح فقيرٌ في موضوع الملاحم..

و من هنا يكون علينا ـ ونحن نعيش السنة الدولية للإمام عليّ رضي اللّٰه عنه ـ أن نقوم بدراسة ما يتصل بالإمام في هذا الحقلِ من حقولِ التراث الشعبي في الديار المغربية، هذا الحقل الذي يقترب من العامة أكثر من غيره. والذي نجد فيه معانَي ودلالالتٍ قد يعجز عن أدائهاالأدبُ الفصيح المتداول بين المثقفين .. ونعتقد جازمين أن استحضار هذه الشهادات في مثل هذه اللقاءات الدُّولية مما يترجم عن وصولِ صدىٰ جهاد الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ إلىٰ ضفاف المحيط الأطلسي وبالتالي إلىٰ تخوم إفريقيا، صدىٰ جهادهِ ضد الظلم ، ضد الجهل ضد كل مظاهر الحيف والقهر والقمع والتسلط .. إنه أدب رفيع يكشف لنا عن جوانب من التاريخ، و عن شخصياتٍ مغمورة، عن مواقع جغرافية لم يلتفت إليها الذين اهتموا بالتاريخ للقادة الأولين للإسلام .. والأمل أن تتمكن أكاديمية المملكة المغربية من نشر الأجزاء العشرين لمعلمة الملحون بعد أن نشرت أجزاءها الستة

الأولىٰ[1]...

وفى الختام نقدم لكم قصيدة (البعير) معركة بين اليهود وسيدنا علي) من نظم الشاعر الشيخ المكي البصير[2].

وهي تحكي قصة وقعت في عهد **الرسول** (ص) حيث ظهر بعيرٌ يجري علىٰ لسانه اسم الله و**رسول الله** ! فتمالا اليهود والمشركون علىٰ تكبيله وأخذوا يستعدون لحرقه، فجفل إلىٰ حضرة **النبي** الذي آواه، وأمام تعنت اليهود وتهديدهم الوقح استنجد بسيدنا عليّ الذي حضر علىٰ الفور ليحكّم سيفه (البتراء) في أعناق اليهود وأهل الكفر..

نَـــبْدَا فـــنَظمي بـــاسم اللـــه ... ونـــصلّي عـــلى رسـول اللـه
اللّـي مـا صـلّىٰ عـنو واعـصاه ... اعـــصَى ربّـــي مـــن الحُكَـــما
صـــلّى ربـــي عـــلْمَاحي ... قـــدْ المـــطَر ولَـــرْيَاحي
صـــلاتو هِـــيَا ربَـــاحي ... بِـــهَا فـــازَت قـــوْم عـــظِيَما
اللّـي مَـا صـلىٰ عـنّو، وابخل ... يـــوم القـــيامَا يَـــوْحَل
صـــلاة المـــصطفىٰ عْسَـــل ... صِـــلّو عَـــليه زيـــدو ديـــما
صـــلاتو تـــعدل فَـــالميزان ... بِـــهَا يـــنْقَال يـــوم النّـــيران
إطِـــير الطّـــير بـــلا جَـــنْحَان ... كـــمثَل البَـــرْق فـــالسَّما
بـــعْد صْـــلاَتو زِيـــن البُشْـــرَا ... نِـــعيد لَكـــم مَـــدَىٰ يَـــجْرا
اليـــهود ومُـــول البَـــتْرا ... عَـــلِي عْـــلَام العُـــلَمَا

---

١. نشرت أكاديمية المملكة المغربية من هذه المعلمة التي ألفها الأستاذ أ لراحل محمد الفاسي الجزء الأول بقسميه والثاني بقسميه كذلك، والجزء الثالث (قسم واحد) ، ثم الجزء اليتيم .. ولما توفي رحمه الله ١٤ جمادى الثاني ١٤١٢ الموافق ٢١ ديسمبر ١٩٩٩م توقف النشر! ولابد أن عمل الأستاذ الفاسي يحتاج إلىٰ تنويه خاص نظراً لما قام به من تقنين لهذا الشعر ووضع عرُوض خاص له و طريقة ضبطه و شكله ومصطلحاته كذلك .. ويحرص اليوم الأستاذ الحاج أحمد سهوم علىٰ أن يقوم بواجبه من أجل الحفاظ علىٰ هذا التراث الجليل الذي ـ كما رأينا ـ لا تقتصر فائدته علىٰ المغرب ولكنها تمتد إلىٰ الجهات الأخرىٰ من عالمنا الإسلامي .

٢. الشيخ المكي البصير هو بالذات ابن القرشي بن الجيلاني (تلقب عائلته بولد واجه)، توفي بالعرائش أواخر شوال ١٣٥٢ ـ أواسط فبراير ١٩٣٤، له عدة قصائد : اليوسفية، والمصرية، والبغداديّة .. محمد الفاسي معلمة الملحون ١١١ص ٣٢٣.

بـــعْد هـــذا يـــا حـــضار نـــعيد لكُـــم مَـــا سَـــار
قـــصة البـــعِير مـــع الكـــفُار فـــحْيَاة النـــبي بـــو عْـــمَامَا
قَـــالوا فـــقْوالهـــم الجُـــهَال هـــاذ البـــعير لازمُ يـــقتَال
جِـــيبُوا البـــعِير راه اخْـــلاَهَا لا يَسْـــحركُم بُـــو كـــلْثُومَا
قَـــتْلُوه مـــنّو يـــهنا الخـــاطر ولا حـــــرّقُوه بـــالمجَامر
و لا يَسْـــحركُم ذاك السّـــاحر و لا يَـــــرْغَبكم بـــــذْمَامَا
اتْـــجَمعُوا الكُـــفار مـــثل َ الجَـــرَاد وِيْـــنكُم يَـــا هـــل العـــمَاد
جِـــيبُوا البـــعير عـــلى ْرْبَـــع اوتَـــاد رَاه اجـــفَل مـــن الحُكَـــامَا
عَكـــلُوا بـــعكلات حْـــدِيد ودَمْـــعُوا يَـــهْطَل يَـــبْكِي وازِيـــدْ
وإقُـــوال لطـــفك بـــالوحِيدْ فكـــنِي مـــن جـــيش الظـــلاما
لا مَـــــلْهُو قـــلبُو حِـــنين اِقُـــول اهْـــدَوا عـــنوا مسْكِـــين
يـــا رَبّـــي تـــخزِي الظـــالمين وتـــحشُرْهم فِـــي جَـــهْنَما
رفـــدُوا عـــنو حَـــجَر وتـــراب قـــالو: هَـــذَا هـــو العـــذاب
اجِـــميوا كـــوشَا ومـــجَامر تـــلهب وارمـــيَوه فـــيها حـــتى ْيكْـــتَامَا
شـــعلو الكـــوشا قـــالوا أراو حـــرقو البـــعير فـــيها نَشْـــفاو
ســـمعهم عـــنو يـــتواصـــلو فـــزْعَت روحـــو يَـــا كـــرَما
قَـــال فـــقولو قـــالو هـــاج اللّـــه اللّـــه مـــول الفـــراج
طَـــرْطَق الكـــبَل ســـرح لَـــعواج واجـــفل جـــفلا مـــثل نـــعاما
ركـــبو اليـــهود ســـارو تـــبعوه حـــلْفو بـــحلُوفهم لاعـــتقوه
مـــا يْـــهنَاغِير إلَـــىْ حـــرْقوه واقُـــولُو هـــمَا اللّـــي زعَـــاما
ركـــبَت عـــنو اليـــهود شَـــلا تـــبعوه بـــمحَلا ومـــحَلا
حـــتى اوصـــل لزِيـــن المـــلا فـــقال للـــعَرِيس القِـــياما
انـــا جـــتك هـــارب مـــفْقُود اعـــتق رُوحـــي مـــن الصـــهود
جـــيش اليـــهود حـــارك بـــجنود اتـــحرق قَـــلبي يـــا بـــو عْـــمَاما

ادْوَي لِـــيه سِـــيد البَشّـــر ... مـــرحـــبا بـــيك، ادخـــلْ للـدار!
مـــا نسْـــمَع عـــنك لغـيار ... سَـــعْدِي بِـــيك يـــابو فـــاطما
دخـــــلو لدارو واسْكَـــن ... قـــال لو: لا تـــخاف ولا تـــحزن
عـــندي رجـــال حـــرار تـــطحن ... ســـيوفها دايـــما ز طْـــامَا
جَـــاو اليـــهود مـــن كـــلّ فـجيج ... كـــــانهم جـــراد هـــجيج
دَارُو بـــــالمدِينا دبْـــلِيج ... ادْعَـــاوا يـــالقُوْة وزْعَـــاما
رسْـــلو البـــرا للـــمصطفى ... بـــــالواجب ادي الخَـــلاّفا
اعـــطِينا البـــعير مـــا تـــحافا ... مـــا تـــقدر لِـينا بـخصوما!
اعـــطينا البـــعير رســـلولِيّا ... ولا نـــــخليو المـــــدينة
ســـلطاناً بَـــاش امـــر لِـينا ... ولا تـــــعطِينا فـــاطمة!!
تكـــون خَـــادم عـــند الســـلطان ... تـــخْدَم عـــندو مـــوْلات الشـــان!!
وعَـــمرَ يـــتْكَنْدَز مـن الدُّرّغـان ؟ ... وإِكُـــون خـــدْيِم الخـــدَّامـــا
أو اعـــطِينا عـــلي يـــتسجن ... وفـــاطما عـــنو تـــحزن!!
تسْـــرَح وتـــرُوح مـــاليها شـــان ... تـــركب الدرَارِي والاِ يـــثاما!!
قَـــام نـــبِينا كِـــينْوار ... لوُنُـــو واقَـــف عـــنو لَـغْيَار
سِـــيدي عـــلِي مَـــا سَـاق خـبَار ... كـــان غـــايب عـــند العـــمّا
نـــاض البـــراح كَـــيْنَادي ... وِيـــنْكُم يـــاهَلْ الجِـــهاد
مـــوتو عـــلى ديـــن مـــحمد ... حَشَـــا النـــبي يشْـــرَب غـــما
سَـــمعوا البـــريح الصـــحابا ... خـــرجَـــات بـــخيولها ركـــابها
كأنـــــهم ســـبَاع الغـــابا ... عـــند النـــبي يـــا كـــرَامـــا
قـــال لهـــم: يـــا جـــمّع انـصَارِي ... هـــاذ البْـــعِير ادخَـــل داري
اليـــهود دارو ســـبع ســـواري ... قـــالو المـــدينا تهدامَـــا!
اوقـــف نـــبينا قـــام جِـــريص ... اخـــرج شـــعرو مـــن القـــميص
مـــن مَـــات منكم مـــات عـــريس ... فـــالجنة يـــوم القـــياما

قـــالو لو : يـــا شـفيع العِـباد نـــــفنيو اعـــمارنا والأولاد
بـــلش آمـــرتِي يَـوْفَا المـراد مـــــوتا وحـــدا تُـــلزَمَا
دادعَـــــا مـــعاهم، وقـــامو كـــلاًّ قَـــابِط سِـيفُو ولْـجَامو
عـــلِي غـــايب مـن رسَـامو مـــا بَـقَا تـنفعْ فـيه نـدامَـا
خـرجـو للـحرب مثل البِيزَان قْـــلان فـلان غـير الشـجعان
الْـــــف تـــغلب ألفـــان سـبحان رافـع السـماء
لرى الفـــــتن شـــلا ولات رَا الوِيـــدان بـــالدَّم اجـرَات
صـحاب الشِّـي شَـلا مـا مَات المـــجارح شَـــلا مـــعدُومَا
قَـــالُوا النّـــبِي زْهُـو الخـاطر مـصاب عـلي اكُـون حـاضرا!
مـــــا قُـــوقُوا إلا القَـــادر جِـــيبو يَـــا ربـــي بسْـلاما
سَـــيدي عـلي فـمسِير بْـعِيد ربـعين يُـوم عـنها وزِيـد
اسـمع العَـــيْطا قـام وكِـيد وصـــلها لو مـــلاك السـما!
فـاق عـلي مَـن غَـرْق النـوم اسـتعقل لِـيس اداه النـوم
عـــينيه حـــمْرات كـيف الدم بـــعد شـــيّر مـــن الغَـماما
جـــات عـــمتُو زرْبـــانا مَـــن خسـر نـومَك مـعَنا
أنت مـــا تـــرضَا بـــالَهانَا نَـــفْنِي عـــمُري عْـلِيك دِيـما
قـال لهـا بـالعمَّا! رقـاس معلوم أوصـــل عـندي فـهَاذ اليُـوم
يـا رِيت عـمِّي إكـون مظْيوم ! ونـــحضر فـي كـل كـرامـا
نـوُضِي ركـبْي فـي بـاب الدار السـرْحاني يـــعطي لخْـبَار
قَـــلْبُوعلى قَـلْبِي يكْـدِي نـار إلى اسـمع عـيطَة بـو عـمامة!
خـــرجت عـــمتُو غِـير تـركب تـــصيب السـرحـان كـيجدب
قـــالت :عْـــلِي غـــير اركب فـــاجِي عـلى عَـمّك الغـماما!
اتكـا عـلى سـرجـو وارمـاه ارمـــي رجـلُو، وقـال بـاسم اللـه !
عـــيونك يـــا عـــزة اللـــه اللّـــه يـــا حكـيم الحكـاما

سخر ليه الله المْتْعال ... مَّلاك امصور كالغزال
هْنَا ولهِيه عنو يحتال ... والسّرْحَان كيترَامَا
هز عينو، كيف ارماها ... صاب المدِينا جاها
قال، فقولو لا إلاها ... غير اللّه ما أعظاما
ادخَل وصاب بنْت الهادي ... كتْبكي وتنُوح يا سيادي
جيبُو يا ربنا الجَّوادي ... حبْابنا سَارو في لامَا
ادخّل السيد على كِيبهْضْ ... كْحَل وجْهُو بعْد كان أبيض
والسرحان يجدب وإعض ... والبَتْرَا تحتو مْلُوما
سَلّ البَتراء ياحضار ... ربْعات الذروع قالو لسطار
بالمالِكْيا تْزَاد واكثر ... قالو سدَاتنا العلماء!
أحركْ بها ايمن وإيسار ... حصاد فلاح فزْرَع زيدار
والرؤوس تطِير مثل لغمار ... وتزغرد عنو فاطما!
حرك فيهم زين الغنْبُور ... واكسرهم كفراك الزرْزر
استحَقْ المحلا كلها ... لامن باقِي يتلقتْ فيها
وخبارهم لامن يدّيها ... قِبيلة اليهود محرَّمَا
كَذَا من يهودِيا ابكات ... قالت: خُوها وبوها مات
خَلا الكلاب سارو جيفات ... إلىٰ غَّدا يوم القياما!
انطقت لِهُم بالخلِيفا ... كلّ وحدا تعنق جيفا!
ورَاكم ترفدوا النطفا ... تصبحوا حاملات من تما
ارضِيوا على السيد على ... قبل الصباح والفجر
الرّضا عليه بالسر ... هجّاج القوم الظلاما
والسلام من المكّي الضرير ... عالشرْفَا وكل فقير
مدح النبي عليه نغِيْر ... الصلاة عليه فالأرض والسَما

الحربُ والسِلْمُ في فكر الإمام علي(عليه السلام)

الدكتور علي يوسف نورالدين

أستاذ في الجامعة اللبنانية

أبو الحسن، علي بن أبي طالب﴿عليه السلام﴾ (٢٣ ق هـ ـ ٤٠هـ / ٥٥١ ـ ٦٠٠م): شخصية متميّزة في التاريخ الاسلامي: فهو وإنْ لم يبلغ النبوّة فإنّهُ لمْ يبقَ في منزلةِ البشرِ وذلك، بما أسبغ عليه الله عز وجل، من مزايا ... وبما أفاض عليه به الرسول الأكرم من روحه وعقله .. وبما اشتملت عليه شخصيته من خصال لم تجتمع لأحد من بني البشر .. سوى الأنبياء:

«فعن جابر قال: «دعا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ **عليّاً يوم الطائف فانتجاه، فقال الناس: لقد طال نجواه مع ابن عَمِه؛ فقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: «ما انتجيتُه، ولكن الله انتجاه» رواه الترمذي»**[1].

وعن سهل بن سعد، أن الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ قال يوم خيبر: «**لأُعْطِيَنَّ هذه الرايةَ رجلاً، يفتحُ اللّهُ على يَدَيْه: يحبُّ اللّه ورسولَهُ، ويحبُّهُ اللّهُ ورسولُه ... فلمَّا اصبح الناسُ غدَوا على رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ كلُّهم يَرْجُو أن يُعطاها**..فقال: «أين علي بن أبي طالب ... فأتى ... فأعطاه الراية ..»[2].

وعن حُبْشي بن جُنادة قال: قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: «**عليٌّ منّي، وأنا من عليّ،**

---

١. الخطيب التبريزي: «مشكاة المصابيح» ٣ / ١٧٢١، تخريج ناصر الدين الألباني، المكتب الاسلامي، بيروت، ١٩٧٩م.

٢. «صحيح مسلم» بشرح النووي ١٥ / ١٧٨، القاهرة، ١٣٤٩ هـ. و «مشكاة المصابيح» ٣ / ١٧١٩.

ولا يؤدّي عني إلاَّ أنَا أو عليّ»[١].

وعن سعد بن أبي وقّاص قال : قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ لعليّ : «أنت مني بمنزلةِ هارون من موسى، إلَّا أنه لا نبيَّ بعدي»[٢].

وعن زيد بن أرقم أن النبي ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ قال : «من كنتُ مولاه، فعليٌّ مولاه »[٣].

وعن عليّ قال : «كانت لي منزلةٌ من رسول الله ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ لم تكن لأحدٍ من الخلائق، آتيه بأعلى سحر.[٤]

هذا فضلاً عن مؤاخاة الرسول ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ بينه و بين عليّ وقوله له : «أنت أخي في الدنيا والآخرة»[٥]، وأحاديث أخرى كثيرة تؤيد عليّاً وترفع شأنه وتقوّي حجّته ... مما لامجال لذكرها الآن[٦].

---

١. «مشكاة المصابيح» ٣ / ١٧٢٠.

٢. «مشكاة المصابيح » ٣ / ١٧١٩ و « صحيح مسلم » ١٥ / ١٧٤، وأبن أبي عاصم : «السُّنَّة » ٢ / ٥٦٥ تخريج و تحقيق ناصرالدين الألباني، المكتب الاسلامي، بيروت، ١٩٨٠م.

٣. «مشكاة المصابيح » ٣ / ١٧٢٠، و « السنَّة» ٢ / ٥٦٥.

٤. «مشكاة المصابيح » ٣ / ١٧٢٣.

٥. «مشكاة المصابيح » ٣ / ١٧٢١.

٦. صُنِّفَت في فضائل الامام علي ومناقبه، التي اختصَّ بها، وامتاز بها عن سائر الصحابة مؤلفات كثيرة، عدا ما أودع مضامين الكتب التي لا تحصى : فمن الكتب : خصائص الامام علي للنسائي (طبع مراراً)؛ وخصائص الامام علي للحافظ ابي نعيم الاصفهاني؛ وخصائص الامام علي، لأبي عبدالرحمن السكري؛ وكتاب ما نزل فيه من القرآن، للحافظ ابي نعيم الأصفهاني ...الخ.

ومما حوته بطون الكتب، ما أورده ابن الأثير الجزري صاحب «التاريخ » في كتابه «أسد الغابة في معرفة الصحابة » (ط : مصر) : «روىٰ يزيد بن هارون عن فطر بن الطفيل : «قال بعض أصحاب النبي(٦) : لقد كان لعلي من السوابق، ما لو أنَّ سابقةً منها بين الخلائق، لَوَسِعَتْهُم خيراً.

وأورد الحاكم النيسابوري في « المستدرك» بسنده عن ابن عباس قال : «لعلي أربعة خصال ليست لأحد : هو أوّل عربي وأعجمي صلّىٰ مع رسول الله (ص)، وهو الّذي كان لواؤهُ معه في كُلِّ زحف، وهو الذي صبر معه يوم المهراس (أحُد)، وهو الذي غسّله وأدخله قبره».

كما أورد الحاكم في «المستدرك» بسنده، أن النبيَّ (٦) قال : «لَمُبَارزةُ علي بن أبي طالب لِعَمْرو بن عبد ودّ يوم الخندق، أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة» (إشارة إلى زَوال الاسلام بسيف عَمْرو فيما لو لم يقتله عليّ). انظر السيد محسن الأمين، «أعيان الشيعة» الجزء الثاني والثالث، دار التعارف، بيروت، ١٩٨٣ .

الامام علي والحرب :

عُرِفَ الإمام علي منذ صِغرِه، بأنه خبيرٌ في شؤون الحرب، التي لا يرى فيها سوى جهادٍ في سبيل اللّٰه، دفاعاً عن الحق، ونشراً لهذا الدّين الحنيف، وهداية للناس وتوعيتهم، تمهيداً لبلوغ أرقى درجات الكمال .

وقد تجلّت عبقريةُ الإمام في هذا المجال عَبْرَ أُمور كثيرة منها :

١. الشجاعة :

وهي رأس الأمور وأصل المسائل، بها يتم الامتثال للأوامر، والإنتهاء عن الزواجر؛ وهي ضرورة وواجبة لاتخاذ القرار .. كما هي ضرورة وواجبة في الميدان، للإقدام والالتحام وتحقيق الانتصار. لذا كانت الشجاعة في الحروب القديمة- بل حتى في الحروب المعاصرة.. مع ما تشهده من تقدُّم تكنولوجي - أمضى سلاح لدى الجيوش، لتحقيق أهدافها؛ وهي واجبة عند القادة اولاً، لأنهم القدوة لمرؤوسيهم من عناصر الجيش : بهم يتمثَّلون ، ولأوامرهم يمتثلون ؛ وقد قالت الحكماء : « **أسدٌ يقودُ ألْفَ ثعلب ، خيرٌ من ثعلبٍ يقود ألفَ أَسَد**»[١].

وقد أورد ابن عبد ربه في« العقد» أنّ بني فراس بن غُنيم بن كنانه ، كانوا من أشجع العرب وانجدهم و«كان الرجل منهم يعدل عشرة من غيرهم. وفيهم يقول**علي بن أبي طالب** لأهل الكوفة : منْ فاز بكم، فقد فاز بالسهم الأخيب، أبدلكم اللّٰه بي، من هو شرٌ لكم، وأبدلني بكم من هو خيرٌ منكم : وَدَدْتُ واللّٰهِ ، أن لي بجمعكم وأنتم مائة ألف - ثلثماية من**بني فراس بن غُنيم**»[٢].

وهذا تأكيد على إدراك**الامام علي**، خطورة هذه الصفة ودورها الفعَّال في إحراز النصر؛ وذلك انطلاقاً من قوله :(**وكم من فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن اللّٰه، واللّٰهُ مع**

---

١. الطرطوشي : « سراج الملوك» ٥٠٠، شركة رياض الريس، بيروت، ١٩٩٢م

٢. ابن عبد ربه : « العقد » ١ / ٨٣، تح. العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٥٣م .. وانظر «نهج البلاغة» ٦٧ تحقيق، صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٧م.

الصابرين)[١] **... وقوله تعالى :(يا أيها النبيُّ حرّض المؤمنين على القتال، إنْ يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإنْ يكن منكم مائة ، يغلبوا ألفاً من الذين** [٢]**كفروا)**.

ولم يكن الإمام علي ليطلبَ هذه الصفة من جُنْدِه دون نفسه، وهو القائل : «**مَن نصَّب نفسَه لِلناسِ إماماً فليبدأ بتَعليم نفسه قبل غيره**» .. بل كان القدوة في هذا المجال ، حتى ضُرِبت الأمثالُ بشجاعتِه، فأنسى ذِكْرَ من كان قبله، ومحا اسمَ مَنْ يأتي بَعْده ؛ وكفى في ذلك ، أنه كان صاحب راية **الرسول** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ في المواقف كلّها (**سوى تبوك**) ؛ وما ذاك، إلَّا لأنه كان كرَّاراً غير فرَّار، قد امتحنَ اللّٰه قلبه بالايمان ، يضرب رقاب المشركين ويفتح اللّٰه على يديه.

وقد ظهرت شجاعة عليّ مذ كان صبياً، يطارد صبيان المشركين الذين كانوا يرمون **الرسول** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ بالحجارة والتراب ... فيمسك بهم ويقضمهم في آذانهم وأنوفهم .. حتى دُعي بالقضيم .. ثم في مبيته على فراش **النبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ ليلة الغار موطّناً نفسه على القتل، والعصبة من قريش محيطون بالدار ليفتكوا بمن في الفراش .. ثم لما سار بالفواطم[٣] بعد الهجرة جهاراً، من مكة إلى المدينة، فلحقه ثمانية من فرسان قريش ، على رأسهم جناح، مولى **حرب بن أمية** الذي أهوى بالسيف وهو فارس، إلى علي وهو راجل، فحاد **علّي** عن ضربته، وضربه بسيفه فقطعه نصفين وهرب بقية الفرسان .

وفي يوم بدر (٣هـ)، قتل أصحاب لواء المشركين جميعهم، وانهزم بقتلهم المشركون وكاد النصر يتم للمسلمين لولا مخالفة **الرسول** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ ... وكان من بلاء **علّي** في هذه الموقعة واستماتته في الدفاع عن النبي، ما جعل المسلمين يسمعون صوتاً يردد في السماء: «**لا سيف إلَّا ذو الفقار ولا فتى إلَّا علي**».

وفي وقعة الخندق (٥ هـ)، لم يجرأ أحدٌ من المسلمين على مبارزة **عمرو بن عبد ود**، و **النبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يقول :« **مَنْ لعمرو وقد ضمنت له على اللّٰه الجنة**»، فلم يقمْ إليه أحد ، إلَّا

---

١. سورة «البقرة» من الآية ٢٤٩.

٢. «سورة الأنفال» من الآية ٤٥.

٣. هُنَّ :فاطمة بنت رسول اللّٰه (٦)، وأُمُّه : فاطمة بنت أسد بن هاشم، وفاطمة بنت الزبير بن عبدالمطلب، وزاد بعضهم: فاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب .

عليٌّ ...

وفي يوم خيْبر (٧ هـ) أظهر عليّ من البطولة والشجاعة والقوة، حدّاً بلغ الخيال .. وكذلك شأنه في كل وقائعه[1].

و طار المثل بضرباته الأسطورية، التي «**إذا علا بها قدَّ، وإذا اعترض قطَّ..**».

٢ ـ الرعب:

لم يكن «**ذوالفقار**» هو السيف الوحيد الذي يمتشقه **الامام علي** في حروبه دفاعاً عن هذا الدين الحنيف، بل سلَّ إلى جانبه سيفاً آخر لا يقل مضاءً عن «ذي الفقار»، إلَّا أنه خفي عن العيون:

ذلك، أنه نتيجة لضروب البطولة والشجاعة التي أظهرها **علي بن أبي طالب**، والتي لم يعرف العرب لها نظيراً في حروبهم، دبَّ الرعبُ في قلوب أعدائه .. حتى باتوا يخشون لقاءه.

وقد زاد من أثر هذا الرعب، وإرهاف حدّه، ما مَنَّ **اللّه** به على **الامام علّي** ﴿عليه السلام﴾ من ألوان التأييد الإلهي، سواء بصورة مباشرة على لسان **الرسول** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ أو بصورة غير مباشرة من خلال آيات قرآنية كثيرة:

ففي «**صلح الحديبية**» (٦هـ) جاء مندوب قريش سهيل بن عمرو الى **النبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فقال: يا محمد، إنَّ أرِقَّاءنا لحقوا بك، فأردْهم علينا؛ فغضب **رسول اللّه** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ حتى تبيَّن الغضبُ في وجهه، ثم قال: «**لَتَنْتُهنَّ يا معشر قريش، أو لَيبعثَنَّ اللّه عليكم رجلاً امتحن اللّه قلبه بالايمان، يضرب رقابكم على الدّين**». فقال بعض مَن حَضَر: يا **رسول اللّه**: فلان ذلك الرجل؟ قال: «لا»، قال: ففلان؟ قال: «لا، ولكنه خاصف النعل في الحجرة»؛ فسار الناس الى الحجرة ينظرون مَنِ الرجل، فإذا هو **علي** ﴿عليه السلام﴾ ...

---

١. انظر: «سيرة ابن هشام ٣ / ٣٨٧، تح. محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت، لا. ت والكاندهلوي «حياة الصحابة» ١ / ٥٦٤، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٦٨م.

(إ[1]ذْ يوحي ربُّكَ إلى الملائكةِ أني معكم، فَثَبِّتُوا الذين آمنوا، سألقي في قلوب الذين كفروا الرُّ[2]عب...).

كذلك في غزوة بني قريظة (٥ هـ) فعندما رأى اليهود عليّاً يتقدم جيش النبي﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾، قذفَ اللّه في قلوبهم الرعبَ فالتجأوا إلى حصونهم حتى جهدهم الحصار واستسلموا، وأنزل اللّه فيهم قوله :(**وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صَيَاصِيهم وقذف في قلوبهم الرعبَ، فريقاً تقتلون وتأسرون فَريقاً، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم يطؤوها، وكان اللّه على كل شيءٍ قديراً**)[3].

وقد ذكر **ابن خلدون**، أنَّ من أسباب النصر في المعارك ـ إلى الأسباب المادية ـ أسباباً خفيَّةً: «وهي إمَّا من خِدَع البَشر وحيلهم، في الأرجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل... وإمَّا أن تكون تلك الأسبابُ الخفيَّةُ أموراً سماوية، لا قُدرةَ للبشر على اكتسابها، تُلقَى في القلوب، فيستولي الرعبُ عليهم لأجْلِها؛ فتختلُ مراكزُهم، فتقعُ الهزيمةُ. وأكثر ما تقعُ هذه الهزائمُ عن هذه الأسباب الخفية، لكثرة ما يُعتملُ لِكلٍّ واحدٍ من الفريقين فيها، حرصاً على الغَلَب؛ فلا بُدَّ من وقوع التأثير في ذلك، لأحدِهما، ضرورةً»[4].

وهذا ما أشار إليه **الرسول** ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ بقوله: «**نُصِرتُ بالرُّعبِ مسيرةَ شهر**»، «**فكان الرعبُ في قلوبهم (الأعداء) سبباً للهزائم في الفتوحات الاسلامية كلّها، إلّا أنه خفيَ عن العيون**»[5].

---

١. من ذلك أن الرسول (٦) في سرية ذات السلاسل (٩هـ)، دعا علياً فعقد له ثم قال: «أرسلته كراراً غير فرّار» ثم رفع يديه إلى السماء يدعو له وشيَّعه إلى مسجد الأحزاب... وفي غزوة خيبر قول النبي(٦): «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب اللّه ورسوله، ويحبُّه اللّه ورسوله، كرّاراً غير فرّار، يفتح اللّه علىٰ يديه».. وعن أم عطية قالت: «بعث رسول اللّه (٦) جيشاً فيهم علي؛ فسمعتُ رسول اللّه وهو رافعٌ يديه يقول: «اللهم لا تمتني حتى تريني علياً» («مشكاة المصابيح» ٣/ ١٧٢٢).

٢. سورة «الأنفال» من الآية ١٢، وأنظر سورة «الأحزاب» الآيات: ٢٥ و ٢٦ و٢٧، وسورة «الأنفال»، الآيتان ١٧ و ١٨، وسورة «آل عمران» الآيات ١٢٣ إلى ١٢٦.

٣. سورة «الأحزاب» الآيتان ٢٦ و ٢٧.

٤. ابن خلدون: «المقدمة» ٤٩٠، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٥. نفس المصدر: ٤٩١.

٣ـ الصّيت والشهرة:

وقد جمع هذا العامل بين الشجاعة والرُّعب ؛ لأنه ينهلُ شجاعةً، فيفيضُ رُعْباً.. وهو أحد العوامل التي جعلها **ابن خلدون** من الأسباب الخفية في إحراز النصر: «والسببُ في ذلك، أن الشهرة والصّيتَ إنما هما بالأخبار ؛ والأخبار يدخلها الذهولُ عن المقاصد عند التناقل، ويدخلها الأوهام... لخفائها بالتلبيس والتصنُّع»[١].

والصّيت والشهرة، ربما تناولا جماعة بأكملها.. أو شخصاً واحداً بعينِه.. تبعاً لمعطياتٍ وظروفٍ معتبرةٍ، في حينها، لذاتها:

فمن الجماعات التي طار صيتُها، وعمَّت شهرتها الآفاق: «بنو فراس بن غُنيم ابن كنانه» المُشار إليهم آنفاً؛ إذْ «كان الرجل منهم يعدلُ عشرةً من غيرهم»[٢] و «هوازن: وهم قومٌ رُمَاةٌ، لا يكادُ يسقطُ لَهُم سَهْمٌ[٣]... كذلك فقد شُهِرَ عن «المُوَحّدِين» (في المغرب العربي) أنهم لا يأسرونَ مشركاً محارباً إن ظفروا به، ولو كان ملكاً عظيماً، بل تُضربُ رِقابُهم، كثروا أو قلّوا»[٤].

غير أن أوّل من طارتْ شهرتُه في الاسلام، وصارت وقوّتُه وفروسيته مضرب المثل بين الناس إلى يومنا هذا... هو **علي بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾**، قاتل بطل العرب **عمرو بن عبد ودٍّ** (في وقعة الخندق (٥ هـ) وفاتح حصن خيبر وقاتل صاحبه مرحباً اليهودي (٧ هـ)[٥]... وهو الاسم الذي جلجلت الملائكة به سماء «أُحد» (٣ هـ): «لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي»[٦]. وإذ بهذا الصوت يعبر الزمن، من مشرق الأرض إلى مغربها، لنَجد صداه في الاندلس، وينشدَ شاعرُهم:

إنْ تكنْ فارساً فكُن كعليٍّ ... أو تكنْ شاعراً فكنْ كابنِ هاني

كلُّ مَنْ يَدَّعي ما ليس فيهِ ... كذَّبَتْهُ شواهدُ الامتحانِ

---

١. نفس المصدر: ٤٩٢.

٢. (٢١) ابن عبد ربه «العقد» ١ / ٨٣: «نهج البلاغة» ٦٧ ط الصالح.

٣. «صحيح مسلم» ١٢ / ١١٨.

٤. ابن خلكان «وفيات الأعيان ٧/ ١١٣، تح. احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.

٥. أنظر: «سيرة ابن هشام» ٣ / ٢٤١، والكاندهلوي: «حياة الصحابة» ١ / ٥٦٠.

٦. «سيرة ابن هشام» ٣ / ٥٢، و «تاريخ ابن الأثير» ٢ / ٥٨، المطبعة المنيرية، القاهرة، ١٣٤٨ هـ

ولعلّ افضل مثال نضربه حول أثر صيته ﴿عليه السلام﴾ في حياته، ما قاله الامام علي في غزوة «بني قريظة» (٥ هـ): «سرتُ حتى دنوت من سُورهم، فأشرفوا عليَّ، فلمَّا رأوني صاح صائح منهم: قد جاءكم قاتل عمرو؛ وقال آخر: قد أقبل عليكم قاتل عمرو؛ وجعل بعضُهم يصيح ببعض ويقولون ذلك، وألقى الله في قلوبهم الرعب حتى ركّزتُ الراية في أصل الحصن..»[١].

كذلك في سرية «ذات السلاسل» (٩ هـ) فبعد أن أرسل الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ ثلاثة من قادة المهاجرين (بينهم عمرو بن العاص)، إلى المشركين وعادوا مهزومين، سأل عن عليّ، فأرسله إليهم، فقال لهم عليّ: يا هؤلاء، أنا رسول رسول الله أليكم، أن تقولوا لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله، وإلّا ضربتكم بالسيف، فقالوا: انصرفْ عنّا كما انصرف ثلاثة، فإنك لا تقاومنا؛ فقال: إنني لا أنصرف؛ أنا عليُّ بن أبي طالب؛ فاضطربوا..»[٢].

أما في سرية عليّ إلى أهل فدك (٦هـ) فإنه قد غنم منهم أموالهم من دون أن تُراقَ قطرة دم واحدة.. لأنهم فرّوا جميعاً من معسكرهم، بمجرد سماعهم بمقدمِهِ إليهم... ومثلُ هذا كثير.

٤ـ شِعْرُ الحرب:

من خلال استعراضنا لتاريخ حروب العرب والمسلمين مع أعدائهم. وعلى امتداد العصور ـ نقف على عامل مهم من عوامل تحقيق النَّصرِ في تلك الوقائع؛ وهو عامل لم يُعْطَ ـ في رأينا ـ ما يستحقه من الإهتمام والدراسة؛ ألا وهو دور الشعر الجهادي، عملياً وميدانياً، وتأثيره على مجريات الأُمور ووقائع الأحداث وساحات المعارك: إذْ مِنَ الملَاحَظ، أنّ الجيش الاسلامي، لم يكن يحارب بسواعد رجاله، أو بما يملكه من أسلحة ومعدّات، أو بما هو عليه من تدريبٍ عالٍ وجهوزيةٍ دائمة، وانضباط تام.. أو بما هو مشبع به من عقيدة عظيمة، يجد نفسه معها على أهبة الاستعداد للتضحية في سبيلها بكل غالٍ

---

١. «أعيان الشيعة» ٢ / ٢٦٦.
٢. نفس المصدر ٢٨٦.

ونفيس.. أو بما يكتنفه من مؤثرات نفسية أخرى متنوعة.... وحَسْب [١].. بل كان يحارب أيضاً بذلك الجيش الرديف الخفيّ، المتفجر في صدور المجاهدين براكين هادرة، من الإقدام والحميّة والاندفاع.. هذا الجيش، المتمثل بتلك القصائد الحماسية العصماء، التي كانت تسري في أوساط الجيش والشعب على السواء، سريان النار في الهشيم، تحثهم على صدق المواجهة، وتثير في جوانحهم حميّة الاسلام وعِزَّته، وتدفعهم لِنُصرة إخوانهم في الدّين، في كل مكان.. في إطارٍ من التعبئة النفسية الدائمة، التي نراها اليوم من خلال الموسيقى الوطنية والعسكرية والأناشيد الجهادية.

وانطلاقاً من هذا المبدأ، لا نرى عجباً، إذا وجد الشعرُ طريقاً إلى لسان الامام علي... ومكاناً له في حروبه :

ففي وقعة الخندق (٥ هـ) راح عمرو بن عبد ود يصول ويجول حول المسلمين وهو ينادي: مَنْ مبارز؟ فقام علي وقال: أنا له يا نبيَّ الله، قال: إجلس، إنه عمرو..ثم كرر عَمرو النداء، وجعل يوبّخ المسلمين ويقول: أين جنَّتُكم التي تزعمون أنه مَنْ قُتِل منكم دَخَلها؛ أفَلا يبْرزنَّ إليَّ رجلٌ؟ ثم قال :

ولقد بُحِحْتُ من النِدا ... ءِ بجمعِكم هل من مُبَارِزْ
إنـي كـذلكَ لم أزلْ ... متسرعاً نحو الهزاهز
إنَّ الشجاعة في الفتى ... والجودُ من خير الغرائز

فقام إليه علي بعد أن أذِنَ له الرسول في «الثالثة»، وهو يقول :

لا تعجلنَّ فقد أتا ... كَ مجيبُ صوتِكَ غير عاجز
ذو نيةٍ وبصيرةٍ ... والصدقُ منجَى كل فائز
أني لَأرجو أن أقِيـ ... مَ عليكَ نائحةَ الجنائز
من ضربةٍ نجلاءَ يَبْـ ... قى صيتُها بعد الهزاهز

---

١. انظر في هذا المجال دراستنا: «المؤثرات النفسية في حروب العرب والمسلمين»، مجلة «الفكر العربي» ١٥٥ ـ ١٧٨، العدد ٩٠، معهد الانماء العربي، بيروت، خريف ١٩٩٧م.. وكتابنا: «نظم السلم والحرب في الاسلام» (تحت الطبع).

وما هي إلَّا صولة، خاطفة.. حتى خَرَّ على إثرها عمرو صريعاً؛ وما إن رأى مَن كان معه من صناديد قريش ما حلَّ بعمرو، حَتى ولّوا هاربينَ، فرجع علي إلى مقامه الأول وهو يقول:

أعليّ تقتحمُ الفوارس هكذا ... عني وعنهم خبِّروا أصحابي
اليوم تمنعني الفرار حفيظتي ... ومصمم في الرأس ليس بنابي
أرديتُ عمراً إذْ طغى بمهنَّدٍ ... صافي الحديد مجرّبٍ قصَّابِ
فصدرتُ حين تركتُه متجدّلاً ... كالجذع بين دكادكٍ وروابي
وعففتُ عن أثوابِه ولو أنني ... كنتُ المقطّر بزَّني أثوابي

أما في وقعة خيبر (٧هـ) فقد خرج «مَرحب» من الحصن وهو يقول:

قد علمتْ خيبرُ أني مرحبُ ... شاكي السلاح بطل مجرّبُ
أطعنُ أحياناً وحيناً أضربُ ... إذا الليوثُ أقبلتْ تلتهبُ

فبرز له عليٌّ ﴿عليه السلام﴾ وهو يقول:

أنا الذي سمَّتني أميّ حيدره ... أكيلُكُم بالسيف كَيْلَ السندرة
ليثٌ بغاباتٍ، شديدٌ، قَسْوَره

القيادة الرشيدة:

ومن أبرز سماتها:

١ ـ التدبير الحكيم:

كان الامام علي، من أبعد الناس بصيرةً، وأصحهم تدبيراً: سواء في ما كان ينهض له بنفسه، أو في ما كان يشير به على الآخرين:

ففي السرايا التي كان يقودها بنفسه، كان يحرصُ على السّرّيَّةِ التامة في تحركاته، وكأنه كان يعمل بالحديث الشريف: «**واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان**».

ومن ذلك، أنه كان يسير الليل ويكمن في النهار، ليخفي أمرَ تحركه على العدوّ؛ بل إنه في أحيان كثيرة، كان يُظهر أنه ينوي التوجه إلىٰ ناحية، ثم يقصد أخرى، تفويتاً للفرصة على العيون والمنافقين، الذين ربما كانوا في صفوف عسكره ـ وتعتبر سرية «ذات

السلاسل» نموذجاً جيداً لاستقراء سلوكه العسكري وبعض خططه الحربية[١].

وكان من حسن تدبيره الحربي، أنه ما كان ليذهب إلى حرب قَطْ، من دون الإعدادِ لها بشكل كافٍ، انطلاقاً من :

ـ الإعداد النفسي:

بما أنَّ الدّينَ كان العاملَ الأهمَّ ـ إنْ لم يكن الأَوْحَدـ الذي أسهم في توحيد العرب[٢]... ثم المسلمين، بعد أن جرى في عقولهم ووجدانهم وأفئدتهم مجرى الروح من الجسد، فآنسوا ـ من خلاله ـ في أنفسهم القوة والمنعة، وتزوّدوا من مبادئه وتعاليمه بأقوى سلاح يشدُّ أزْرَهم، ويقوّي عزيمتهم.. لينطلقوا بعد ذلك من صحرائهم، إلى أُممِ الأرض، وقد تجلببوا الإيمان، وتدرَّعوا العقيدة، رافعين راية الدعوة والجهاد، يقاتلون في سبيل اللّه صفاً واحداً، كالبنيان المرصوص... بعد أن كانوا من قبلُ قبائل شتى، يغزو بعضُها بعضاً...

وبما أن الجهاد كان الفريضة الأهم، التي ثُبِّتَتْ بها قواعد الاسلام، واستقرت بثبوتها شرائع الملَّة ؛ فقد شغلت هذه الفريضة من نفس الإمام علي حيّزاً كبيراً، وملكت عليه روحه وحياته، حتى عاش ومات مجاهداً، فكان سيد المجاهدين .

وبما أن هذه الفريضة، هي على الدوام، فعل عقيدة والتزام، قبل أن تكون فعل ممارسة، فقد حرص **الإمام عليّ**، على أن يعيش المسلمون هذه الفريضة، بكامل أحاسيسهم ومشاعرهم، من خلال خُطَبِه الكثيرة فيهم، في هذا المجال، والتي يشرحُ فيها معنى الجهاد، ويُظهرُ فضله، وأجره عند اللّه، وضرورته لحِمَايَةِ هذا الدين ؛ ثم يبيّن عاقبةَ التخلُّف عنه، وما يترتبُ على ذلك من ذِلٍّ وهوان.

وهو في كل خُطَبِهِ في هذا المجال، يرتقي بأفهامِ المسلمين وعقولهم شيئاً فشيئاً، حتى يأخذَ بمجامع قلوبهم، ثم يوصيهم بأن «عَضُّوا على الجهاد بنواجذكُم»[٣].. ثم يضع كلاً

---

١. انظر «أعيان الشيعة» ٣ / ٤١٢.

٢. انظر ما قاله ابن خلدون في هذا المجال، «المقدمة» ٢٦٦ و ٢٧٨.

٣. «نهج البلاغة» ١٧٩ (ط. الصالح).

منهم أمام مسؤوليته، في صراع نفسي عظيم قائلاً:

«اللهمَّ، أيُّما عَبْدٍ مِن عِبادِكَ سمع مقالتنا، العادلة غَير الجائرة، والمُصْلِحةَ غَيْرَ المُفسِدة، في الدّين والدنيا، فأبى بعد سَمْعِهِ لها إلَّا النكوص عن نُصْرَتِك، والإبطاءَ عن إعزاز دِينكَ، فإنَّا نستشهدُكَ عليه يا أكبر الشاهدين شهادةً، ونستشهد عليه جميع مَا أسكنتَهُ أرضكَ وسماواتِك؛ ثم، أنت بَعْدُ المُغني عن نَصْرِه، والآخذُ له بِذَنْبِهِ»[1].... **(وفَضَّل اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً)**[2].

ـ الدعاء إلى الله قبل لقاء العدو:

اقتفى **الإمامُ عليّ**، **سُنةَ النبيّ الأكرم** ﴿ﷺ﴾ في استحباب الدعاء إلى الله بالنصر عن لقاء العدو[3]: ذلك أن المسلمين في بداية أمرهم، كانوا قِلَّةً في العدد والعدَّة، وهم مع قِلَّتِهم، استطاعوا أن يهزموا كل القوى التي وقفت في وجههم، إذْ «أنَّ الإجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة»[4]. وهو ما سَبَقَ أن ذهب إليه **الامام علي**، عندما استشاره **عمر بن الخطاب**، في الشخوص لِقتالِ الفُرس بنفسه إذْ قال له: «...والعربُ اليوم، وإنْ كانوا قليلاً، فهم كثيرون بالاسلام، عزيزون بالاجتماع».

من هنا، كان اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى، في الأوقات العصيبة، حصناً نفسياً ركيناً، وفعلَ ممارسةٍ يومية، بل لَحْظَوِيَّة، لا ينقطع أبداً.. يستشعرون من خلال اللجوء اليه عزَّ وجلَّ، الراحةَ النفسية والطمأنينة والقوة، انطلاقاً من إيمانهم الراسخ بأنَّ ما يقومون به من فعل جهادي، إنما هو في سبيل الله.. فالله هو المبْتَدى والمُنتَهى، وكلُّ عملٍ جهادي، إنما هو في سبيله **(ليُحقَّ الحقَّ ويُبطلَ الباطل)**[5]، وجنودُه في ذلك إنما هم المؤمنون حقاً

---

١. «نهج البلاغة» ٣٢٩، وانظر في هذا المجال: «نهج البلاغة» ٦٩ و ١٧٥ و ١٧٧ و ٣٥٨، و «جمهرة الاسلام، ذات النثر والنظام» لمسلم بن محمود الشيزري (بتحقيقنا) فإن فيها خُطبتَيْن للامام علي، لم تُعرَفا مِن قبل، دار المنتخب العربي، بيروت (تحت الطبع).

٢. سورة «النساء»، من الآية ٩٥.

٣. كانَ الرسول (٦) يدعو عند لقاء العدو:«اللهمَّ اهزمهم وزلزلهم»، «صحيح مسلم» ١٢ / ٤٧.

٤. ابن خلدون: «المقدمة» ٢٧٩.

٥. سورة «الأنفال» من الآية ٨.

(الذين إذا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قلوبُهم، وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُه زادتْهم إيماناً، وعلى رَبّهم يتوكلون)[١]..

وبالتالي، فعلى اللّهِ نصْرُهم تبعاً لقَوْلِه تعالى:(يا أيها الذين آمنوا، إنْ تنصروا اللّه يَنصرْكُم ويثبّت أقدامكُم)[٢].

بل لقد جعل اللّه سبحانه، نصرَهم، حقاً عليه، فقال (وكان علينا حَقّاً نَصرُ المؤمنين)[٣] ثم أكدَّ اللّه ذلك بقوله:

(و لَيَنْصُرَنَّ اللّهُ مَن يَنْصرُه، إنَّ اللّه لقويٌ عزيز)[٤].

وهذا ما أكَّده **الامام علي** في معرض رَدّهِ على عُمَر أيضاً ـ وقد هالَ هذا الأخير كثرةُ الفُرس وقلةُ العرب ـ إذ قال علي: «وأمَّا ما ذكرتَ من عددهم، فإنَّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالنصر، والمعونة».

وكان عليٌّ قد قال لعُمرَ ـ وقد استشاره في غزوة الروم ـ: «وقد تَوكَّلَ اللّه لأهلِ هذا الدّينِ بإعزاز الحوزة، وسَتْر العَوْرة؛ والذي نَصَرَهم وهم قليلٌ لا ينتصرون، ومَنَعهم وهم قليلٌ لا يمتنعون، حَيّ، لا يَموت»[٥].

وهكذا، كان **الامام علي**، يوصي أصحابه بإخلاص الدعاء إلى اللّه، في كلّ موقف من مواقفهم القتالية، ليستمودوا من آيات النصر، ذخيرةنفسية، تشحذ عزائمهم، وتثبّت أفئدتهم، (قل ما يعبأ بكم رَبّي لولا دعاؤكم...)[٦].

ومما كان يقوله ﴿عليه السلام﴾، إذا لقي العَدوَّ، محارباً:

«اللّهم إليكَ أفْضَتِ القُلوبُ، ومُدَّتِ الأعناقُ، وشخصتِ الأبصارُ، ونُقِلتِ الأقدام، وأُنْضِيَت

---

١. سورة «الأنفال»، من الآية ٢.
٢. سورة «محمد»، من الآية ٧.
٣. سورة «الروم»، من الآية ٤٧.
٤. سورة «الروم» من الآية ٤٠.
٥. «نهج البلاغة» ١٩٣ و ٢٠٤، استناداً إلى قوله تعالى:(ولقد نصَركُم اللّه بِبَدرٍ وأنتم أذلّةٌ..) (سورة «آل عمران» من الآية ١٢٣).
٦. سورة «الفرقان»، الآية ٧٧... وقبل لقاء العدو في صفّين خطب عليّ أصحابه، حتى انتهى الى القول:«.. ألا إنكم لاقوا العدوَّ غداً إن شاء اللّه، فأطيلوا الليلةَ القيامَ، وأكثروا تلاوة القرآن، واسألوا الصبرَ والنصر، والقوهم بالجدّ والحزم، وكونوا صادقين..»، أنظر «نهج البلاغة» ٢٤٥.

الأبدان..»[١].

ـ التحريض على القتال :

واقتفاءً لسنّة النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، كان **الإمام عليّ** قبيل المعركة، يقوم في أصحابه مقام الواعظ، فيقوّي من عزيمتهم، ويحرّضهم على القتال، ويدعوهم للصبر، انطلاقاً من قوله تعالى: (**يا أيُّها النبيُّ حَرّض المؤمنين على القتال، إنْ يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإنْ يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً مِنَ الذين كفروا بأنهم قومٌ لا يفقهون**)[٢].. ثم يحذّرهم من عاقبة الفشل والفرار، عملاً بقوله تعالى:(**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار، ومَنْ يُوَلّهم يومئذٍ دُبُرَه إلّا مُتحرّفاً لِقتالٍ، أو مُتَحَيّزاً إلى فئةٍ، فقد باءَ بغضَبٍ مِنَ اللّهِ ومأواه جهنّم وبئسَ المصير**)[٣].

ومِن حثّه ﴿عليه السلام﴾ لأصحابه عند الحرب :

«لا تَشتدَّنَّ عليكم فَرَّةٌ بَعْدَها كَرَّةٌ، ولا جَوْلَةٌ بعدها حَمْلَةٌ ؛ وأعْطُوا السيوفَ حقوقها، ووَطّنوا للجُنُوبِ مصارعَها، واذْمُروا أنفسَكم على الطعنِ الدَّعْسِيّ[٤]، والضَّربِ الطَّلَحْفيّ[٥]؛ وأميتُوا الأصواتَ، فإنه أطردُ للفِشلِ : فَوَالّذي فلقَ الحبّةَ، وبرأَ النسمةَ، ما أسلموا، ولكن استسلموا وأَسَرُّوا الكُفْرَ، فَلَمّا وَجَدُوا أعواناً عليه، أظهرُوه»[٦]... «وأيُّ امرِىءٍ منكم أحسَّ مِنْ نَفسه رباطةَ جأشٍ عند اللقاء، ورأى من أحدٍ من إخوانه فشَلاً، فَلْيَذُبَّ عَن أخيه بفضلِ نجدته التي فُضّلَ بها عليه، كما يَذُبُّ عن نفسِه ؛ فلو شاءَ اللّهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ، إنّ المَوت طالبٌ حثيثٌ، لا يفوتُه المقيمُ، وَلا يُعْجِزُه الهاربُ. إنّ أكرمَ الموتِ القتل ؛ والذي نَفْسُ ابنِ أبي طالبٍ بيَدِهِ، لَألْفُ ضَرْبةٍ بالسَّيفِ أهونُ عليَّ من مِيتةٍ

---

١. «نهج البلاغة» ٣٧٣.
٢. سورة «الأنفال»، الآية ٦٥.
٣. سورة «الأنفال»، الآيتان ١٥ و ١٦.
٤. الدّعسي: من الدعْس ؛ أي الطعن الشديد.
٥. الطّلَحْفي: (بكسر الطاء، وفتح اللام): أشد الضرب .
٦. «نهج البلاغة» ٣٧٤.

على الفراش في غيرِ طاعةِ اللّه»[١].

ـ وصاياه لأُمراء جيشه:

وكما ظهر حسنُ تدبير الامام علي، ودِقَّةُ تنظيمه، في الأمورِ التي باشرها بنفسه، كذلك ظهر الأمرُ عينُه في وَصاياه لأُمراءِ جيشه، من حيث إطاعةُ أُولي الأمر منهم و عدم تفرّقهم.. ثم وضعُ الخطط لهم في ساحات المعارك، تلافياً لأي خطأ. وذلك عمَلاً بقوله تعالى: (**يا أيها الذين آمنوا، إذا لقيتم فئةً فاثبتوا، واذكروا اللّه كثيراً لعلكم تُفْلِحون، وأطيعوا اللّه ورسوله ولا تَنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحُكم، واصبروا، إنّ اللّه مع الصابرين**)[٢]: فمن كتابٍ له (عليه السلام) إلى أميرين من أُمراء جيشه:

«وقد أَمَّرْتُ عليكُما، وعلى مَنْ في حَيِّزكما، **مالكَ بنَ الحارث الأَشْتَرَ**، فأسْمَعَا لَهُ وأطيعا، واجْعلاهُ دِرْعاً ومِجنّاً، فإنَّهُ مِمَّن لا يُخَافُ وَهْنُهُ، ولا سَقْطَتُهُ، ولا بُطْؤُهُ عَمَّا الإسراعُ إليه أحزمُ، ولا إسراعُهُ إلى ما البُطْءُ عنه أمْثَلُ»[٣]... «فإذا نَزَلتُم بِعَدُوٍّ أو نَزَل بكم، فلْيَكُنْ مُعَسْكَركم في قُبُلِ الأشراف[٤]، أو سِفاحِ الجبالِ، أو أثناء الأنهار[٥]، كَيْما يكونَ لكم رِدءاً، ودونكم مَرَدّاً. ولتَكُنْ مقاتلتُكم من وَجْهٍ واحدٍ أو اثنين، واجعلوا لَكُم رُقَبَاءَ في صَيَاصي الجِبال[٦]، ومناكبِ الهضاب، لِئلَّا يأتيكم العدوُّ من مكانِ مخافةٍ، أو أمْنٍ. واعلموا أنَّ مقدَّمةَ القوم عيونُهم، وعيونَ المقدّمةِ طلائعُهُم؛ وإيَّاكم والتفرُّقَ: فإذا نزلتُم فانزلوا جميعاً، وإذا ارتحلتُم فارتحلوا جميعاً، وإذا غشيَكُمُ الليلُ، فأجعلوا الرماحَ كَفَّةً[٧]، ولا تذوقوا النومَ إلَّا غِراراً، أو مضمضة[٨]..»[٩]، «... فَقَدِّموا الدّراعَ، وأخِّرُوا الحاسِرَ، وعَضُّوا

---

١. نفس المصدر، ١٨٠.
٢. سورة «الأنفال»، الآيتان ٤٦ و ٤٧.
٣. «نهج البلاغة» ٣٧٢.
٤. في قُبُلِ الأشراف: أي قدّام الأماكن العالية، والأشراف، جمع شَرَف.
٥. أثناء الأنهار: منعطفات الأنهار.
٦. صياصي الجبال: أعالي الجبال.
٧. كفَّة: أي مثل كِفَّة الميزان: مستديرة، محيطة بكم.
٨. غِراراً ومضمضة: الغِرار (بكسر الكاف): النوم الخفيف؛ والمضمضة: أن ينامَ ثم يستيقظ ثم ينام، تشبيهاً بمضمضة الماء في الفم، يأخذه ثم يمجُّه.
٩. «نهج البلاغة» ٣٧١.

على الأضراس، فإنَّهُ أنبى للسيوف عن الهام، والتَوُوا في أطراف الرماح، فإنه أمْوَرُ لَلأسِنَّة، وغُضُّوا الأبصارَ فإنَّه ُ أربطُ للجأش، وأسكن للقلوب ؛ وأميتوا الأصوات َ فإنه أطردُ للفشل، ورايَتَكم فلا تُميلُوها ولا تُخِلُّوها، ولا تجعَلوها إلَّا بأيدي شُجعانكم... وأيْمَ اللّه، لئِن فَرَرْتُم من سيف العاجلة، لا تسْلَموا من سيف الآخرة...»[١].

ومن وصية **الامام عليّ لِمَعقل بن قيسٍ الرياحي** حين أنفذهُ إلى الشام: «اتَّقِ اللّه الذي لا بُدَّ لَكَ من لقائه، ولا منتهى لكَ دُوْنَهُ، ولا تقاتلنَّ إلَّا مَنْ قاتَلَكَ، وَسِرِ البَرْدَين[٢] وغوِّرْ بالناس[٣]، ورَفِّهْ في السَّيْر، ولا تسِرْ أوَّلَ الليلِ، فإنَّ اللّه جَعَلَه سَكَناً، وقَدِّرَهُ مُقَاماً لا ظعناً، فأَرِحْ فِيه بَدَنكَ، ورَوِّحْ ظَهْرَكَ. فإذا وَقَفْتَ حين ينبطحُ السَّحَرُ، أو حينَ يَنفجرُ الفجرُ، فسِرْ على بركة اللّه[٤] فإذا لقيتَ العدُوَّ، فقِف من أصحابِك وسطاً، ولَا تَدْنُ من القَوم دُنُوَّ من يُريدُ أن يُنشِبَ الحرْبَ، ولا تَبَاعَدْ عنهم تَبَاعُدَ مَنْ يهابُ البأسَ، حتى يَأتيَك أمري، ولا يحملنَّكم شَنآنُهُم على قِتالِهم، قبل دُعَائِهم والإعذارِ[٥] إليهم»[٦].

٢ـ عدم مخالفة الكتاب والسنَّة:

يَرى المُحلّلُ للوقائع التي جرت بين **الامام علي** وأعدائِه، أنَّ علياً لم يعتمد في حروبه، إلَّا ما وافق الكتابَ والسُّنَّةَ، وطَرَحَ ما سوى ذلك، مما قد يفتقدُ إلى المعايير والأصولِ الأخلاقية للجهاد؛ لأن الغاية من هذه الحروب هدايةُ الناس إلى دين اللّه، ورفعُ الظلم عن البشر، حتى يعيش الجميع بأمن وسلام.. وبالتالي لَيْسَت الحرب من أجْل الحرب، أو لاستعمار الآخرين واستعبادهم ؛ وهذا جلياً من خلال وصايا **عليّ** لأصحابه ـ

---

١. نفس المصدر: ١٨٠.

٢. البَرْدان: وَقتُ ابتراد الأرض والهواء من حَرِّ النهار؛ أي: الغَداة والعَشي.

٣. غوِّرْ: أي أنزل بهم في الغائرة، وهي القائلة: وقت اشتداد الحر ظهراً.

٤. كان الرسول إذا بعث سرية، دعا أميرَها فأجلسه إلى جانبه وأجلس أصحابه بين يديه، ثم قال «سيروا باسم اللّه، وباللّه، وفي سبيل اللّه، وعلى ملّة رسول اللّه..» (المجلسي: «بحار الأنوار» ١٩ / ١٧٧، مؤسسة الوفاء، بيروت، والكليني: «الكافي» ٥ / ٢٧، طبعة ايران).

٥. الإعذار إليهم: تقديم ما يُعذرون به قتالهم.

٦. «نهج البلاغة» ٣٧٢...وانظر: «أعيان الشيعة» ٣ / ٣٧٦، وانظر ص ٩٧ منه أيضاً.

جَرْياً على السنَّة النبويَّة ـ فيقول: «.. فإذا كانت الهزيمةُ ـ بإذن الله ـ فلا تقتلوا مُدْبِراً، ولا تُصيبُوا مُعْوِراً[١] ولا تُجهزوا على جَريح، ولا تهيجوا النساءَ بأذىً، وإنْ شَتَمْنَ أعراضَكُم، وَسَبَبْنَ أُمراءكم...»[٢].

وقد روى **أبو أمامة**: «أنَّه شهد «صفّين» (٣٧ هـ)، فلم يَرَ جريحاً يُقْتَل، ولا مولىً يُقْتَل، ولا قتيلاً يُسْلَب»[٣].

وسَأل أحدُهم عليّاً عمَّا هو فاعلٌ بأهل «الجَمَل» (٣٦ هـ) فقال (عليه السلام):

«بالمَنّ، كما سار **رسولُ الله** (صلى الله عليه وآله وسلم) في أهل مكة»[٤].

وعن **أبي حمزة الثمالي** قال: قلتُ **لعلي بن الحسين** (عليه السلام): إنَّ **علياً** (عليه السلام) سار في أهل القبلة بخلاف سيرة **رسول الله** (صلى الله عليه وآله وسلم) في أهل الشِّرْك. قال: فغضب، ثم جلس، ثم قال: سار والله فيهم بسيرة **رسول الله** (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الفتح: إنَّ **علياً** (عليه السلام) كتب إلى **مالك** ــ وهو على مقدّمته في يوم البصرة ـ بأن لا يطعن في غير مُقبل، ولا يقتل مدبراً، ولا يُجْهز على جريح، ومَنْ أغلق بابَهُ فهو آمنٌ»[٥].

كما أنَّ تقيُّدَ **الامام عليّ** بالسُّنَّة، يظهر واضحاً من خلال التشديد على أمراء جيشه، بضرورة إعذار العدو وإنذاره ــ كما مرَّ من خلال وصيته **لِمعقل بن قيس الرياحي** ــ قبل المباشرة بأي حرب.. بل الانتظار حتى يبدأ العدُّو بها، فتقوم عليه الحجة، ولا يُنسبُ المسلمون للغدر. وفي مثل هذا يقول **الامامُ عليّ** لأصحابه: «لا تُقاتلُوهم حتى يَبْدَؤوكم، فإنَّكُم بحمدِ اللهِ على حُجّةٍ، وتَرْكُكُم إيَّاهم حتى يبدؤوكم حُجَّة أخرى عليهم..»[٦].

---

١. المُعْوِرُ: الذي امكن من نفسه وعجز عن حمايتها؛ وأصله: أعورَ، أي أبْدَى عَوْرَتَه.

٢. «نهج البلاغة» ٣٧٣.. وكان النبي(ص) إذا بعث سرية أوصى أمراءَها: «سيروا باسم اللّـه... لا تُغلُّوا، ولا تُمثّلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا صَبيّاً، ولا امرأةً، ولا تقطعوا شجراً إلّا تضطرُّوا إليها، وأيّما رجلٍ من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى رَجُلٍ من المشركين، فهم جارٌ حتى يسمع كلام الله: فإن تَبعكُم فأخوكم في الدّين، وإن أبى، فأبلغوه مأمنه، وأستعينوا بالله عليه» («بحار الأنوار» ١٩ / ١٧٧)، وانظر «صحيح مسلم» ١٢ / ٣٧.

٣. ابن سعد «الطبقات الكبرى» ١١ / ٥٨.

٤. الحر العاملي: «وسائل الشيعة» ١١ / ٥٨.

٥. «وسائل الشيعة» ١١ / ٥٥ و «بحار الأنوار» ٣٢ / ٢١.

٦. «نهج البلاغة» ٣٧٣.

ثم ينهىٰ **الامامُ علي**، عن استخدام أية وسيلة قد تصيبُ الأبرياء في الطرف الآخر بأذىً، ولو كان من خلالها يتحقق النصر، وبالأخص إلقاء السُّمّ على العدو؛ فعن **علي** ﴿عليه السلام﴾: «إنّ **النبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ نهى أن يُلقى السمُّ في بلاد المشركين».

معاملة الأسرى:

أما في معاملة الأسرى، فقد كان **للامام علي** في **رسول الله** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، في هذا الأمر أيضاً أُسوةٌ حسنة، إذ كثيراً ما كان **النبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يمنُّ على الأسْرَى بإطلاق سراحهم؛ وبالأخص إذا تمّ أسرُهم بعد الحرب ولم يكن هناك فداء؛ ورُوي أنه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ كان يطلق ما تبقّىٰ مِنَ الأسرى عند حلول شهر رمضان[1].. هذا فضلاً عن معاملتهم الحسنة مدَّة أسرِهم عملاً بالآيات القرآنية الكثيرة في هذا المجال[2].

وكما منع **الرسول** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ الأسْرَ عن أهل مكة، عند الفتح، وقال لهم قولتَه المشهورة: «إذهبوا فأنتم الطُّلَقاء»، كذلك منع **الامام عليّ** الأسْرَ عن أهل البصرة بعد موقعة «الجمل»؛ إذْ قالَ له بعض أصحابه بعد المعركة: إقسمْ بيننا أهلَ البصرةَ، فنجعلهم رقيقاً؛ فقال: لا فقالوا: كيف تُحِلُّ لنا دِماءَهم وتُحرّم علينا سَبْيَهم؟ فقال ﴿عليه السلام﴾: كيف يحِلُّ لكم ذريةُ ضعيفة في دار هجرةٍ وإسلام؟ أمّا ما أجلبت به القومُ في معسكرهم عليكم، فهو لكم مَغْنَمٌ؛ وأمّا ما وارت الدُّورُ وأُغلقتْ عليه الأبواب فهو لأهلِه، ولا نَصيبَ لكم في شيءٍ منه»[3].

٣ـ حسن الرأي:

لم يكن **الامام عليّ** ليَبْخَل بَرأيٍ يُسْدِيه، أو نصيحةٍ يُعطيها لسائلها، إذا وَجَدَ في ذلكَ مصلحةً للمسلمين، سواءٌ كان في سِدَّة الحكْم أو لم يَكن.

---

١. «وسائل الشيعة» ٧ / ٢٢٩.

٢. نظر: سورة «محمد» الآية ٤ وسورة «الانسان» الآية ٨، وسورة «الأنفال» الآيتان ٦٧ و ٧٠.

٣. «شرح ابن أبي الحديد» ١ / ٢٥٠.

فحين خرجَ **أبو بكر** بنفسه لقتال المرُتَدّين، أخذ **عليٌّ** بزمام ناقته، وقال:

«أقولُ لك ما قال لك **رسول الله** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يوم أُحُدٍ: شِمْ سيفَكَ، ولا تفجعْنَا بنفسِك، وأرجع إلى المدينة»[1]... فرجع.

وحين استشاره **عمرُ بنُ الخطّاب** في الخروج إلى غَزْوِ الروم، نصحه بعدم الخروج بنفسه، بل يبعث إليهم رجُلاً مجرّباً ومعه أهل البلاء والنصيحة، «فإن أظهرَ اللّه، فذاكَ ما تُحبُّ، وإنْ تكن الأُخرى، كُنْتَ رِدءاً للناس، ومثابةً للمسلمين»[2].

كذلك، فعندما استشاره **عُمَرُ** في الخروجِ لِقتالِ الفُرْس بنفْسه وتَجْييشِ أهلِ الأمصار إليهم ـ وقد هالَهُ ما سَمِعَهُ عن كثرتهم ـ نَصَحهُ **عليٌّ** بالبقاء في المدينة، وإبقاءِ أهلِ الشام وأهلِ اليَمن في بلدانهم خوفاً من هجوم الروم والحبشة على تلك البلدان وقد فرغت من الرجال. وكان الرأي الأمثل، الاستعانة بثبث أهل البصرة، ليكونوا مَدَداً للجيش. ثم قال له: «إنَّ الأعاجمَ إنْ نَظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصلُ العرب، فإذا اقتطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشدُّ لِكَلَبِهم عليك، وطمعهم فيك... وأما ما ذكرتَ من عددهم، فإنَّا لم نكن نقاتل فيما مَضى بالكثرة، وإنَّما كنا نقاتل بالنصر والمعونة»[3].

كما أنَّ **عليّاً** هو الذي أشار على **عُمَر** بالخروج إلى بيت المقدس لاستلامِها من أيدي المشركين، بعد أن تحصَّنوا فيها، وأجابوا لِلصُلح، بشرط قدوم الخليفة عليهم، لأنه في المسير اليهم «أخف وطأة على المسلمين في حِصَارهم بينهم»[4].

كذلك، فَقبْل محاربة **عليّ** ﴿عليه السلام﴾ للبُغاة في «الجمل» و «صفّين»، لم تكن تُعرفُ في الاسلام أحكامُ التعامل مع الفئة الباغية؛ ذلك أن أحكام التعامل مع المشركين تختلف تماماً عن أحكام التعامل مع البُغاة، باعتبار هؤلاء، من المسلمين الخارجين على الامام: فرغم أنهم يُهَدّدون كيان الدولة الاسلامية كلَّه، إلَّا أن قبولهم ـ ولو لَفْظاً ـ للاسلام، يُغيّر الحكمَ عليهم، وخصوصاً في مجال الأسْرِ؛ فهؤلاء البغاة لا يجوز قتالهم إلَّا بشروط، لا

---

١. السيوطي: «تاريخ الخلفاء» ٥٧.
٢. «نهج البلاغة» ١٩٣.
٣. «نهج البلاغة» ٢٠٣، وانظر: «أعيان الشيعة» ٣ / ٣٤٩.
٤. نجم الدين العسكري: «علي والخلفاء» ١٣٣.

مجال لذكرها الآن.. ثم هم إن رجعوا إلى طاعةٍ ووضعوا أسلحتهم، أو هُزموا ولم ينحازوا إلى فئة مناوئة أخرى، لم يُجَزْ قتالهُم، ولم يُتَعقَّب الفارُّ منهم، ولا يُقتَل أسيرُهم، ويُداوى الجرحى منهم. والعلماء يُجمعون على ذلك.. وعلى أنّ أحكام البُغاة مأخوذة من سيرة **الامام عليّ** ﴿عليه السلام﴾.

الامام علي والسّلْم:

وكما أنّ للحربِ قواعدَها وأُصولَها وآلاتِها وفنونها.. في الاسلام.. كذلك للسّلمِ قواعدُه وأصولُه ومواثيقه ومعاهداتُهُ....

غير أن المُتتبّعَ لسيرة **الرسول** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، يرى أنّ الأصلَ في العلاقة بين المسلمين وغيرهم، إنما هو السّلمُ؛ أمّا الحربُ فتحتاج إلى مُجَوّزٍ شرعيّ، حتى لوكانت حرباً دفاعية ـ كالحرب مع البُغاة ـ فهي محدودةٌ بحدود رفع الظلمِ ودفع التجاوز على النظام (**حتى تفيءَ إلى أمْرِ الله...**)[1]..

فعن **الامام الصادق** ﴿عليه السلام﴾: «إنّ الله عزّ وجلّ، بعث رسولَهُ إلى الناس عشر سنين ،فأَبَوْا أن يقبلوا حتى أمرَهُ بالقتال...»[2]، وقد سلك قبل هذا مسالك منها:

١ـ الدعوة: وأول ما بدأ به الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ من أجل نشر رسالته بين الناس، تحقيقاً، بل تأسيساً للسلم الحقيقي، بين الدول، أو في المجتمع (السلم الأهلي، وأمن الفِتَن)، هو الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والحجّة القويّة البليغة، وذلك انطلاقاً من قوله تعالى: (**ادْعُ إلى سبيل رَبّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة، وجادِلْهُم بالتي هي أحسن..**)[3]... (**وقلْ لهم في أنفسِهم قولاًبليغاً**)[4].

والرسول في بداية رسائِلهِ إلى قادة الدول المجاورة، يستخدم عبارات دقيقة،

---

١. سورة «الحجرات» من الآية ٩.
٢. «وسائل الشيعة» ١١ / ٩.
٣. سورة «النمل»، الآية ١٢٥.
٤. سورة «النساء» الآية ٦٣.

مدروسة تماماً، فيقول: «أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الاسلام؛ أسْلِمْ تَسْلَمْ، وأسْلِمْ يُؤْتِك اللّٰهُ أجرَهُ مرتين..»[١]: فهنا دعوة إلى الاسلام، وليس إنذاراً بالحرْب.. ثم «الحرب النفسية» (الوعد والوعيد) التي استخدمها **الرسول** (صلى الله عليه وآله وسلم) في الدعوة إلى الاسلام، ما هي إلّا نوعٌ من الحوافز والضغوط الخفيَّة، لتكريس هذا السّلم وتأكيده.. وهؤلاء، فيما لو رفضوا الدعوة، لم يوجه اليهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تهديداً مباشراً.. بل حَمَّلهم ضغطاً نفسياً آخر للقبول، بأنَّ عليهم إثمَ شعوبهم[٢]..

٢ـ **العهود والمواثيق:** كما لَجَأَ **الرسول** (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ من أجْلِ السِّلم ـ إلى إقامة الصلح، وعقد الهدنة، وإبرام المواثيق، عندما كان يرى أن الظروف تقتضي ذلك؛ فعقد هدنة مؤقتة مع المشركين، وهي التي عُرفتْ بصُلح «الحُدَيْبيَّة» (٦ هـ)؛ وَعقدَ أماناً دائماً مع نصارى «نجران»، كما أبرم تحالفاً لتبادل النصرة مع مَن يُرجى دعمُه للمسلمين، كما في تحالف **الرسول** (صلى الله عليه وآله وسلم) مع **نعيم بن مسعود**، باسم قبيلة أشجع (ولم يكونوا قد أسلمُوا بَعْد).

كلُّ هذا، و **النبيُّ** (صلى الله عليه وآله وسلم) يُشدّد على ضرورة احترام العهود والمواثيق، فلم ينقض عهداً، ولم يغدر بعدوّ، عملاً بقوله تعالى: (**يا أيها الذين آمنوا أوفُوا بالعقود**)[٣]... (**وأوفوا لعهدِ اللّٰهِ إذا عاهدتم**)[٤]...

٣ـ **الدعوة إلى الاسلام قبل القتال:** كان **النبي** (صلى الله عليه وآله وسلم) يدعو إلى تجنّب المواجهة قدر الامكان، من خلال تكرار دعوة العدوّ الى الاسلام... وكان يقول لأمير جيشه: «إذا لقيتَ عَدُوَّك من المشركين، فأدْعُهُمْ إلى ثلاث خِصالٍ «أو خِلال»، فأيَّتُهُنَّ ما أجابوك فأقبلْ منهم، وكُفَّ عنهم، ثمَّ ادْعُهُمْ إلى الاسلام...»[٥].

---

١. من رسالة النبي(٦) إلى قيصر، عظيم الروم؛ انظر محمد حميدالله: «مجموعة الوثائق السياسية» ١٠٩، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٥ م. وأنظر كتابنا: «الدبلوماسية في الاسلام» (تحت الطبع).

٢. في رسالة النبي (٦) إلى كسرى ملك الفرس: «فإن أبَيْتَ، فعليكَ إثْم ذ المجوس»، والى ملك الروم: «فإن تولَّيْت فعليك إثْمُ الأريسيين»، وإلى ملك مصر: «فعليك إثمُ القبط» («الوثائق السياسية» ١٠٩و ١٤٠).

٣. سورة «المائدة»، الآية ١.

٤. سورة «النمل»، الآية ٩١.

٥. «صحيح مسلم» ١٢ / ٣٨.

وعندما أعطى ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ الرايةَ لعليّ يومَ «خيْبر»، قال علي ﴿عليه السلام﴾: «يا رسولَ اللّه! أقاتلُهم حتى يكونوا مثلَنا؟ قال: انفذْ على رَسْلِكَ حتى تنزلَ بساحتِهم، ثم ادعُهمْ إلىٰ الإسلام، وأخبرْهُمْ بما يجبُ عليهم من حَقّ اللّهِ فيه ؛ فواللّه لأن يهدي اللّه بكَ رَجُلاً واحداً، خيرٌ لكَ من أن يكونَ لكَ حُمْرُ النَّعم»[1].

أي أن النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ كان دائماً يحاول تجنيب الناس وَيْلات الحرب، إذ أمكن تحقيق منطلق «الردع الإيجابي»، عملاً بقوله تعالى: (**وأعِدّوا لهُمْ ما استطعتم من قوة ومن رباط الخَيْل تُرهِبون به عدوَّ اللّهِ وعَدُوَّكم**)[2].. فإذا تَوَقَّفنا قليلاً عند كلمة «تُرهبُون»، نلاحظ أنها للتخويف، والرَّدع أولاً... وليس للحرب.. حتى إذا لم يكن هناك مناصٌ منها.. فالقوة جاهزة، والجيش مستعد.

وهذا ما اشتمله كلامُ **الرسول** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ إذْ قال: «يا أيها الناس، لا تتمنَّوا لِقَاءَ العَدُوّ، واسْألوا اللّه العافيةَ؛ فإذا لقيتموه، فأصبروا، واعلموا أنَّ الجَنَّة تحت ظلال السيوف...»[3].

الامام عليّ علىٰ خُطىٰ الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾:

وفي هذا المجال أيضاً لم يَجِدِ **الامامُ عليّ** ﴿عليه السلام﴾ عن خطى **الرسول** قَيْدَ أنملةٍ: فهو يوصي جنودَه قائلاً: «لا تقَاتلوهم حتى يبدؤوكم، فإنكم بحمد اللّه على حُجَّةٍ أُخرى لكم عليهم،

فإذا كانت الهزيمة بإذن اللّه، فلا تقتلوا مُدْبراً، ولا تُصيبوا مُعْوِراً، ولا تُجهزوا على جريح...»[4].

وهو يخاطب أمير جيشه **معقل بن قيس الرياحي** قائلاً: «ولا يحْمِلَنَّكم شنآنُهم على

---

١. «مشكاة المصابيح» ٣ / ١٧١٩، وانظر أيضاً حديث النبي (٦) لعليّ (٧) عندما بعثه إلى اليمن، وفيه: «.. لئن يهدي اللّه عزَّ وجلَّ على يديكَ رجُلاً، خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس، وغربت، ولكَ ولاؤه يا عليُّ» (وسائل الشيعة ١١/ ٣٠) و«أعيان الشيعة» ٢ / ٢٨٧.

٢. سورة «الأنفال»، الآية ٦٠.

٣. «صحيح مسلم» ١٢ / ٨٦.

٤. «نهج البلاغة» ٣٧٣، وانظر «أعيان الشيعة» ٣ / ٤٨٤ وما بعدها.

قتالهم قبل دُعائِهم والإعذار إليهم»[١].

حتى ولو وقعت الحرب، فإن **الإمام علياً**، لم يكن ليِيأس من إمكان إنهائها بما يرضي اللّه وتجنب الناس وَيْلاتها: ففي حرب «صفّين» (٣٧ هـ) دعا **عليٌّ معاوية ابن أبي سفيان** إلى حَصْر الحرب بينهما بالمبارزة فقال لمعاوية: «وقد دَعَوْتَ إلى الحرب، فَدَعِ الناسَ جانباً واخْرُج إلَيَّ، وأعفِ الفريقين من القتال، لِتَعْلَمَ أيُّنا المَرِينَ على قلبِه، والمُغَطَّى على بَصَرِه..»[٢].

عَهْد عليّ (عليه السلام) لابن الاشتر:

على أنّ أروعَ ما سَجَّلَه **الامامُ علي** في الدعوة إلى السلام، هو ما جاء في عهده إلى **مالك بن الحارث الأشتر**، حين وَلَّاهُ مِصْرَ، فقال: «... ولا تدفعنَّ صُلْحاً دعاكَ إليه عَدُوُّكَ، وللّهِ فيه رِضىً، فإنّ في الصُلح دِعَةً لجنودِك، وراحةً من همومك، وأمْناً لبلادك؛ ولكن الحذرَ كُلَّ الحذرِ من عَدُوِّكَ بعد صُلْحِهِ، فإنّ العدُوَّ رُبَّما قارَبَ لِيَتَغَفَّلَ[٣]، فَخُذْ بالحزم، وأتَّهِمْ في ذلك حُسْنَ الظَّن، وإنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وبينَ عَدُوِّك عُقْدَةً، أو ألْبَسْتَهُ مِنكَ ذِمَّةً، فَحُطْ عَهْدَكَ بالوَفاءِ، وارْعَ ذِمَّتَكَ بالأمانةِ، وأجْعَلْ نَفسَكَ جُنَّةً دُونَ ما أعْطَيْتَ؛ فإنه ليسَ من فرائض اللّهِ شيءٌ، الناسُ أشدُّ عليه اجتماعاً، مع تفرُّق أهوائِهم، وتشتُّتِ آرائِهم، من تعظيم الوفاءِ بالعُهودِ؛ وقد لزِمَ ذلك المشركون فيما بَيْنَهم دُونَ المسلمين لِمَا اسْتَوْبَلُوا[٤] من عواقب الغدر، فلا تَغْدِرنَّ بِذمَّتِكَ، ولا تَخيسَنَّ بِعَهدِكَ، ولا تَخْتِلَنَّ[٥] عدُوَّكَ فإنه لا يَجْتَرِىء على اللّهِ إلَّا جاهِلٌ شَقِيٌّ[٦]؛ وقد جعلَ اللّه عَهْدَهُ وذِمَّتَهُ أمناً أفضاهُ بَيْنَ العبادِ برحمتِهِ،

---

١. نفس المصدر: ٣٧٢.

٢. نفس المصدر: ٣٧٠، وانظر: «أعيان الشيعة» ٣ / ٤٦٥ وما بعدها.

٣. إشارةً إلى قوله تعالى: (وإن يريدوا أن يخدعوك) (سورة «الأنفال» الآية ٦٢).

٤. أي وجدوا عواقب الغدرِ وَبيلةً، مُهلكةً.

٥. الخَتْل: الخداع.

٦. يقول تعالى: (إلا الذين عاهدتم من المشركين، ثم لم يَنقُصُوكُم شيئاً، ولم يظاهروا عليكم أحداً، فأتِمُّوا إليهم عهدهم إلى مُدَّتِهم، إنّ اللّه يحبُ المتقين) (سورة «التوبة»، الآية ٤).

وحَرِيماً يسْكُنُون إلى مَنْعَتِهِ، ويستفيضون إلى جوارِه؛ فَلَا إدْغَالَ[١] ولا مُدَالَسَةَ ولا خِداعَ فيه. ولا تَعْقِدْ عَقْداً تُجَوِّزُ فيه العِلَل، ولا تُعَوِّلَنَّ على لَحْنِ قولٍ بَعْدَ التأكيدِ والتوثِقة، ولا يَدْعُوَنَّكَ ضيقُ أمْرٍ لَزِمَك فيه عَهدُ اللّه، إلى طلبِ انفساخِهِ بِغَيْرِ الحَقّ، فإنَّ صَبْرَكَ على ضيقِ أمْرٍ ترجو انْفِراجَهُ وَفضْلَ عاقِبتِه، خَيْرٌ من غَدْرٍ تخافُ تَبِعتَهُ؛ وأن تُحيط بكَ مِنَ اللّهِ فيه طِلْبَةٌ[٢]، لا تستقبلُ فيها دنْياكَ ولا آخِرَتَكَ...»[٣].

و **الامام عليّ**، كان يعيش هذا العهد ـ عندما كان خليفة ـ بكل جزئيَّاتِه وحيثيَّاتِه؛ بَلْ قَبْلَ أن يصيرَ خليفة. ومن ذلك، أنه هو الذي أشار على الخليفة **عمر بن الخطاب**، بضرورةِ المسير إلى «بيت المقدس» (إيليا) عندما حاصرها المسلمون وأبدى أهلُها ميلاً للصُلح، بشرط قدوم الخليفة إليهم، فذهب عمر، وأَبْرَمَ مَعهم ما عُرِفَ فيما بعد، بـ«العُهدة العُمَريَّة»؛ وكأنَّ **الامام علياً** في نصيحته لعُمر بالذهاب، كان يستجيب لقوله:(**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السّلمِ كافَّة، ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدُوٌّ مبين**)[٤].

الامام علي ﴿عليه السلام﴾ والسّلم الأهلي:

وكما حرص **الامام علي** ﴿عليه السلام﴾، على تأمين سلامة الدولة، من الأخطار الخارجية، كذلك حرص على صلابة الموقف الداخلي، عبر ترسيخ السلم الأهلي بوحدة الصف، وتأمين العدالة الاجتماعية، والحياة الحرَّة الكريمة، وحرية المعتقد، وأمن الفِتن وضمان حقوق الانسان... لا يخشى في اللّه لومة لائم.

ورغم غمطه حقَّهُ بالخلافة بعد **النبي** ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ تِبْعاً للآيات القرآنية، وللأحاديث النبوية الكثيرة التي تنصُّ صراحة على ذلك[٥] فإن **الإمام علياً** لم يتوانَ لحظةً في مَدّ يدِ

---

١. الإدغال: الإفساد.

٢. أي تؤخذك بجميع أطرافك مطالبةُ اللّهِ بِحَقِّهِ في الوفاءِ الذي غدرتَ به.

٣. «نهج البلاغة» ٤٤٢.

٤. سورة «البقرة»، الآية ٢٠٨.

٥. من ذلك قوله تعالى: (إنما وَلِيُّكُم اللّهُ ورسولهُ والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويُؤتون الزكاة وهم راكعون) (سورة «المائدة»، الآية ٥)، وقول النبي (٦): «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه..» و «أنت مني بمنزلة ←

المساعدة **لأبي بكر وعمر و عثمان** عندما كانوا يطلبون منه ذلك ـ وكثيراً ما كانوا يطلبون ـ حفاظاً على مصالح الأمة، وصوناً لوحدة المسلمين؛ بل كثيراً ما هبَّ لِرَأْبِ الصَّدْعِ إذا ما أحدق الخطر المسلمين:

دوره في إخماد الفتنة (زمن أبي بكر):

ففي أوائل خلافة **أبي بكر**، اعتزل عنه بعض الأنصار، فاغتَمَّ بعضُ القُرَشِيين (من المهاجرين) من ذلك، وتكلم خطبائهم، فَهَجَا **عمرو بن العاص** الأنصار، وهددهم أبو سفيان بالقتال.. فلما سمع **علي** ﴿عليه السلام﴾ بذلك، خرج مغضباً حتى دخل المسجد، وذكر الأنْصَارَ بخير، فَسُرَّ الأنصارُ بهذا الموقف، وقالوا: «ما نبالي بقولِ مَنْ قالَ، مع حُسْنِ قولِ **علي**»[1].

وتأكيداً علىٰ توثيق اللُّحْمَةِ بين المسلمين وَمَحْوِ الرِّيبة من نفوسهم، فقد رعى عائلة **أبي بكر** بعد وفاة هذا الأخير، بالزواج من أرملته وتربية ابنه **محمد** في حجره، حتى شبَّ، فكلفه أموراً عديدة في خلافته ﴿عليه السلام﴾ فيما بعد.

في خلافة عُمَر:

أمَّا في خلافة **عُمر**، فقد بلغ اعتماد الخليفة على **الإمام عليّ**، في جميع شؤون الدولة حداً بعيداً، لا يتسع المجال لذكره هنا.. ويكفي أن نورد بعضَ أقوالِ عُمر في فَضلِ عليّ عليه، لِندرك إسهامَه ﴿عليه السلام﴾ في ترسيخ السلم الأهلي، ودَورَهُ في حسن تسيير شؤون الدولة ووِحدة المسلمين ـ وهو خارج الحكْم ـ فمن ذلك:

«لَولا عليّ لَهَلَك عُمَر» و «لا أبقاني اللّه بَعْدَك يا **أبا الحسن**»، و «أعوذُ باللّهِ أن أعيشَ في يومٍ لستَ فيه يا **أبا الحسن**» و «اللهمَّ لا تُنزِلْ بي شديدةً إلَّا **وأبو الحسن** إلى جنبي» و

← هارون من موسى، إلَّا أنه لا نبيَّ بعدي..»و «أنت وَلِيُّ كل مؤمن بعدي..» و «من أطاع علياً فقد أطاعني ومن عصا علياً فقد عصاني..» و «هذا وليّي والمؤدّي عني..» وغيرها من الأحاديث، أنظر «أعيان الشيعة» ٣ / ٣٣٥ وما بعدها.

١. «تاريخ اليعقوبي» ٢ / ١٢٨، ابن ابي الحديد:«شرح نهج البلاغة» ٦ / ٢٣.

«أقضانا علي»[١].

موقف عليّ ﴿عليه السلام﴾ خلال الفتنة بين عثمان ومعارضيه:

بعد ستة أعوام من خلافة **عثمان**، بدأت المعارضة له تظهر في كل أنحاء البلاد. فقام **الامام عليّ** بواجبه، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحَذَّر **عثمانَ** من بعض الولاة الذين يقومون ببعض الأعمال ويوهمون الناس أنها بأمره.

وحينما اشتَدَّ الحصار على **عثمان**، أتى **الامام علي** ومعه **الحسن والحسين ﴿عليهما السلام﴾**، إلى منزل **عثمان**، وبذلوا جهدهم للدفاع عنه، رغم أن **عثمان** كان قد ترك أموراً سبق أن أشار بها عليه **الامام علي**، كان فيها صَلَاحُهُ لو عَمِل بها[٢].

السلم الأهلي وخلافة عليّ:

وعندما آلَت الخلافة إلى **عليّ**، كان أشد حرصاً على وحدة المسلمين ورَصِّ الصفوف، لِتصدُّع اللُّحمة الاجتماعية في خلافة **عثمان**؛ فساق الجميعَ بالحق، وساوى بين المسلمين بالعطاء، ولم يذكر مَن سَبقه من الخلفاء إلَّا بخَيْر، ولكنه اقتصر على بيان أحَقِّيَّته بالخلافة وسكوته عن هذا الحق، حفاظاً على وحدة المسلمين؛ ولعلَّ حديث عُمر لابن عباس، خيرُ ما يؤكد ذلك ويُبينُ مذهبَ الامام **علي** في الحياة، إذ قال له: «إنَّ **علياً** ابن عَمِّكَ لأحقُّ الناس بها، ولكن قريشاً لا تحتمله، ولئن وَلِيَهُم، لَيأخُذَنَّهُم بمُرِّ الحقِّ، «لا يجدون عندهُ رخصة»[٣].. ولعلَّ هذا ما يفسّرُ لنا ما يُنسب **للإمام علي ﴿عليه السلام﴾** من القول: «لم يتركْ ليَ الحقُّ صاحباً».

ولعلَّ حُبَّ عليّ للحقّ، وابتعادَهُ عن الأساليب الملتوية في إدارة شؤون الحكم، جعلت كثيراً من المتضررين، يعمدون إلى إشعال الفِتَن في عهده لإقصائِهِ عن سَدَّة

---

١. انظر «طبقات ابن سعد ٣ / ٣٣٩، والسيوطي: «تاريخ الخلفاء» ١٧١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ

٢. انظر حسين الديار بكري: «تاريخ الخميس» ٢ / ٢٦٣، مؤسسة شعبان، بيروت.

٣. «تاريخ اليعقوبي» ٢ / ١٥٩.

الخلافة، ونشر الفساد والظلم في الأرض، بتفريق شمل المسلمين، وإضعاف شوكتهم.

وهكذا قامت أكبر فِتْنَتَيْن عرفهما الاسلام.. في وجه **الامام علي**؛ وهما فتنة «الجَمل» (٣٦هـ) وفتنة «صفّين» (٣٧هـ)[١]، غير أنّ اللّه مَنّ على **الإمام عليّ** بنَصْره، وخاب أملُ البُغاة.. وزاد من خَيْبتهم تلك المعاملة الإنسانية السامية، التي عامل بها الإمام علي دُعاة الفِتنتين، حتى ذهب إلى القول: «لا تقاتلوا الخوارجَ بَعْدي، فليس مَنْ طَلَبَ الحقَّ فأخطأَهُ، كَمَنْ طَلَبَ الباطلَ فأدركَه»[٢].

ثم هو يُحَذّرُ من فِتنة بني أميّة ـــ وقد قضى على الفِتَنِ السابقة ـ فيقول:

«.. أيها الناسُ، فإني فقأتُ عَيْنَ الفِتنة، ولم يكُنْ ليَجْتَرِىءَ عليها أحدٌ غيري، بَعْدَ أن ماجَ غيهبُها، واشتدَّ كَلَبُها، فأسْألوني قَبل أن تفقدوني.. ألا وإنّ أخوف الفتن عندي عليكم، فِتنةُ بني أميَّة، فإنها فتنةٌ عمياءُ مظلمة، عَمَّتْ خُطَّتُها، وخَصَّتْ بليَّتُها، وأصاب البلاءُ من أبْصَرَ فِيها، وأخطأ البلاءُ من عَمِيَ عنها..»[٣].

وهكذا، فإن **الامامَ علياً**، لا يكتفي بضرب المثال الصالح لِرَعيَّتِه، في كَيْفِيَّة التعامل مع مَنْ أساءَ ـ من أجل وحدة الصف ـ بل يوضح للآتي بَعْدَه، طريقَهُ من أجل تجنّبِ الإنخراط في الفِتَن، أو أن يكون وقوداً لها..

وتكتمل صورةُ **الامام علي**: المصلح الاجتماعي والإمام العادل، والحاكم الصالح، والحريص على كل صغيرة وكبيرة من مصالح الرعية، وشؤون الأمَّة... عبر ذلك، الدستور القيّم، الذي تفتقر إلى مثله معظم الدول اليوم.. لِبناءِ مجتمع متماسك، يحترم حقوق الانسان، ويقدّس حُريَّة الفكر، ويَصونُ حق الضعيف، ولا يبخس شأن القوي، ويشجع المرافق الاقتصادية، ويحارب الاحتكار، واستغلال المنصب لمآرب شخصيَّة، ويغذّي الروح، ويُنَمّي الجسد، ويرسم لكلّ إنْسانٍ حدوده، ويُبَيّنْ ما لَه وما عليه... إلى غير ذلك من التشريعات التي فيما لو طُبقت في أي زمان وأيّ مكان، لأوجدنا المجتمع الفاضل، بل

---

١. انظر: «أعيان الشيعة» ٣ / ٤٤٧ وما بعدها.

٢. «نهج البلاغة» ٩٤.

٣. «نهج البلاغة» ١٣٨، وانظر ص ١٠٢، فيما يكون من مروان بن الحكم وأولاده، من شَر.

الدولة الفاضلة.. إنه عهدُ عليّ ﴿عليه السلام﴾ إلى مالك بن الحارث الأشتر عندما وَلّاه مِصْرَ... العهدُ الذي يحتاج الى دراسة مطوَّلةٍ مستقلة، يظهر من خلالها كيف يُبنى السّلم الأهلي، بل كيف تُبنى الدُوَل[1].

نعم، إنه عليٌّ: من تربّىٰ في حجر رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، وتأدَّب بآدابه، وتخلَّقَ بأخلاقِهِ، واهتدى بهداه، واقتدى به في أقواله وأفعاله، ولازمه طول حياته؛ وهو الذي يقول في خطبته المسماة بالقاصعة: «وقد علمتم موضِعي من رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ بالقرابة القريبة، والمنزِلة الخَصيصة: وضعني في حجره وأنا وليد، يضمّني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسُّني جسدُه، ويشمّني عَرْفُهُ، وكان يمضغُ الشيءَ ثم يلقمنيه، وما وجدَ لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل.. ولقد كنتُ أتبعه اتباع الفصيل إثر أُمّه، يرفعُ لي في كل يومٍ من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به؛ ولقد كان يجاور في كل سنة بِحَرَاء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيتٌ واحدٌ يومئذٍ في الاسلام غير رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ و خديجة وأنا ثالثهما، أرى نورَ الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوَّة..».

وبعد هذا، هل يكون عجيباً إذا قال الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: «عليٌّ مني وأنا من علي»، و «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها»...و «يا علي؛ حربُك حربي، وسلمُكَ سِلمي»؟[2].

١. انظر هذا العهد كاملاً في «نهج البلاغة» ٤٢٦ ـ ٤٤٥.
٢. «مشكاة المصابيح» ٣ / ١٧٢١، وأنظر «أعيان الشيعة» ٣ / ٣٣٥ وما بعدها.

Proceedings of the Congress on *Imam Ali* & Justice, Unity and Security

(Arabic Articles)

Vol. 2

Institute for Humanities
&
Cultural Studies
(IHCS)
Tehran, 2002

۸-۱۸۲-٤۲٦-۹٦٤ (ج ۲)
۱-۱٦۳-٤۲٦-۹٦٤ (دوره)

۲۰۰۰ تومان